العذراء والشعر الأبيض

حسان عبد القدوس

العذراء والشعر الأبيض

دار المعارف

أصحاب السوابق

دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله فى احترام مبالغ فيه ، وقال الأستاذ أحمد فى هدوء :

– هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير ؟

وقال السكرتير فى رعشة :

– طبعاً يا أفندم .. طبعاً .. ثانية واحدة ..

وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه فى قرف وأطلق زفرة من صدره كأنه يستغيث بالله ، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة :

– الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا ..

ورفع الوزير حاجبيه فى دهشة وقال :

– ماذا يريد ؟

– يريد أن يدخل ..

– ألم يسبق أن طلب تحديد موعد ؟

– لا ..

وأطلق الوزير أنفاس الضيق ، وعاد السكرتير يقول :

– هل أقول إن سيادتك فى اجتماع وأحدد له موعداً فى الساعة الثانية ..

– أى شىء يا أحمد .. أى شىء .. اطلب ..

وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير :

– إنك تعلم أنى لم أطلب أبداً شيئاً منكم ..

وقاطعه الوزير :

– ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذى كنت ترفض كل ما يعرض عليك .. كان يمكن أن تكون الآن وزيراً ..

وضحك أحمد قائلاً :

– ربما لأنى أنبه منك .. فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيراً سابقاً .. وأنا أكره أن أحمل لقب « سابق » إنه أقرب إلى لقب « المرحوم » .. هل تذكر أخانا مختار رفعت .. إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق ، وهو أيضاً رئيس مجلس إدارة سابق ، وسكرتير هيئة سابق ، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق .. وهو يعيش فعلاً كأصحاب السوابق ، حائر فى تحقيق مكانه وصفته فى المجتمع .. إنى أعرف أن الذى يصاب بلقب « سابق » يصاب بجرح خطر يؤثر فى كل تفكيره وفى كل أحاسيسه .. إنه بعدها يصبح إما من أكبر المغالين فى النفاق وفى التزلف وفى الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين فى المعارضة وفى النقد .. ولا علاج له إلا أن يعود إلى الوزارة .. وكثيرون عادوا إما لجهودهم فى النفاق والاستسلام . وإما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذى يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود وهو مجروح ويزاول عمله وهو يحسب فى كل يوم أن يتلقى السهم المسموم من جديد ويصبح « سابقاً » مرة أخرى ، ولذلك فهو يعمل لما بعد خروجه من الوزارة أكثر مما يعمل لمسئولياته كوزير . ولست فى حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ، فهى معروفة ..

وقال الوزير فى حرارة وقرب :

– ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون .. ومنذ وجد الإنسان لم يوجد وزير بقى العمر كله وزيراً إلا فى القصص الخرافية ..

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك :

– هناك فرق .. فهناك وزارة بأكملها تترك الحكم ، أو وزير يخرج من الوزارة نتيجة معركة .. سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأى الفنى .. وفى هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعاً مستمراً وهو المعركة السياسية أو الفنية .. فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه داخل هذه المعركة .. ولكن الذى يصاب ويجرح هو الذى يصبح « سابقاً » بمجرد شلوت .. شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأن يخرج من الوزارة ليصبح مستشاراً أو بعد أن يمنح وساماً جليلاً ، وقد يكون شلوتاً إلى أسفل ويجد نفسه فى الشارع .. المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة أو خارجها ، ولكنه ألقى فجأة من الشباك وقرأ خبر وفاته فى الصحف وبدأ يستقبل المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم ، أو يقيم صيواناً لاستقبالهم .. إن آثار الشلاليت على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبداً حتى لو أخذ بنطلونه وذهب به إلى أكبر الإخصائيين فى إزالة البقع والفتوق ..

وقال الوزير فهمى عباس فى حدة :

– اسمع يا أستاذ أحمد .. إن هذا الكلام يمسنى ولابد أنك تقدر ذلك .. وأحب أن أقول لك أنه لا يهمنى أن أخرج من الوزارة اليوم أو غداً .. لا يهمنى فى أى لحظة أن أكون سابقاً .. كل ما يهمنى هو إحساسى بأنى أجلس على هذا المكتب لأؤدى خدمة لبلدى .. إنى أخدم بلدى سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير

أو إلى مكتب موظف درجة سادسة . .

وقال الأستاذ أحمد دون أن يبدو عليه أى تأثر بحدة سيادة الوزير :

– هذا ما فكرت فيه عندما عرضت على الوزارة منذ سنوات كما تعلم . . فكرت فى خدمة بلدى . . وأنا كما تعلم محام وخريج كلية الحقوق وكل دراستى خاصة بالقانون والعلوم السياسية والاجتماعية ، ولكن الوزارة التى كانوا يعرضونها علىّ هى وزارة المواصلات . . وقدرت أنى فى حاجة على الأقل إلى ثلاث سنوات لدراسة علوم المواصلات حتى أستطيع أن أقرر بعدها إذا كنت أستطيع أن أكون وزيراً أو لا أستطيع . أى أنى لم أتعال على الوزارة ولكنى فقط درست قدرتى وإمكانياتى على حمل المسئولية و . . .

وقاطعه سيادة الوزير :

– يا أستاذ أحمد . . إن الوزارة ليست مركزاً فنياً . . كل الاختصاصات الفنية يتولاها وكلاء الوزارة . . أما الوزير فهو مركز سياسى . .

وقال أحمد فى هدوء :

– هذا هو الخطأ الأكبر الذى نقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضاً معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التى يعيشونها مركزاً سياسياً . . أبداً . . إن مركز الوزير لا يكون مركزاً سياسياً إلا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب فى مواجهة حزب آخر . . ونحن ما زلنا متأثرين بالماضى عندما كانت الوزارات سياسية حزبية . . كان الوزير سياسياً لأنه وفدى أو لأنه دستورى أو لأنه مستقل ، ولكن الآن أى صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير . . لقد أخطأنا يوماً ووضعنا للوزراء صفة التمثيل السياسى الخارجى . . كنا فى مرحلة التفاهم مع

أمريكا نختار وزيراً له موقف سياسى رأسمالى ، وفى مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفييتى نختار وزيراً له موقف سياسى شيوعى . . وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية ، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسى ولا تستطيع ، وليس من حقها أن تقبل أو ترفض أى قرار سياسى . . إن السياسة مركزة فى تنظيم آخر خارج الوزارة . . وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تتفرغ الوزارة ككيان فنى تنفيذى . . ولكن هذه اللخبطة بين السياسة والتخصص العلمى أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسى ولا هو فنى . . أنت مثلاً . . . إنك خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية و . . .

وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلاً :

– يا أحمد . . أنت أستاذنا جميعاً ونحن نقدر لك استمرارك فى التفرغ للمحاماة و . . .

ورد أحمد مقاطعاً :

– حتى مكتبى كمحام تعرض لكل هذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة . . فأنت تعلم أن عدد الموكلين أو الزبائن الذين يعتمدون على مكتبى محدود ، فرغم أنى متفرغ للمحاماة كعمل فعلاً إلا أنى أكثر تفرغاً للفكر السياسى منذ تخرجت وقبل أن أتفرغ . . وكانت صورتى وسمعتى السياسية والكتب السياسية التى كتبتها ونشرتها ، ثم ما هو معروف عنى من عمليات ثورية كنت أقوم بها فى شبابى ، كل ذلك أثر فى إقبال الناس على مكتبى كمحام . . وكنت أعطى الناس العذر ، فمع افتراض أنهم يقدروننى كسياسى عاشوا معه جيلاً كاملاً ، إلا أنهم لا يحتاجون فى قضاياهم إلى سياسى بل يحتاجون إلى محام . . ثم قد يكون القاضى مختلفاً معى فى آرائى السياسية فيتأثر بهذا الخلاف فى حكمه ، فما ذنب صاحب القضية . .

إن من صالحه دائماً أن يختار محامياً متفرغاً تفرغاً كاملاً للمحاماة .. هذا ما كنت أعتقد .. إلى أن قابلت مرة الرئيس فى لقاء خاص ، وأنت تعرف أنى تعودت أن ألقاه كثيراً كصديق ، ولكن فى هذه المرة نشرت المقابلة فى الصحف ضمن المقابلات الرسمية ، وكانت الصدمة التى تعرضت لها هى أنى فوجئت فى اليوم التالى مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكتبى .. زبائن جدد .. وأنواع جديدة من القضايا .. وفرح عبد العاطى وكيل المكتب الذى عاش معى العمر كله وهو يعانى تقتير القدر عليه فى الزبائن ، واستحملت أنا أسبوعاً وأسبوعين وأنا أقابل كل من يأتى إلى المكتب وأقرأ وأبحث كل قضية .. ثم توقفت .. إنها ليست قضايا ، إنها عمليات تحتاج إلى وساطات ، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إلىّ كمحام ، إنما لجأوا إلىّ كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر فى الصحف .. إن الذى يقابل الرئيس يستطيع بلا شك أن يقابل رئيس الوزراء ، ويستطيع أن يقابل الوزير ، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أى وكيل وزارة .. ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا .. و .. وكانت النتيجة هو أنى اعتذرت عن جميع القضايا التى جاءتنى بهذا الفهم الجديد لقيمتى ، بل إنى أغلقت مكتبى وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر ..

قال الوزير فهمى عباس ساخراً :

– لأن لك قرية تغنيك عن المكتب .. ولكن لو لم يكن لك شىء فى القرية أين كنت تذهب .. اعذرنى يا أستاذى عن هذا السؤال ..

وقال أحمد دون تأثر :

– تقصد أكل العيش .. إنى أستطيع أن أعيش بلا عمل لأنى أملك أرضاً فى القرية ، ولذلك أستسلم لكل آرائى السياسية لأنى لست محتاجاً .. هذا

ما تقصده .. وهذا ما جئت لأطلب وساطتك فيه ..

ودق جرس التليفون بجانب الوزير ، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد

وقال الوزير فى عجل :

– لا .. لا .. لا مواعيد ..

ثم التفت إلى أحمد قائلاً :

– فى خدمتك يا أستاذ أحمد ..

وقال أحمد :

– أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تخيب أملى ..

وقال الوزير مبتسماً :

– لقد عودتنا على المفاجآت ..

وقال أحمد :

– لقد اخترتك ولجأت إليك لأنى مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحلل كل موقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب ..

وقال الوزير كأنه يتعجله :

– شكراً .. كلنا من تربيتك ..

وقال أحمد فى هدوء وبين شفتيه ابتسامة حزينة :

– جئت لأوسطك حتى تسعى لإقناعهم بوضعى فى السجن ..

وقال الوزير كأنه ينتفض :

– ماذا تقول .. السجن ؟!

وقال أحمد فى هدوء :

– نعم .. السجن .. إن الشىء الوحيد الذى أطلبه من الثورة بعد هذا

العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة ، هو إصدار قرار بوضعى فى السجن . .

ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون ، وقال :

– ماذا فعلت وجئت تعترف به حتى تدخل السجن . .

– لم أفعل شيئاً بعد . .

– ولكن بأى سبب تريد أن يدخلوك السجن . .

– تحت التحقيق . .

التحقيق فى ماذا وأنت لم تفعل شيئاً . .

– التحقيق فى احتمال أن أفعل شيئاً . . .

– أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكفى لتوجيه أى اتهام . .

– ليس القانون . . ولكنى أحد المقربين إليكم . . كل الناس تعرف أنى من المقربين . . والمقربون لهم امتيازات كثيرة ، والامتياز الوحيد الذى أطالب به هو إدخالى السجن . .

– ولكن لماذا ؟

لأن القرية لم تعد تكفى . .

– تكفى لماذا ؟

– لهربى من نفسى . . إن السجون وجدت لتحمى الناس وتحمى الدولة . . وأنا أريدها لتحمى نفسى من نفسى . .

– لا أفهمك . .

– حتى تفهمنى يجب أن تقدر أولاً أنى تعبت . . إنى الآن فى الستين من عمرى . . الواحد والستين . . ورغم ذلك ففكرى لا يزال فى شبابه لا يريد أن يشيخ معى ولا يريد أن يستسلم لواقعى . . وأصبحت أخشاه وليس هناك من

وسيلة إلا أن أحبس نفسى فى زنزانة حتى لا يستطيع فكرى أن يتحكم فى تصرفاتى ولا حتى فى لسانى . .

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأسند رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يسمع مزيداً من هذا الكلام ، ثم قال :

– صدقنى يا أحمد . . لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها . .

وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرجوه أن يحتمله :

– يكفى أنك اعترفت أنى أصبحت مشكلة . . وحتى تصل إلى تحديد خطوط مشكلتى يجب أن تعرف أنى لا أقبل أبداً أن أحمل لقب « سابق » . . أفضل أن أموت قبل أن يعلن أنى أصبحت من أصحاب السوابق . . وأنا ليس لى صفة أعتز بها وأحرص عليها إلا صفتى كثائر . . فكر ثورى . . وإيمان ثورى . . ولا أريد أن أعيش حتى أصبح فى نظر وتقدير الناس ثائراً سابقاً . . واحد من ثوار زمان . . واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية . وبما أنى فى الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسى ومن ثورتى فإن أفضل مكان وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الثائر هو السجن . . إن وجودى فى السجن هو تأكيد لصفتى كثائر وفى الوقت نفسه إعفائى من أداء مهنتى كثائر . .

وقال الوزير ساخراً :

– كنا نعرف أيام زمان نوعاً من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه فى الصحف ويشتهر كأنه أحد الثوار . وهو ليس بثائر . إنما مجرد نصاب باسم الثورة ، وأخشى بعد هذا العمر الثورى الطويل الذى عشته أن تحسب من بين هؤلاء . . تريد السجن لتبدو بطلاً . .

وقال أحمد فى هدوء :

– لا ألومك على تصور هذا الاحتمال . . لقد تصورته أنا أيضاً . . خشيت أن تعتبروا سعيى إلى السجن نوعاً من البحث عن الشهرة والبطولة . . ولكن يجب أن تقدروا أنى لم أقم بأى عمل يمكن أن يبرر دخولى السجن . . إنى أدخل السجن بناء عل طلب شخصى . . أى يمكن أن يصدر القرار فى صيغة « تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبساً مطلقاً بناء على طلبه الشخصى » ثم لا ينشر هذا القرار فى الصحف ولا يدرى أحد أين اختفيت . . أرجوك . . افهمنى . . يمكن أن تعتبرنى مريضاً فى حاجة إلى دخول مستشفى . . والمستشفى الذى يصلح لى هو السجن . .

– أنت لست مريضاً . . والسجن ليس مستشفى . . وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائى لا يقره قانون . . فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصى . .

– هذا صحيح . . ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئاً . . وأنت تعرف كم كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى . .

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذى يعرفه ثم قال :

– أستاذ أحمد . . إن ما يحيرنى هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثورى . . لماذا . . إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أى فكر ثورى . . ولا أعتقد أنك ضد الثورة أو معارض لها بحيث تتصور أنها لن تحتمل أفكارك . .

وابتسم أحمد ابتسامة الأستاذ وقال :

– هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة . . وأنا وأنتم أصبحنا من زمن نختلف فى الموقف . . أنا أقف فى الشارع وأنتم تقفون فى الداخل . . والذين يقفون فى الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة . . حرية بلا مسئولية تنفيذية . . إنها حرية الفكر . . والذين يقفون فى الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال . . السلاسل والأغلال التى تفرضها المسئولية التنفيذية . . وكل من الطرفين على حق فى موقفه . . الذى يقف فى الشارع يمكن أن يطالب بمشروع شعبى يتكلف ألف مليون جنيه ، والذى يقف فى الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن لأن الدولة لا تملك ألف مليون جنيه . . أى أن الثائر المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثورى على المستقبل ، أما الذى يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر فى المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتغطية المستقبل ، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب ، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال . . ربنا يحلها . . و . . .

وقاطعه سيادة الوزير فهمى عباس قائلاً :

– المهم أنك قلت إن كلاً من الطرفين على حق فى موقفه . . أى يمكن التفاهم بينهما . . و . .

وقال أحمد مقاطعاً :

– لا . . التفاهم هو اتجاه الضعفاء المستسلمين . . لا يمكن لأى ثورة أن تتقدم فى مواجهة المستقبل إلا تحت ضغط . . وهو إما أن يكون ضغطاً من خارجها

أو ضغطاً من داخلها . . ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول فى حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه . . وكى يدافع عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم . . على التطور . . على مواجهة كل مطالب المستقبل . . على تحقيق المبادئ الثورية . . فإذا اختفى هذا الضغط أو ضعف ، أصيب المسئولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس . . والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم ، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تتصرف إلا فى حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور . . ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط . . الثورة الشيوعية مثلاً . . إن مبادئ ماركس لم يطبق واحد على مائة منها حتى اليوم . . والمجتمع السوفييتى لا يزال يعانى من الانفصال الطبقى ، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات بيروقراطية . . لماذا . . لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجى عليها ، ثم قضت على قوة الضغط الداخلى أيضاً . . أى قضت على الفكر الشيوعى الذى يقف فى الشارع . . وفى أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعى كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة ، ثم بدأ المجتمع الشيوعى بعد ستالين يتقدم فى بطء لأن الحكومة سمحت بظهور بارقة من الضغط الداخلى . . لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التفاهم بين الفكر المنطلق والفكر التنفيذى المسئول أى التفاهم بين المقيدين بالواقع والمتطلعين إلى المستقبل . . لا يمكن أن تستمر إلا تحت قوى ضاغطة . . كل منها يضغط على الأخرى . .

وقال الوزير وهو يبتسم كأنه توصل إلى الحل الذى يرضى أحمد :

– إذن فإنى أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن نترك لك حرية التعبير عن القوة الضاغطة . . إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك . .

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة :

– لا . . لا . . لا أستطيع . . قلت لك إنى تعبت . . تعبت من نفسى ومنكم . . أريد أن أستريح . . أن أحال على المعاش . . ولا أطلب وساماً ولا حتى خطاب شكر. أريد أن أستريح فى السجن . . إنى كمن يرسل كتابه الذى انتهى منه لوضعه فى غلاف محترم له . . والسجن هو الغلاف الذى أريد أن أغلف به حياتى . . هل فى هذا شئ يصعب على الدولة . .

وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر :

– إنى لا أستطيع أن أتوسط لك فى مثل هذا الطلب الغريب . . إنهم سيتهموننى بالجنون لمجرد أنى أنقل إليهم فكرة مجنونة كفكرتك . .

وهدأ الأستاذ أحمد وقال وهو يبتسم ابتسامة مسكينة ضعيفة :

– لقد فكرت فى الجنون أيضاً . . فكرت أن أدعى أنى أصبت بمرض فى عقلى وفى أعصابى . . وأطلب من الطبيب أن يضعنى فى مستشفى المجاذيب . . واخترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطراً . . والانتهاء بالجنون هو نهاية مشرفة أيضاً لصاحب أى فكر ثورى . . لأن معناها أنه أجهد عقله فى سبيل وطنه إلى أن جن ، وقد يعتبر الناس أن الدولة هى التى وضعتنى مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المتهمين السياسيين تخلصاً من محاكمتى . .

وقال الوزير فى تأثر :

– أستاذى إنى أشفق عليك من كل ما تفكر فيه . . من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف . .

وقال أحمد :

– هل تعرف ما فكرت فيه أيضاً . . فكرت فى الانتحار . . إن الكاتب

الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئاً جديداً لقرائه . . وأنا . . ربما كانت هذه هي سر أزمتي . . لم أعد أستطيع أن أقدم فكراً جديداً لوطني . . لم أعد أستطيع أن أستمر باتجاهي الثوري وأصبح من حتى أن أنتحر . . على الأقل فإني أفضل لقب « مرحوم » على لقب « سابق » . . الثائر المرحوم أشرف من الثائر السابق . .

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق :

– تستطيع أن تفكر في شيء آخر . . تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسي والتفرغ لمشروع زراعي أو اقتصادي . . كثير من زملائنا كما تعلم أنهوا وضعهم الثوري وتركوا كل مسئولية سياسية ونجحوا نجاحاً كبيراً في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات . .

ونظر أحمد إلى الوزير كأنه يلومه وقال :

– تريدني أن أكون واحداً من هؤلاء . . إنهم جميعاً استغلوا الثورة في الاتجار . . لقد وجدت كتاباً أصدره واحد منهم في إحدى دول الخليج . . دول البترول . . وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة « عضو مجلس قيادة الثورة » رغم أنه لم يكن عضواً في مجلس القيادة ، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجاري ربح منه الثائر السابق أكثر من مليون جنيه استرليني . . هل هذا ما تريده مني ؟ . . هل يهون عليك أستاذك إلى هذا الحد . . هل تهون عليك الثورة لتنتهي إلى يد أمثال هؤلاء ؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهي الحديث :

– لا . . لا أقصد هذا النوع من الناس . . هناك مشروعات أخرى مشرفة . . تستطيع مثلاً أن تقيم في القرية مزرعة دجاج . . الدجاج الآن يمثل حاجة شعبية

ويمثل أزمة حادة من أزماتنا ، وهي أزمة المطالب الغذائية . . كل صاحب أرض لديهم الآن مزرعة فراخ . . وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة تعيش الآن على مشروعات الفراخ . .

وقال أحمد ساخراً :

– إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس . . عقلي وعقلهم . . تبادل الفكر . . ولا أستطيع أن أتعامل بعقلي مع عقل فرخة . . وإن كانت الفراخ كما تقول أصبح لها قيمة شعبية ودور وطني . .

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهم بالقيام حتى يلفت نظر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة :

– على كل حال يا أستاذي . . أنا آسف . . لن أستطيع أن أعرض مشروعك على أحد . . لا أستطيع . . أكرر أسفي . . وقام أحمد من على مقعده ومد يده يصافح الوزير مودعاً قائلاً :

– كنت أنتظر هذا . . وقد قلت لك في أول الحديث إنك ستفاجأ . . وعلى كل حال من حقي أن أختار . . إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار . .

والوزير يودعه حتى الباب قائلاً :

– لا تنس مشروع الفراخ . .

وقال أحمد ضاحكاً . .

– هذا إذا قامت الفراخ بثورة . .

السـاعات الأخيرة قبل الغروب

كنت أقضى أياماً فى جزيرة رودس . . سائحة تبحث عن الهدوء والجمال . . وكنت جالسة فى حديقة فندق « جراندأوتيل » على حافة حمام السباحة أقرأ كتاباً يضم مجموعة قصص قصيرة لكتاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو وميكافيللى إلى الكاتب المعاصر مورافيا . . ووقف أمامى شاب وسيم رشيق كأنه رسم خطوط وعضلات جسده بنفسه وبذوق فنان ، وفيه سمرة أوربا التى تختلف قليلاً عن سمرتنا . . سمرة مصر . . وهى سمرة يتميز بها شباب جنوب اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط . . وقد حاولت اولاً أن أتجاهل هذا الشاب ولكنه ظل واقفاً أمامى حتى اضطررت أن أرفع عينى إليه والتقيت بابتسامة حلوة بين شفتيه شدت ابتسامتى إليه . . وقال وكأنه يعرفنى من زمان :

– سيدتى . . منذ أيام وأنا أراك لا تفعلين شيئاً إلا القراءة فى الكتب . . إنك تستطيعين القراءة فى أى بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة ، إنها جزيرة تستطيع أن تعطى أكثر مما يعطى أى كتاب . .

وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة ايطالية .

وقلت وابتسامتى تتسع بلا افتعال كأنى فرحة بهذا الجمال الذى يعرض نفسه علىّ :

– إنى لا أستطيع أن آخذ شيئاً من رودس قبل أن أنتهى مما يعطيه لى هذا الكتاب ..
قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يدى فى زهق كأنه ينظر إلى منافس خطير :

– هل يأخذ منك وقتاً طويلاً ؟

قلت :

– إنى أقرأ فى قصة قصيرة .

قال :

قد تأخذ منك ساعة ..

قلت :

– ربما أقل ..

قال وعيناه مركزتان على وجهى كأنه يحاول أن يكتشف مصيره معى :

– هل أعود إليك بعد ساعة .. أقصد نصف ساعة ؟

قلت وقلبى يضحك :

– حاول ..

قال فى إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره :

– سأحاول ..

وابتعد عنى وعيناى تجريان وراء قوامه الممشوق المرسوم بخطوط فنان وتتعلقان بشعر رأسه .. إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضة الشبان هذه الأيام ولكنه يضعه فى قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه ، وهو ليس شعراً ناعماً لامعاً ولا شعراً خشناً غامقاً ، ولكنه شعر متموج فى لون الساعات الأولى من الغروب ، وأحسست إحساساً قوياً بأنى أريد أن أمد يدى وأغرز أصابعى بين خصلات شعره .. وطبعاً قاومت هذا الإحساس ورفعت كتابى أمام عينى أحاول أن أهرب منه وأعود

إلى القراءة ..

ومنذ بدأت أعتمد على القراءة لملء الفراغ الواسع الذى أتعرض له فى كثير من أيامى ، وأنا لا أقرأ إلا القصص .. القصص الطويلة والقصص القصيرة .. ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت ، كما لا أحس بأنى فقط أنتقل لأعيش فى الخيال ، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأنى أقرأ دراسة اجتماعية .. إن القارئ يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية الإنسانية من خلال القصص التى يكتبها كتاب كل شعب .. ولذلك أصبحت هوايتى أن أجمع القصص التى تكتب فى كل بلاد العالم .. قصص روسية وقصص يابانية وقصص هندية و .. و .. بل أنى قرأت أيضاً قصصاً كتبها كتاب من غانا ومالى وكوبا .. و .. وأصبحت أحس كأنه من السهل على أن أكتشف شخصية أى إنسان من أى بلد فى العالم ، حتى هذا الشاب الذى وقف أمامى .. ألبرتو .. إنى أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات كتبها كاتب ألمانى بعنوان « قيمة الحب عشرة » وبطلها شاب احترف اصطياد السائحات العجائز الإنجليزيات والأمريكيات ويعطيهن كل ما يطلبن من متع نظير أجر غال ، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيتاً كاملاً مخصصاً لاستقبال عجائز النساء ، واتسعت شهرة هذا البيت فى مجال السياحة فى ألمانيا حتى أصبح يتردد عليه النساء الصغيرات أيضاً ، وهو لا يبخل أبداً بقواه كرجل يبيع الجنس ، ولكنه بدأ يحس أنه فى حاجة إلى بعض المقويات ، ثم لم تعد المقويات تكفى لتغطية طلبات الزبائن فاستعان باثنين من الشبان ليعملا معه داخل البيت ، ولكنه كان دائماً هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجائز والشابات .. إلى أن أحب .. أحب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

وأحبها فعلاً بكل عقله وقلبه وقرر أن ينهى أعماله الخاصة بالسائحات ويتفرغ للحب ، ولكنه عندما بدأ يعطى للحب . عندما بدأ يمارس الحب . . فشل . . لم يستطع . . وكان يعود ليمارس مهنته مع سائحة عجوز فينجح ، ثم يجرى إلى حبيبته معتقداً أنه استرد ثقته فى قواه ولكنه يفشل . . واعتقد أن الحب يرفض أن يستجيب مع آلته ، وهو قد حول نفسه وجسده إلى آلة لا تستطيع أن تعيش الإحساس الإنسانى . . الإحساس بالحب . . فانتحر . .

هذه هى القصة التى ذكرنى بها ألبرتو وحكمت بها عليه . . إنه هو أيضاً يصطاد السائحات العجائز . . إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب « جيجولو » وهى مهنة منتشرة فى كل فنادق العالم ، وفى فنادق مصر أيضاً . . وحتى أمس كان ألبرتو فى خدمة امرأة أمريكية ربما كانت فى السبعين من عمرها ، ولعلها سافرت هذا الصباح وتركت رودس فجاء يعرض نفسه علىّ . .

وأنا . .

هل أنا عجوز . . إنى – بلا كذب – فى التاسعة والخمسين من عمرى ، ولن أعترف بأنى وصلت الستين عندما أصل إليها ، ولكنى محتفظة بقوامى ونضرة جلدى المشدود فأبدو كأنى فى الأربعين من عمرى ، وصدقونى أنى لم أجر عملية شد جلد وهى العملية التى أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقى فى مصر . أبداً . . وربما كان احتفاظى بنضارتى يرجع إلى هدوئى الدائم ، ورضائى عن نفسى ، ونجاحى العائلى . . نجاح زوجى ونجاح أولادى وبناتى . . إن النجاح فى حد ذاته عملية تجميل تشد الجلد وتحتفظ بنضارة اللمحات واتساق القوام . .

لا ، إن ألبرتو لم يأت إلىّ لأنى عجوز . لقد جاء إلىّ لأنى وحيدة . . إنه يرانى منذ أسبوع فى هذا الفندق وأنا وحيدة . . ووحدة المرأة هى إغراء طبيعى

لتقدم إليها أى رجل . . الوحدة . . الفراغ . . إنهما أكثر ما يهدد تصرفات الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة . . وأنا أتغلب على وحدتى وفراغى بقراءة القصص . .

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش فى داخله كأنى أحمى به نفسى من ألبرتو . . ولكنى لم أستطع . . إن ألبرتو أثار فى نفسى إحساساً بأنى مظلومة فى وحدتى ، برغم أنها ليست المرة الأولى التى أعيش فيها وحيدة وفى فندق وفى بلد أجنبى ، فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسافر كثيراً مع زوجى إلى أوربا ، وسافرت معه مرات إلى أمريكا ، ومرتين إلى روسيا ، وفى كل مرة كان ينتهى من عمله فى العاصمة التى نقصدها ، ثم يقنعنى بأنه فى حاجة إلى السفر وحيداً إلى عاصمة أخرى ، وغالباً ما تكون لندن أو باريس، ونتفق على أن أنتظره فى مدينة من المدن السياحية المعروفة . . وكنت أقبل هذه الفرقة بينى وبينه فى بساطة وفرح لأنه فى الغالب كانت ابنتى أمينة وابنى طارق معنا ، أو كانا يلحقان بى فى البلد التى نختارها وأقضى معهما أسبوعاً أو أسبوعين فى انطلاق عائلى حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف ونعود جميعاً إلى مصر . . ولكن أمينة وطارق كبرا . . أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين ، وطارق يقيم فى أمريكا . . ورغم ذلك فزوجى لا يزال يتركنى وحيدة فى كل مرة نسافر فيها إلى أن يعود إلىّ . . إنه فى حاجة إلىّ عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه فى الدعوات التى توجه إليه ، ولأنه لا يطمئن إلى أحد فى حفظ أوراقه إلا إلىّ ، وقد أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه . . ثم بعد أن تنتهى العملية يصبح وليس فى حاجة إلىّ فيبتكر الأعذار ليتركنى ، وكان زمان يجد فى الأولاد حجته فهو يريد أن يدخلهما مدرسة فى جنيف

أو يريد أن يلتحقا بالدراسة الصيفية فى أكسفورد أو كمبردج ، أو يريد لهما أن يتمتعا بمصايف أوربا ، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حجة تقنعنى إلا أنه يريد أن يكون بعيداً عنى ، وكنت أستسلم لما يريد . . ماذا يمكن أن يكون غرضه من هذه الفرقة المتعمدة . . أن يمتع نفسه كرجل . . يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذى يعطيه بالثمن . . لا يمكن أن يكون محمود مرتبطاً بأى علاقة جادة مع أى امرأة . . إنى أعرفه . . إنه يلعب أو يعطى نفسه إجازة زوجية ، وهو فى حاجة إلى هذه الإجازة خصوصاً بعد أن وصلنا إلى هذه السن . . إنه الآن فى الثانية والستين ولا يزال محتفظاً بكل رجولته . . إنى أعرف رغم إنى فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرجولة . . إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها . . نفس الصنف الذى ينتمى إليه ألبرتو . . امرأة تبيع نفسها . ورجل يبيع نفسه . . ولكنى لم أشعر أبداً بحاجتى إلى رجل من هذا النوع ولا من أى نوع آخر . . إنى عشت وحيدة فى مصايف أوربا وفى جزر البحر الأبيض . . فى كابرى . . وسيسليا . . وكريت . . وجزر كنارى فى المحيط الأطلنطى . . أصبحت أنا التى تختار الملجأ الذى أعيش فيه إلى أن ينتهى زوجى من لعبه . . وأنا التى اخترت جزيرة رودس لمجرد أنها قريبة من أثينا التى كنا فيها للعمل . .

وفجأة وجدت ألبرتو واقفاً أمامى يقول من خلال ابتسامته الرزينة :

— هل انتهت القصة . .

ورفعت عينى إليه وطارق جديد يلح على عقلى . . لماذا لا أجرب . . ماذا سأخسر . . إنها مجرد تسلية تريحنى من وحدتى وفراغى ومن قراءة القصص . .

وقلت وأنا أبتسم له ابتسامة كبيرة :

— الواقع أنها لم تنته . .

وربما شجعته ابتسامتى فمد يده وأخذ الكتاب من بين يدى وقال :

— سأروى لك قصة أمتع مما تقرئين . . ومن يدرى ربما استطعنا أنت وأنا أن نكتب قصة . . هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية . .

وقلت فى دهشة :

— كيف عرفت أنى أكتب بالعربية . .

قال وهو يشد مقعداً ويجلس بجانبى :

— سألت . . لقد أخذتك أولاً على أنك إسبانية . . إن ملامحك فيها كثير من ملامح الإسبانيات ولكنى عندما سألت عرفت أنك مصرية . .

وقلت ضاحكة :

— وماذا عرفت أيضاً . .

قال كأنه يطمئننى :

— لن أعرف أكثر مما تريدينى أن أعرف . . المهم ألا نبقى الآن هنا . . هل ذهبت إلى ليندوس . .

قلت :

— سمعت عنها ولم أذهب لأنى لا أحب الذهاب فى أفواج سياحية . .

— قال :

— ستكونين أنت وحدك فوجاً كاملاً . . إنك تساوين عشراً . . تعال . .

وببساطة تركت له يدى يشدنى منها ويبقى محتفظاً بها ونحن نسير إلى خارج الفندق ويدعونى للركوب بجانبه فى سيارته . . إنها سيارة فيات صغيرة قديمة ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأنى أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها ،

أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتنى من كيانى الاجتماعى الذى يفرض على أن أركب السيارة البويك والمرسيدس الكبيرة الفخمة .. أصبحت حرة .. والطريق إلى « ليندوس » يعلو إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادى وكله مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حولى يكاد يطير بى .. لا .. ليس مجرد الجمال .. لقد عشت قبل ذلك فى القمم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال ، ولكن هذه هى المرة الأولى التى أحس فيها بأنى أعيش مغامرة مع رجل غريب .. إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتباهه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال .. ولكن .. لماذا أسميها مغامرة .. إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حسابى الخاص ، وألبرتو ليس إلا دليلا سياحياً ترجماناً .. وأنا مطمئنة إليه .. مطمئنة لأنى سيدة كبيرة .. عجوز .. لا يمكن أن يطمع فيها أى شاب كألبرتو ..

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة .. إنه يجعلنى أضحك عندما يريد أن يضحكنى .. ويزيد معلوماتى عندما يريد أن يزودنى بمعلومات .. ويروى لى قصصاً مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التى أقرؤها .. وقد انتهزت فرصة سكت فيها وسألته :

– ألبرتو .. ماذا تعمل .. ما هو عملك ؟

ونظر إلىّ كأنه استسخف السؤال وتلعثم قليلاً ثم قال :

– أنا رجل أعمال ..

قلت :

– أى نوع من الأعمال ؟ ..

وأطال نظرة اللوم إلىّ ثم قال :

– كل الأعمال تؤدى إلى نتيجة واحدة .. كلها محاولات لتحقيق سعادة الإنسان .. إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه .. والجرسون فى بار يبيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن .. ورئيس الوزراء فى أى بلد يدعى أنه يبيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء .. وأنا أزاول أى عمل يحقق السعادة .. لا يهم نوع العمل .. المهم أن أكون سعيداً به وأن أسعد به غيرى ..

قلت :

– إنك تسعدنى فعلاً ، ولكن هل أنت سعيد بى ؟

قال :

– إنى الآن سعيد بالأمل فيك ولا يمكن أن يتحقق الأمل بمجرد نظرة أو مجرد لقاء .. إن الأمل يولد كالجنين ثم يأخذ فى النمو إلى أن يتحقق ويستكمل نفسه .. وأملنا أنت وأنا لم يولد إلا منذ لحظات ألا تسمعين صراخه .. واء .. واء .. واء ..

وضحكت وعدت أسأله :

– هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التى كنت أراها معك ..

ونظر إلى وبين شفتيه ابتسامة كأنه يشفق بها علىّ وقال :

– أراهن أنك سيدة بلا تجارب .. إنك تجعليننى أحس كأنى أول رجل فى حياتك ، بعد زوجك طبعاً ..

قلت كأنى أنهره :

– إنك لم تدخل حياتى بعد ..

قال :

– أقصد أنى أول رجل غريب تلبين دعوته ..

قلت :

– هذا صحيح . .

قال :

– وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفى كل شىء عنى رغم أنى معروف فى كل أوروبا تقريباً . . وهذا أيضاً ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية . . جاكلين . . و.

وقاطعته :

– إنى لا أغار ولكنى فقط أحاول أن أعرفك . .

قال :

– حتى محاولة معرفتى تجعلك كأنك طفلة صغيرة تجتاز تجربة لأول مرة ، فإن معرفتى لا تهم فى أى شىء ، المهم هو اللحظة التى نقضيها معاً ، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا . ولكن . . لا يهم . . سأروى لك قصة جاكلين . . لقد عرفتها منذ عشر سنوات فى فينيسيا وكنت لا أزال فى اولى تجاربى ، وكان لها فضل كبير على . . علمتنى كل شىء . . ورفعتنى إلى الحياة التى كنت أحلم بها . . قدمتنى إلى أرقى المجتمعات . . وعشت معها فى أكبر الفنادق التى أصبحت الآن زبوناً دائماً بها . . بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتى للإقامة عندهم كما يتنافسون على استئجار الفرق الموسيقية أو الفنانين المشهورين . . وقد أخذتنى جاكلين معها إلى أمريكا . . إنها تملك أسهم إحدى شركات البترول فى ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيق ، رغم كل ما كانت تحيطنى به جاكلين . . لقد اشترت لى طائرة خاصة لأتنقل بها داخل أمريكا ، وكنت أطير بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأخسر وجاكلين تتحمل ، ورغم ذلك لم أعد أطيق . . وكانت كريمة فاتفقت معى على أن أعود إلى أوروبا وتأتى هى إلى كلما أرادتنى . . لقد سافرت صباح اليوم . . ومنذ ثلاثة أيام . .

منذ رأيتك فى الجراند أوتيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكلين . . وأقول لك بصراحة . . لو عادت جاكلين فسأضطر أن أعود إليها :

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التى يتكلم بها :

– إنها كبيرة . . أكبر منى بكثير . . لعلك تحس بها كأم . .

قال فى بساطة :

– لا . . أحس بها وأحبها كعمل . . إن الطبيب لا يهمه سن المريض . . وأعتبرنى طبيباً نفسانياً

ويزداد انبهارى بصراحة ألبرتو . . إنه لا يخفى شيئاً عن طبيعة عمله بل يتحدث كإخصائى فخور بتخصصه . . إنه لا يخدعنى . . ولا يحاول أن يصل إلى شىء لا أعرفه . . إنه يقدم لى نفسه ويتركنى أختار . . والسيارة القديمة الصغيرة تعلو وتهبط بنا بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم عجزت عن السير وتوقفت ، وصرخ ألبرتو :

– هذا ما كنت أخشاه . .

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يعبث فيه إلى أن عاد إلى التحرك . . وعدنا نقفز فى طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت ، ونزل منها ألبرتو قائلاً :

– إنها غلطتى . . كنت أريد أن أشترى سيارة جديدة من روما وليس من هنا . .

ثم دار وفتح لى الباب قائلا :

– سنضطر أن نسير كيلومتراً واحداً ونصل إلى قرية « مالونا » . . إن هناك أحسن نبيذ . . هل تستطيعين السير كيلومتراً واحداً . . أستطيع أن أحملك بين ذراعى لو أردت . .

وقفزت من السيارة فى خفة كأنى أحاول أن أثبت له شبابى ، وتركنا السيارة وراءنا دون أن يهتم ألبرتو حتى بإغلاق أبوابها ، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت :

– ألا يستحسن أن نغلق أبواب السيارة ؟

قال وهو يأخذ يدى فى يده :

– لم نعد فى حاجة إليها .. ليأخذها من يريد ..

وسرنا حوالى نصف ساعة .. وكل ما حولى جميل .. والجمال فى داخلى .. أحس كأنى أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفها فارس أحلامها .. ولم أكن أحس بألبرتو بالذات .. ليس هو .. وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيسهم بعينى وأنا جالسة فى مقاهى أوربا .. ولكن ما أحس به هو ما يحيطنى به ألبرتو .. هو الإحساس بالمغامرة .. بالشىء الجديد .. بالجمال الجديد .. جمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد .. وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلاً :

– استراحة لمدة عشر دقائق ..

ثم سقط على الأرض فى ظل الشجرة وأسقطنى معه .. ثم سكت عن الكلام .. وأخذ ينقل عينيه فى أنحاء وجهى ، ثم مد ذراعه ووضعها فوق كتفى ، ثم قال فى همس :

– أريد أن أحاول ..

وعيناى متعلقتان بوجهه الوسيم وشعره المتموج فى لون الساعات الأولى من الغروب ولكنى حائرة .. لا أدرى ماذا يريد أن يحاول .. ولا أدرى ماذا أريد أنا ..

ومال بشفتيه فوق عنقى ، ثم تسلل بهما فوق وجنتى ، ثم أحسست بهما بين

شفتى .. وتجمدت شفتاى .. منذ أكثر من عشر سنوات لم أتلق قبلة بين شفتى .. زوجى عبد اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغنى عن الحذاء القديم ، وأنا أيضاً .. شفتاى .. كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل .. ولذلك تجمدت شفتاى بين شفتى ألبرتو .. وهمس مبتسماً :

– إنك مازلت ساذجة .. أحس كأنى يجب أن أعلمك كل شىء حتى القبل ..

وشفتاى لا تزالان متطلعتين إلى شفتيه كأنهما تستجديانه ألا يتركهما .. وعاد إليهما .. وتركتهما له .. أطلقتهما من سجنهما الطويل .. ولكنى وأنا أقبله أحاول أن أتذكر كيف كنت أقبل قبل أن أجتاز سن القبل .. وكنت أخشى أن أفعل شيئاً منفراً أو شيئاً لا يعجبه .. ولكن ألبرتو كان يتصرف بين شفتى تصرف الأستاذ .. إنه يعلمنى القبل .. يلقى على الدرس الأول .. وتغلبت علىّ نزعة كبرياء المرأة فأبعدت شفتى عنه قائلة :

– كفى يا ألبرتو .. دعنا نعد إلى السير ..

وقفزت واقفة ، وقفز معى وهو يبتسم كأنه يعلم كل أحاسيسى ، وبدأنا من جديد ، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعزف لى الألحان بين أشجار الزيتون والبرتقال ..

إلى أن وصلنا إلى قرية « مالونا » ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل ، وجلسنا لنتناول طعام الغداء والنبيذ ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق « الديستوتك » .. وبعد أن انتهينا وقررنا أن نعود لنستأجر سيارة ونعود إلى « رودس » فتحت حقيبتى وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدرخمات ومددت بها يدى من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة :

– ألبرتو . . أرجوك ادفع عنى الحساب . .

وكنت أعتقد أن هذا ما يجب أن أفعله بعد أن اعترف لى ألبرتو بعمله . .

ونظر إلى ألبرتو فى دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال :

– ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة . .

ثم دفع الحساب من جيبه ، وأعتقد أنه كان سخياً فى دفع البقشيش فقد أثار فى الدكان كثيراً من التهليل وصيحات المرح . . وأكثر من ذلك . . أخذنى إلى دكان فى القرية يبيع تحف السيراميك التى تشتهر بها رودس ، واشترى لى قطعاً غالية دفع ثمنها من جيبه . .

وركبنا السيارة التاكسى وأنا حائرة . . لا أدرى كيف أحدد أسلوب التعامل معه . . ترى كيف يتعامل زوجى عبد اللطيف مع النساء اللاتى يعطينه اللحظات الحلوة . .

وقال ألبرتو :

– ضاعت منا « لاندوس » اليوم . . فالليل هناك بارد وهم ينامون بمجرد أن تنام الشمس . . ولكننا سنذهب غداً أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة . .

والتاكسى ينطلق بنا عائداً بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وألبرتو يضع ذراعه فوق كتفى وأملت رأسى واسترحت بها فوق كتفه . . ثم رفعت يدى ودسست أصابعى بين خصلات شعره . . حققت ما كنت أحلم به منذ رأيته . . شعره المتموج فى لون الساعات الأولى من الغروب . . لم لا . . إنى أعيش فى حالة نسيان . . نسيت عمرى ، ونسيت زوجى وأولادى ، ونسيت مركزى . . إنى أعيش قصة ، ويبدو أن إدمانى قراءة القصص جعل منى امرأة مخمورة بقصة تؤلفها وتعيشها . .

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسى إلى الفندق وتركنى ألبرتو على أن نلتقى فى التاسعة . . إنه هو أيضاً الذى دفع أجر التاكسى وقد حاولت أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسماً :

– لا تكونى ساذجة . .

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة . . كنت كأنى أحاول أن أخلق نفسى من جديد . . لقد دخلت الحمام ولأول مرة أهتم بأشياء مضت سنوات طويلة لم أهتم بها . . إنى أستعرض كل تفاصيل جسدى فى المرآة ، وأتحسس صدرى لأطمئن إلى أنه لا يزال يحتفظ بشىء من تماسكه . . وساق . . وذراعى . . وبطنى . . لا شك أنى لا أزال محتفظة باتساق قوامى . . وبذلت فى الإستحمام مجهوداً لم أتعود أن أبذله ، ولم أكن فى كل ذلك أفكر فى ألبرتو أو يخطر ببالى . . لم أكن أعد نفسى له . . ولكنى كنت أعد نفسى لنفسى . . كنت أعيش شخصية جديدة أريدها هكذا . . ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعرى ناعم وكنت قادرة دائماً على أن أعقصه كما أريد بلا كوافير . . وعندما بدأت أختار الثوب الذى سأبدو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير التى تعودتها . . لقد تعودت أن أختار ثوب المساء لأظهر به فى الدعوات الرسمية بصحبة زوجى ، أو فى السهرات الاجتماعية بصحبته أيضاً وكنت أتجه دائماً إلى الأزياء الحشمة العاقلة ، وكنت معروفة فى كل المجتمعات باتساق ذوقى فى اختيار ثوبى مع الاحتفاظ بهذه الحشمة العاقلة . . ولكنى الليلة لست حشمة ولا عاقلة ، إنى أفكر فيما يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر فى الثوب نفسه . . ذراعى . . عنقى . . وإبراز صدرى وخطوط ظهرى . . كل ما أتخيل أنه جميل منى أحاول أن أبرزه . .

ووقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التى أؤلفها . . ولكن . . ماذا

أحمل معى لألبرتو . . يجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته فى إسعادى . . هكذا تتطلب القصة . . وألبرتو ليس « جيجولو » رخيصاً يقبل أن تدفع له المرأة حساب السهرة . . إنه محترف غالى الثمن . . وكنت قد اشتريت من باريس علبة سجائر ذهبية وولاعة سجائر كارتيه هدية لأخى إسماعيل . . سأعطيهما لألبرتو وأشترى لإسماعيل هدية أخرى . .

واستقبلنى ألبرتو فى بهو الفندق كأنه بهر برشاقتى ولا أريد أن أقول جمالى . . على الأقل بهر بجمال ثوبى وجمال إعدادى لنفسى . . وجلسنا نتناول العشاء فى صالة الفندق . وأخرجت علبة السجائر والولاعة وقدمتهما له قائلة :

– حتى لا تنسانى . .

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية . . قلبها بين يديه وقال بلا حماس :

– ألف شكر . . كنت فى حاجة فعلاً إلى علبة سجائر وأفضل دائماً ولاعات كارتيه :

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا . . ثم بدأ يثير إهتمامى بحكاياته ونكاته ويقضى وقتاً طويلاً فى اختيار أنواع النبيذ ، ويروى لى تاريخ كل نوع . . وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلنى أشرب . . لم أسكر ولكنى شربت . . وبين كؤوس النبيذ قال لى ألبرتو :

– غداً نذهب فى رحلة بحرية بين الجزر . . وبعد غد نكون قد اشترينا السيارة ونذهب إلى ليندوس . . خبرينى . . هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو . .

وتوقف عقلى لحظة عند هذه الكلمة . . ماذا يقصد . . ولكنى بسرعة تجاهلت كل ما يخطر على بالى مما يقصده ، وقلت :

– ألفا روميو تليق بك . . والمرسيدس تليق بى . . إن فرق السن يتحكم

أيضاً فى أنواع السيارات . .

وقال كأنه غضب :

– لا تتكلمى عن السن مرة أخرى . . تعالى . . سأثبت لك أن لا فرق بينى وبينك . .

وقام من حول مائدة العشاء وقمت معه ، وفى هذه المرة لم يدفع الحساب ، قيد المبلغ فى حسابى بالفندق ، ويبدو أن الجرسونات فى هذا الفندق وهو أكبر فندق فى المدينة تعودوا كلما رأوه مع امرأة من النزلاء أن يضيفوا الثمن على حسابها . .

وقلت وأنا ألحق بخطواته السريعة :

– إلى أين ؟

قال :

– سترين . .

قالها وكله ثقة فى نفسه وكأنه تملكنى وكأنى استسلمت له . . ثم توقف برهة عند مكتب البواب وطلب مفتاحاً ، ونظر البواب إلى وابتسم ابتسامة لم أرتح لها ثم أعطاه المفتاح ، ثم أدخلنى معه فى المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع إنه نفس الطابق الذى أقيم فيه . . ثم سار بى فى نفس الممر الذى يؤدى إلى حجرتى . . ووقف أمام حجرتى فعلاً . . الحجرة ٤٤٤ . . وفتح بابها بالمفتاح . .

وقلت كأنى أصرخ :

– كيف أعطوك مفتاحى ؟

قال :

– لقد كنت معى . .

قلت :

– لم أسمعك تطلب مفتاحى ، ولو سمعت لاعترضت . .

قال فى ثقة :

– لا أظن . .

ودخل الغرفة كأنها غرفته ، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زجاجة « ليكير » من عصير النعناع ، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدنى ليجلسنى إلى جانبه ، وقال وهو يحتوينى بعينيه الغامضتين وابتسامته الحلوة تكاد تلتقط شفتى :

– يا عزيزتى . . إن العمر إحساس . . وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة فى الرابعة عشرة ، وأحس بنفسى كأنى وحش فى الأربعين قرر أن يفترسك . . وأنت . . أنت فى حاجة إلى هذا الإحساس . . الإحساس بأنك امرأة . . إن القدرة على الإحساس لا تضعف أبداً ولا تذبل . .

وقد بدأت أحس فعلاً . .

وبين كئوس العصير المسكر يشتد إحساسى . . إحساسى بأنى امرأة وأن ألبرتو رجل . . وأننا قريبان جداً من الفراش . . وألبرتو يتحكم فى بمهارة صنايعى . . يجيد الصنعة . . لا شىء بيننا سوى الصنعة . . المهارة فى الإخراج وفى الوصول . .

واكتشفت أنه لا شىء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأى امرأة . . قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب ، ولكن ليست هناك أبداً سن تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس . . وقد كنت أعتقد أنى وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات ، ولكنى الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة . . أحس كأنى أعيش فى جسد تنبض كل خلجة منه بالحياة . . ليس فى داخلى قطعة ماتت أو فقدت الإحساس . . وربما كان هذا هو سر ما كنت أعانيه

مع زوجى عبد اللطيف . . إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لى فتجاهل إحساسى كل هذه السنين . . إنه ما تعانيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن . . وقد حررنى ألبرتو من المعاناة . .

وتركنى ألبرتو عارية فوق الفراش . قائلا :

– سأراك غداً . .

وفى لحظة خلعت من أصبعى خاتمى السوليتير الذى يحمل فصاً ماسياً زنته ثمانية قراريط . وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوى الآن ثلاثين ألفاً ، وأعطيته لألبرتو قائلة :

– بعه . . واشتر لنا سيارة ألفا روميو . .

وأخذه ألبرتو بعد أن قبل أصبعى الذى خلعته منه . .

إنه ثمن غال دفعته للمفاجأة التى فوجئت بها . . مفاجأة أنى ما زلت أعيش إحساسى كامرأة . .

ومهما كان الثمن الذى دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجى عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصاً بعد أن تعدى الستين حتى يمارس إحساسه برجولته مع نساء أوربا اللائى يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو . . يقدمن متعة الإحساس .

° ° °

ونمت ليلتها . . لعلى لم أنم بل أغمى على فقد كان ألبرتو قد استنزف كل قواى من ساعة أن قابلته فى الصباح حتى تركنى على فراشى بعد منتصف الليل . . واستيقظت فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر . . لا . . لم أستيقظ ولكنى فزعت نافرة من فوق الفراش كأن ناراً مستنى ، وكل ما حدث أمس ينطلق فى رأسى . . كيف استسلمت لكل هذا . . إن هذا الصنف من المحترفين أمثال

ألبرتو أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكنى لم أستسلم أبداً . . بل لم يكن يخطر على بالى التعرض لمثل هذه التجربة . . وزوجى إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملتها دون أن أحاول أبداً أن أعطى لنفسى الحق فى حياة خاصة بى انتقاماً منه أو رداً عليه . . ثم مركزى وقيمتى فى المجتمع المصرى والعربى والأوربى إن المركز والقيمة لا يصنعهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك . . وما أعرفه عن نفسى الآن يهدم مركزى وقيمتى . . وأولادى . . يا خبر . . كيف أواجه أولادى وأحفادى وفى صدرى خطيئة كبيرة أخفيها عنهم . إن الإحساس بأنى أخفى عنهم شيئاً يضعفنى أمامهم . . يجعلنى أستسلم لأخطائهم ، لو وقعت ابنتى أمينة فى خطيئة ماذا أقول لها وأمها وقعت فى نفس الخطيئة . . والله . . ماذا يفعل بى الله . . إنه قد يغفر للرجل ، بل منحه الحق فى الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة . أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمنحها شيئاً تحمى به نفسها إلا إيمانها به واستسلامها لحكمته . . قد يصب غضبه علىّ فى صحتى ، أو فى أولادى ، أو فى زوجى . . يارب كن غفوراً . . احمنى من غضبك . . وقررت أن أقوم وأتطهر وأصلى . . ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة . . إنها موقع الخطيئة . .

وتعذبت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس شيئاً كبيراً ولا غريباً ، وأنى يجب أن أتحرر من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث . . إن فى الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرتو وكل منهم يبيع بضاعته لسيدات كلهن فى سنى وأكبر منى وكلهن من عائلات كبيرة ثرية . . بل حتى المجتمع العربى . كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال ألبرتو كلما خرجن من بلادهن . . بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هى

السوق الرائجة لصناعة ألبرتو . . بل ربما كان ألبرتو لم يخترنى ليلقى علىّ شباكه إلا لأنه عرف أنى عربية ، وأقيم فى هذا الفندق فأنا ثرية . . ثراء بترولى . . وقد دفعت فعلاً ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول . .

وبقيت فى غرفتى حتى المساء لم أطلب شيئاً آكله ولا حتى كوب ماء . . ثم نزلت إلى بهو الفندق فى المساء وقد قررت أن أنهى أى علاقة بألبرتو ، ولا مجرد سلام . .

ووجدته أمامى كأنه كان فى انتظارى . . وقلت له فوراً :

– آسفة مسيو ألبرتو . . إنى متعبة وفى حاجة لأن أبقى وحيدة . .

وقال فى هدوء وابتسامته الحلوة تتطلع إلى شفتى :

– هذا ما كنت أنتظره . . فإنى أعرف أنك مازلت مبتدئة . .

وابتعد عنى . .

وعيناى تجريان وراءه وإحساسى يأخذ فى التحرك . . إحساسى بأنى امرأة إنى أريده . . إن ما تركه فى ليلة أمس لا يمكن أن أتخلص منه بمجرد قرار . . إنى أحس بكل قطعة من جسدى فى لهفة إليه . . شفتاى . . صدرى . . ساقى . . لقد أصبحت . . أصبحت مريضة . . ولن أقاوم مرضى وأنا وهو فى مكان واحد . . وبسرعة اتجهت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعداً فى الطائرة التى تتجه إلى أثينا صباح الغد . . وما كدت أبتعد عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامى يقول فى صوته المنغم الهادئ :

– هل تسمحين أن أصحبك إلى المطار . . هناك شىء يبقى دائماً ولا يكلف شيئاً . . وهو الصداقة . .

وأجبت وأنا أهرب من إغرائه ومن ضعفى :

– نعم . . نعم . . أراك فى المطار . .

وعدت أجرى إلى غرفتى دون أن أتناول طعام العشاء ، وخفت أن أموت لو نمت دون أن آكل فطلبت قطعة من الساندويتش وكوب ماء . .

ولم أنم ليلتها . . أتعذب فى صراع بين ما يريده هذا الإحساس الذى أثاره فى ألبرتو، وبين تصميمى على أن أعالج نفسى من هذا الإحساس . .

وفى الصباح لم ينتظرنى ألبرتو فى المطار ولكنه انتظرنى فى بهو الفندق ، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائبى وتصفية حسابى ثم وضعنى فى سيارة يقودها . ليست السيارة القديمة وليست جديدة ، وقال :

– إذا التقينا مرة ثانية ستركبين الألفا روميو . .

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعى بالعدول عن السفر . . لم يطلب شيئاً أبداً . . كأنه فعلاً طبيب يجد أن العلاج الوحيد لحالتى هو أن يتركنى أتخذ القرار بنفسى . .

وقبل أن أتركه فى المطار أعطانى بطاقة تحمل اسمه وعنوانه . قائلا :

– إنه عنوانى فى روما ولكنهم من هناك يستطيعون أن يتصلوا بى فى أى مكان أنا فيه . . إذا احتجت إلىّ . .

ورفعت عينى إليه ولم أتكلم . . ولا حتى كلمة وداع . .

وجريت إلى الطائرة . .

وفى أثينا اتصلت بزوجى عبد اللطيف فى لندن وطلبت منه أن يأتى إلى فى اليوم نفسه . . ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين ، فقلت له إنى مريضة وسأعود غداً وحدى إلى القاهرة . .

وعدت . .

لعلى أنسى وأشفى من إحساسى بأنى إمرأة . .

* * *

بعد ستة شهور قرر زوجى عبد اللطيف أن يسافر إلى برلين فى عملية جديدة ، وأبلغنى الخبر كان المفروض أن أسافر معه ولكنى صرخت دون أن أتعمد الصراخ وكأنه فاجأنى بشيطان مخيف :

– لا . . لن أسافر . .

وقال فى دهشة :

– لماذا ؟

قلت :

– لأنى زهقت من السفر ولم أعد أحتمل

قال :

– ولكنه عمل . . والعمل فى حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معى فإن ما يمكن أن أصل إليه فى شهر أصل إليه فى يوم . . إن الزوجة تفتح دائماً أبواب المجتمع الجاد أمام زوجها . . عندما تكونين معى ندعى إلى جلسات عائلية وتتعرفين على زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لنجاح العملية . . وعندما أكون وحدى أدعى فى النوادى الليلية وفى المكاتب . . وكل واحد من الآخرين يتمنى أن أكون وحدى حتى يستغل ضيافتى فى السهر بعيداً عن زوجته ولكن هذا الأسلوب يعطل العملية ويفتح مجالات كثيرة غير محترمة . . وأنت تعرفين كل ذلك وأنا أعرف أنك تتمنين لى النجاح . . ولن أنجح بغيرك . .

وكنت فعلاً أعرف كل ذلك . . ورغم أنى حاولت كثيراً أن أقنعه بإعفائى من صحبته إلا أنه أصر واضطررت أن أقبل ولكنى قلت :

– فى شرط واحد . ألا تتركنى وحدى . . غير مسموح لك بأجازة زوجية . .

وقال مستريحاً :

– موافق . . ولا دقيقة وحدك . .

وسافرنا . .

وتمت العملية . .

وفى نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقنعنى بأنه مضطر أن يسافر إلى لندن وحده .

وصرخت :

– خذنى معك . .

قال :

– ليس هذا فى صالح العملية . . إنى سألتقى هناك بشخصيات عربية والعرب لا يصحبون زوجاتهم . . العمليات معهم تتم فى النوادى الليلية والكباريهات كما تعلمين .

وكنت أعلم ، ولكنى أعلم أيضاً أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء الشخصيات العربية ولكن الارتماء فى حياته الخاصة ، وقد أصر على السفر وحده ، وقلت له إنى سأعود إلى القاهرة غداً أو بعد غد . .

وسافر زوجى . .

وكنت وحيدة فى غرفتى بالفندق ، ووجدت نفسى أبحث عن البطاقة التى تحمل اسم ألبرتو ، وكنت أحتفظ بها كنوع من التحدى لنفسى . . نوع من إقناع نفسى بأنى لا أهرب ولكنى أقاوم . . وقلبت البطاقة فى يدى وابتسمت ابتسامة ساخرة . أسخر من نفسى . .

وطلبت روما بالتليفون ، وردَّ علىَّ صوت نسائى ناعم ، وسألت عن ألبرتو ، وقالت :

– إنه فى اسبانيا . . مايوركا . . احتفظى بالخط سأحول لك المكالمة . .

وسمعت صوت ألبرتو . .

وقلت فى هدوء :

– ألبرتو قابلنى فى سان مورتيز . . غداً . .

يا أنت . . دعنى لغرورى

أنت . .

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور . . والواقع أني لم أنقطع عنك وحدك ولكني انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان ، ربما لأني فقدت ثقتي بنفسي إلى حد أني لم أعد أستطيع أن أواجه أحداً حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات أو التحدث في التليفون . .

وأنت تعلم كم كنت مغرورة بنفسي خصوصاً عندما أكون خارج لبنان . . كنت أقيم من نفسي أستاذة على كل مجتمع أجد نفسي فيه ، وأعطى لنفسي الحق في توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضاري . . وأنا – أستاذة علم التقدم الحضاري – لم أكن أقدر مستوى أي طالب في أي بلد عربي بأكثر من صفر . . وأنت وحدك كنت أمنحك درجتين من عشر درجات ربما لأني التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أستكمل بعد كل عناصر الغرور . . الجمال . . والذكاء ، والثراء المكتسب بالعمل لاثراء الصدفة الذي تحققه آبار البترول ، ثم قوة الجذب في كل المجتمعات العالمية التي حققت لي نجاحاً لا تحلم به أي فتاة أخرى . . كل هذا خلق لي الشخصية التي كنت أعتز بها . . شخصية الأستاذة . . شخصية العبقرية . . الشخصية التي كانت تمنحني

الحق فى أن أوزع نصائحى على كل من أقابله ، وأتصور كل يد تمتد إلى كأنها تستغيث بى لأنقذها أو لأسد حاجتها . .

وقد ضاع كل شىء . .

ضاع غرورى . .

أصبحت كلما التقيت بأحد يخيل إلى أنه ينظر إلىّ نظرة إشفاق لا نظرة الإعجاب التى تعودتها . . وكلما مددت يدى لمجرد المصافحة أحس بأنه يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه . . فإذا تحدث كان حديثه كله دروسا ونصائح كأنه هو الذى أصبح أستاذاً وأنا التلميذة الفاشلة الغبية التى لا تساوى أكثر من صفر . .

وقاومت . .

قاومت نفسى حتى أظل محتفظة بشخصيتى المغرورة . .

ولكن . .

لا أمل . . لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلا أن أنعزل بها . . انعزلت عن كل الناس الغرباء وقد أصبح كل من ليس لبنانيًّا غريباً عنى لا يعيش إحساسى ولا يتكلم لغتى ولا يفهمنى . . حتى أنت . . وكانت خطاباتك تصلنى فأقذف بها بعيداً وأنا أحاول أن أقنع نفسى بأنى أتعالى عليك . وعندما تتحدث فى التليفون أنكر نفسى عنك كأنى أرفضك ، لعلى بهذا التعالى والرفض أستطيع أن أحس بأنى مازلت محتفظة بشخصيتى المغرورة ، وإن كان الواقع هو أنى كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأنى أعلم أنها لا تحمل إلا مجموعة من النصائح التافهة والاقتراحات الفارغة التى تشبع بها إحساسك بأستاذيتك وترضى بها شهوة الشماتة لى . .

الشماتة . .

إنى أعيش فى إحساس بأن العالم كله شامت فينا . . كل فرد من بنى البشر يتلذذ بما يحدث لنا . . يتلذذ بدمائنا التى تغرق الشوارع ، وكياننا الذى يتهدم ، وصراخنا الذى يشق قلوبنا . . وقد يذرف العالم دموعاً شفقة علينا ، ويلف كرافت أسود حداداً على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكرافت فرحة فى القلب . . فرحة الشماتة . . فرحة سوداء . . وربما كانت شماتة الإنتقام من سنوات الغرور الذى عشنا نصبه على العالم . . شماتة التخلص من السيطرة اللبنانية التى لم تكن تعتمد على شىء إلا على الذكاء الغرورى . شماتة إنتصار الشىء على اللاشىء . .

وقد كنا لا شىء ، ورغم ذلك كنا نسيطر على كل العالم العربى إلى أن انتصر علينا شىء . . شىء مجهول . . وربما لأنه مجهول فقد انتصر . . فالمجهول هو الله . .

ولعل الشماتة التى أحسست بها يوماً كأنها سكين تذبحنى هى شماتة هذه المرأة التى تدعى ايفيت . . أنت تعرفها بل أنت الذى قدمتها إلى دون أن تدرى . . فايفيت مصرية مسيحية يسرى فى عروقها دم أجنبى لا أدرى أهو دم أرمنى أم جريكى أم فرنسى ، المهم أنها قدمت إلىّ نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية . . وأنت الذى عودتنى على أن أحس بمسئوليتى عن كل فتاة مصرية تصادفنى . . أحبها لمجرد أنها مصرية ، وأعطيها لمجرد أنها مصرية . . ربما لأنك يوماً ما كنت مسئولاً عنى . . مسئولاً عن تكوين عقليتى وفكرى . . كان عقلك المصرى هو الذى هذب عقلى اللبنانى . . ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل فى كل ماهومصرى . .

وكانت « ايفيت » تبدو مسكينة ، غلبانة ، رغم أنها جميلة . . وعرفت أنها من عائلة كانت غنية فى مصر وكان أبوها يمتلك مصنعاً للرخام ، ثم فرضت عليه الحراسة ،

وضاعت كل أمواله ، ورغم ذلك بقى فى مصر وبقيت «إيفيت» معه ، تحاول أن تغطى حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وأولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاولت أن تكتسب صداقتى عندما جاءت إلى بيروت بصحبة بعض صديقاتى المصريات . .

ولا تدرى ماذا فعلت لايفيت . . إنى منذ اليوم الأول أقمت من نفسى أستاذة عليها بحكم غرورى بنفسى ، وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية . وحتى تشرفنى فى هذه المجتمعات كنت أشترى لها الفساتين ، وأعطيها من عندى الجوارب وأدوات المكياج . وأرسلها إلى حلاق الخاص ليساوى شعرها ويرسل لى بفاتورة الحساب . . وكانت هى تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أن تحتفظ لى بغرورى . . وضعت نفسها كسكرتيرة لى . . دائماً تتأخر عنى بخطوة إلى الوراء ونحن ندخل أى مجتمع . . وقد تدهش لإحساسى بقيمة هذه المظاهر رغم أنى فتاة مازلت فى الثانية والعشرين من عمرى ولا يهمنى أن أتظاهر بسكرتيرة أو بدلدولة تسير خلفى . . ولكن هكذا أنا . . أو ربما هكذا لبنان . . الغرور الحضارى . . أو ربما كانت هذه هى عقدة اللاشىء . . فإن اللاشىء يتظاهر بأنه شىء . . ونحن لا شىء . .

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحاً فى مجتمع بيروت . . ولأنها مسيحية فقد تخاطفها الشبان المسلمون . . فهذه هى أيضاً عقدتنا فى لبنان . . الشاب المسلم يهمه أن يستولى على فتاة مسيحية ، والشاب المسيحى يهمه أن يستولى على فتاة مسلمة . . مجرد شهوة طائفية . .

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لى كل يوم تقريراً عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أى شاب . . كأنها تستأذننى ، أو كأنها تقنعنى بأنها لا يمكنها أبداً أن تستغنى عنى . . وكانت دائماً تأخذ بنصائحى . . كنت أطلب منها أن تعتذر

من دعوة ، فتعتذر ، أو أنصحها بأن تقاطع شاباً من الشبان فتقاطعه . . وكان كل ذلك يجرى فى إطار من الصداقة الحلوة وإن كان فيه ما يرضى غرورى وفيه أيضاً ما يدفعنى إلى الاستمرار فى تحمل مسئوليتها . .

إلى أن تعرفت ايفيت بشاب من أثرياء الصدفة - أقصد أثرياء البترول - واستمرت فى هذه الصداقة مع موافقتى إلى أن عرض عليها أن يأخذها معه إلى شواطئ الريفيرا ونصحتها أن تقبل بعد أن قضيت ليالى أشرح لها كيف يمكن أن تحتفظ به . . إنها لن تحتفظ به إلا إذا احتفظت بشىء لم يأخذه منها . . أنا أعرف هذا . . أنا أستاذة التقدم الحضارى . . أنا المغرورة . .

وسافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لى . . إلى أن بدأت الأحداث فى لبنان . . حدث كل هذا الذى حدث . . وبدأت نوبة الضياع وفقدان الثقة فى نفسى تزحف على صدرى ، وفكرت أن أسافر إلى أثينا فى اليونان لأرتاح . . وكنت أعلم أن ايفيت هناك . . لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأنى تعودت أن أرتاح هناك . . أى أنى لم أكن فى حاجة إلى إيفت . . لا يمكن أن أحتاج إليها أبداً . . ولكن لأنها هناك فقد شرفتها بأن أرسلت لها برقية بموعد وصولى . .

ووصلت أثينا ، ولم أجد إيفيت فى انتظارى ، ولكنى وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمى ويطوف بها بين الناس . . إن إيفيت لم تأت لاستقبالى ولكنها أرسلت لى سيارتها . . ما شاء الله . . والله عال يا ست إيفيت . . ورغم ذلك ركبت السيارة وأنا أقول للسائق فى لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غرورى :

- أوتيل هيلتون . .

وقال السائق فى برود :

- السيدة تنتظرك فى البيت . .

يا سلام سلم . . جناب السيدة إيفيت تنتظرنى فى بيتها . . ولا أدرى لماذا سكت وقبلت . . ربما تغلبت على عقلية الدبلوماسية اللبنانية . . عقلية إدارة الأعمال . . أن تأخذ كل زبون وفقاً لشخصيته . .

واستقبلتنى إيفيت وفى عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة . . خيل إليها أنها نفس النظرة التى استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهى مسكينة فقيرة مشردة . .

وقبلتنى إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة راقدة على سرير فى المستشفى . . أو ربما كانت قبلة أشبه بالبقشيش تحسن به على فتاة شحاذة . . وقالت وهى تبتسم لى ابتسامة ضعيفة خيل إلىّ أنها محاولة فاشلة لمداراة شماتتها فى :

– كنت أنتظرك من مدة . . وقد خصصت لك غرفة فى البيت . . قد لا تكون على قدر غرفتك فى بيروت ولكنها على الأقل غرفة فى بيت . .

قلت وأنا أنظر إليها فى دهشة :

– لقد حجزت فى الهيلتون . .

قالت كأنها أصبحت مسئولة عنى :

– لماذا الهيلتون . . كونى واقعية . . وأقيمى معى هنا . . وقد دبرت لك كل شىء . .

قلت وقد بدأت أواجهها فى سخط وتحد :

– أفضل الهيلتون . .

قالت وهى تنظر إلىّ فى تعجب :

– لا تكونى عنيدة . .

وابتسمت كأنى أخفف عن نفسى ألم الجرح وقلت محاولة أن أحدثها بنفس

الأسلوب الذى تعودت أن أحادثها به فى بيروت :

– المهم . . كيف حالك مع صديقك . . احكى لى بالتفصيل . .

وقالت وهى لا تزال واقفة أمامى كأنها أستاذتى :

– ليس هذا مهماً . . المهم هو أنت . . إننا سنقيم فى أثينا مدة طويلة . . و . .

وقاطعتها فى حدة :

– لن أقيم هنا إلا بضعة أيام . .

قالت فى دهشة :

– ثم إلى أين ؟

قلت :

– العودة إلى بيروت طبعاً . .

قالت كأنها تصرخ :

– هل أنت مجنونة . . بيروت انتهت . . صدقينى . . دبرى أمرك من اليوم واتركى لبنان . .

فقلت وأنا أنتفض أمامها :

– أنت المجنونة . . لم ينته شئ . . وأنا لست هنا كمهاجرة . . ماذا تتصورين . . هل أصبحنا كالفلسطينيين كتبت علينا الهجرة من بلادنا . . إن فلسطين أخذها اليهود أما لبنان فلا تزال لنا حتى لو عشنا فيها يقتل بعضنا بعضاً . . واسمعى . . . كونى معى كما تعودت أن تكونى . . لا شئ تغير . .

ونظرت إلىّ وبين شفتيها ابتسامة ساخرة تفضح شماتتها :

– أعتقد أن كل شئ تغير . .

وخطوت نحو الباب كأنى أجرى منها قائلة :

– سأذهب إلى الفندق . . اتصلى بى هناك . .

قالت وهى تجرى ورائى :

– انتظرى . .

ومدت إلىّ يدها بكمية من النقود اليونانية ، وهى تقول :

– كنت قد دبرت كل شىء على أن تقيمى معى . . بل إنى اشتريت لك ثوبين وحذاءين وأنا أعرف مقاسك . . ولكن ما دمت عنيدة وتريدين الإقامة فى فندق فقد تكونين محتاجة . .

وأمسكت النقود بين أصابعى كأنى أتحسس مجموعة من الديدان السامة ، ثم ألقيت بها فى وجهها بعنف وأنا أصرخ :

– قلت لك أن لا شىء تغير . .

ونزلت أجرى على السلم وأنا أغلى بالثورة فى داخلى . .

إن الناس تظن أننا وصلنا إلى حد الإفلاس . . إنهم لا يعلمون أن سر ثراء بيروت أنها لا تحتفظ بأموالها فى داخلها . . إن ما فى بيروت هى أموال العرب أوأموال الأجانب وكل أموال اللبنانيين خارج بيروت . . لا يحتفظ لبنانى فى بيروت إلا ما يكفى حياته اليومية . . ولكن ثروته . . كنزه . . دائماً خارج بيروت . . ولذلك ، رغم كل هذا الدمار ، فنحن أقوياء . . أغنياء . . أقوى من شماتة الناس فينا . .

واعتذرت لإيفيت عندما حاولت أن تلقانى فى المساء . . قلت إنى متعبة . . وفى اليوم التالى سافرت إلى جزيرة كورفو . . قضيت أياماً . . وحيدة . . أمتص حيرتى وعذابى . . ثم عدت إلى بيروت . .

العودة دائماً إليها . . إلى بيروت . .

يا أنت . .

إنى لا أكتب لك لأنى فى انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك ، ولكن لأنى فقط تعودت أن أرتاح وأنا أكتب لك ، وأحس وأنا أطلعك على أسرارى كأنى ألقى بهـا فى بئر لا قرار لها . . ولكن . . هل يمكن أن يكون فى لبنان كله ما يسمى سراً . . لا أظن . . إن المجتمع اللبنانى عندما قرر التعامل مع الواقع مهما كان مضمون هذا الواقع ، أراح نفسه من ثقل الأسرار . . ولكن الأسرار لها طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائماً أن يكون لى سر . . ولأنى لا أجد لى سراً فى لبنان فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نفسى بأنى أبوح بسر لرجل غريب يعيش بعيداً عنى . .

وحكايتى مع طونى منذ بدأت لم تكن سراً فى لبنان حتى لو تظاهرت أمامك بأنها سر خطير أطلعك عليه . .

أنا مسلمة . . وهو مسيحى . . مارونى . .

وعائلتى تقيم كما تعلم – أو كانت تقيم – فى حى الأشرفية . . حى الأغلبية المسيحية . . ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم فى شارعنا والباقى عائلات مسيحية معظمها مارون . . ولم يكن لذلك أى أثر فى مجتمع حى الأشرفية . . أو على الأقل بين العائلات الكثيرة الغنية فى الأشرفية . . كانت أعز صديقاتى هى عايدة وهى مسيحية من الروم الارثوذوكس ونسرين وهى مارونية وفاتيما وهى بروتستانت . . و . . و . . كنا دائماً معاً وسهرات البيوت تجمعنا كلنا . . نرقص معاً . . ونضحك معاً . . وقد نتنافس مسلمة ومسيحية على رجل واحد . .

ولم أعرف طونى وأنا صغيرة ، ولم يكن من أبناء الجيران ، ولكنى إلتقيت به منذ عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحى . . وفى خلال

أسابيع أحس كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد . . ولم تمض شهور إلا وكنت قد قررت أنى لن أتزوج إلا طونى . . كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلا الزواج . . وليس هذا جرماً فى المجتمع اللبنانى . . مسلمة تتزوج مسيحياً . . حتى لو تزوجت السنة بالمارون . . وابنة زعيم لبنانى مسلم متزوجة من مسيحى سويسرى . . وابنة زعيم إسلامى آخر متزوجة من مسيحى فرنسى . . وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية . . وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحيـــة معروفة ، وصديق آخر مسيحى مارونى تزوج من مسلمة ، وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبنانى بحبها المسيحى وأصبح يستقبلهما على أنهما خطيبان رغم أنهما لم يعلنا خطبتهما ولا قررا الزواج . . ليس غريباً فى المجتمع اللبنانى أن يتزاوج المسلمون والمسيحيون . . ولم يكن غريباً أن أقرر الزواج من طونى . . ولكن التقاليد فى لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج . . ثم يتركان للاثنين حرية التصرف . . فإذا أعلن المسيحى إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلاً صاخباً كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحى وضمه إلى حظيرة الإسلام . . أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتيهما فإنهما يسافران إلى قبرص ويتزوجان هناك زواجاً مدنياً ، ويعودان زوجين لا يلبث المجتمع كله بما فيه عائلتاهما أن يعترف بزواجهما . .

وكان فكرى يتجه إلى أن أتزوج طونى زواجاً مدنياً لا لأنه رفض اعت الإسلام حتى يتزوجنى ، ولا لأنى رفضت اعتناق المسيحية لأتزوجه . . لا كان تفكيرى قائماً على اقتناع . . قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام – فى اقتناعى – حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كـ

لنشر الدعوة . . نشر الإسلام . . من يريد مسلمة فليسلم . . والإسلام فى لبنان لم يعد فى حاجة إلى دعوة ، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبنانى مسلمة ، والمسيحيون يدخلون فى الإسلام أفواجاً على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات . . ثم إنى أستطيع تقرباً إلى الله وتكفيراً عن أنانيتى أن أجعل من أولادى وأولاد طونى مسلمين . . أفراداً فى طائفة الإسلام . . إنى واثقة أنى أستطيع . .

ولم يكن كل ذلك يعنى أننا سنتزوج اليوم أو غدا . . فطونى لا يزال فى الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلا أنه لا يزال فى حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله. .ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين . . ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بينى وبين طونى . .

إلى أن بدأت الأحداث . .

وقد بدأت وكأن لا شىء يمكن أن يحدث . . مجرد تعبير عن الرأى بطلقات الرصاص . . وفى كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سينتهى غداً . . إن من طبيعة الشعب اللبنانى التفاؤل ، وكان تفاؤل كل طائفة يجعلها تتصور أنها ستنتصر غداً . . ولكن لا شىء ينتهى . . وشوارع الأشرفية تزدحم بالشبان المسلمين ، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكنى عندما كنت ألمحهم فى الطريق كان يخيل إلى أنهم غرباء . . رجال آخرون غير رجال لبنان . . هذه النظرة التى يتطلعون بها إلىّ لم أصادفها أبداً من قبل . . وهذه الشفاه المقلوبة التى تكاد تطلق بصفة على وجهى لا يمكن أن تكون شفاهاً لبنانية . . وبدأ إحساس جديد يسيطر علىّ كلما خرجت إلى

الشارع . . إحساس الخوف . . إننا لم نتعود الخوف فى بيروت . .

والأحداث تزداد بشاعة . . القتلى يسقطون فى حينا . . حى الأشرفية . . ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أتصور أنها معركة بين المسيحيين والمسلمين . . إنى مازلت أتزاور وأتحدث فى التليفون طول النهار والليل مع صديقاتى المسيحيات . . وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلاً نبكى عليه كلنا وعندما يسقط مسيحى فربما يشتد البكاء أكثر لمجرد أنه يمثل أغلبية الحى . . ثم طونى . . إنه لا يزال حبيبى وسيبقى حبيبى . . بل إن أمى بدأت تتعلق به وتكف عن رفضها له ، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحى . . مسيحى فى بيتنا فلا يمكن أن يعتدى علينا المسيحيون . . ولكننا لم نكن نستطيع أن نستمر فى خداع أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع جيراننا المسيحيين . . والمارون بالذات . . وصمم والدى على أن نترك الأشرفية . . أن نهاجر إلى حى آخر نحتمى فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين . . وربما كان ما يدفع والدى أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخى ياسر . . إن أبى نفسه هادئ عاقل يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث . . وأنا وأختى وأمى لا خوف علينا . . لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء . . ولكن أخى ياسر ، رغم عدم انتمائه إلى أى تنظيم من التنظيمات المتقاتله إلا أنه شاب . . وهو جرىء . . يهوى أن يعرف ويجرب كل شيء بنفسه . . ومن يدرى . . لعله فى خطوة يضيع . .

واستسلمت للهجرة بعيداً عن الأشرفية وبعيداً عن حبيبى طونى من أجل أخى ياسر . .

وكانت هذه هى الأيام التى سافرت فيها إلى اليونان لأستريح كما رويت لك . . وقد عدت بعد أسبوعين . . ولم أصدق أذنى بما سمعته . . لا يمكن أن يحدث

كل هذا . . ويحدث فى لبنان . . إنهم لا يكتفون بالقتل . . إنهم يشوهون قتلاهم . . يمزقونهم قطعاً . . وهم يعتدون على البيوت . . يسرقون ويدمرون . . كلهم . . كلهم . . ليسوا مسيحيين ولا مسلمين . . كلهم . . كلهم وصدقنى أن الإحساس الذى كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين . . ولا حتى سنة ولا شيعة ولا دروزا ، ولا مارون ، ولا روم أرثوذوكس ، ولا كاثوليك ، ولا بروتستانت . . ولا . . ولا . . إنهم ناس غرباء لا نعرفهم . . جيوش جاءت من الخارج واحتلوا مناطق محددة يتحاربون فيها ، بدليل أن خارج هذه المناطق كل شيء هادئ . . إن أبى يمارس عمله . . وأخى يطير من بيروت إلى الكويت ليباشر عملياته هناك ثم يعود فى اليوم التالى . . وأمى لا تزال مهتمة بالشخط فى أم نعيمه حتى تجيد تقديم اللبنه والكبه . . وأختى تنتقى ثوبها الذى ستزور به صديقتها . . أنا وحدى التى ستجن . . لقد اعتدى الغرباء على بيتنا فى الأشرفية وكنا قد تركنا فيه أثمن ما يملكه بيت . . تركنا الكثير لأننا كنا نتصور أننا لن نغيب إلا أياماً . . السجاجيد العجمى ، وقطع الأوبالين ، وقطع من مجوهراتنا ، وكل قطع ذكريات صباى وشبابى بما فيها السلسلة المرصعة بالفيروز التى كانت أول ما أهداه لى طونى . . وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء . . استسلموا لفقدان بيتنا . . أبى يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته . . وأخى يبصق على الأرض ويؤكد أنه سيشترى لنا أكثر مما ضاع منا ، وأمى بكت أياماً ثم استطاعت أن تتناسى . . أنا وحدى المجنونة . . أعيش كأنه لن يكون لنا أبداً بيت بعد بيت الأشرفية . . إن طونى يستطيع أن يعيد لى بيتى . . إنه هناك فى الأشرفية . . ويستطيع أن يعيد لى البيت . .

ومنذ وصلت وأنا أبحث عن طونى ولا أستطيع أن أجده . .

لم يعد أمامى إلا أن أذهب بنفسى إلى الأشرفية . . إلى بيتنا . . إنهم يعرفوننى هناك ولن يعتدوا علىّ . . ثم إنى فتاة . . من يعتدى على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرباء الذين يتقاتلون . .

ولم أقل إلا لأمى . .

وصرخت أمى . . يا مجنونة . . إنهم سيقتلونك . .

ولكنى مصممة . .

سأذهب إلى الأشرفية . . إلى بيتنا . . إن طونى هناك وسأكون فى حمايته . .

وخوفاً من أن تلجأ أمى إلى أبى ليحول بينى وبين الأشرفية ، جريت من أمامها إلى الشارع ، وإذا بها تجرى ورائى وتلحق بى ، ثم تمسك بيدى وتسير بجانبى وتقول وهى تقاوم دموعها :

– سأذهب معك . . ربنا يستر . .

وركبنا سيارة أجرة . . وأمى لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التى تحفظها . .

ووقفت السيارة عند منطقة رفض السائق أن يتعداها . . ونزلنا إلى الشارع . . وأمى قد توقفت عن ترديد القرآن ، ولمعت عيناها لمعاناً غريباً كأنها مقبلة على معركة تتحدى بها القدر . . وبدأت تخطو بجانبى كأنها أقوى منى . . منصوبة القامة تدق بقدميها على الأرض . .

إننا نجتاز عرض الشارع الذى يفصل بين المنطقتين المتقاتلتين . . اجتزنا أكثر من نصف الشارع . .

وفجأة . .

انطلقت رصاصة . .

ونظرت حولى فى دهشة كأنى أتعجب ثم صرخت . . إنها أمى . . تترنح . .

وتسقط . . وسقطت فوقها . . ماتت . . قتلوا أمى . . وفوق رأسى رجلان . . لا أستطيع أن أميز وجهيهما . . ربما كانا من أبناء الأشرفية ، ولكن فى هذه اللحظة كنت أراهما من خلال غمامة كثيفة تعمينى . . وسمعت صوت أحدهما يسألنى ساخراً :

– هل هى أمك ؟

وتركت جسد أمى ووقفت أمامهما صامتة . . تائهة . . وكل خلجة منى قد شلت . . وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك :

– خساره . . كان المفروض أن تكونى أنت . .

وقال الرجل الثانى :

– اتركها . . سنأخذها معنا . .

وقال الأول :

– انتظر حتى نعطيها ذكرى أمها . .

وانحنى على جثمان أمى ، وأخرج سكيناً قطع به أذناً من أذنيها . ثم اعتدل ووضع أذن أمى فى يدى وهو يصيح مقهقها :

– هدية من أمك . . حتى لا تنسى . .

وأطبقت يدى على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسرى بين أصابعى . دم أمى . .

وفجأة ظهر رجل ثالث يجرى نحونا وهو يصيح . .

مستحيل . .

إن الغمامة تنزاح من أمام عينى وأستطيع أن أراه . .

إنه طونى . . حبيبى طونى .

وفوق كتفه سلاح . .

إنه واحد منهم . .

وصرخ :

– سميرة . .

ولف ذراعه حول كتفى وأخذ يصرخ فى وجه الرجلين . . كلاماً لا يهمنى أن أسمعه أوأفهمه . .

ثم صرخت . . وصرخت . . وصرخت . . وجذبت نفسى من تحت ذراع طونى وجريت عائدة إلى الناحية التى جئت منها . . وطونى يجرى ورائى وهويصرخ :

– سميرة . . يا مجنونة . . انتظرى . . سأقول لك . . و . .

ولحق بى . . أحسست بيده وقد أمسكت بكتفى . .

وفجأة أيضاً . .

انطلقت رصاصة . .

وسقط طونى . . وسقطت بجانبه . . توقفت أنفاسه . . لقد قتل . . كأمى . . ولكنى لا أحس شيئاً . . لم يعد فىّ ما أحس به . . راقدة بجانب جثة حبيبى الذى قتل أمى . . والطلقات تشتد بين ناحيتى الطريق وكلها تمر فوق رأسى . . كم مضى . . ساعة . . ساعتان . . لا أدرى . . وتوقف إطلاق النار . . ورأيت رجلاً يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طونى . . وإنسانآخراقترب وحملنى إلى نهاية الشارع . . ثم وضعنى بين زملائه . . إنهم يسألوننى ويطمئنون إلى أنى منهم . . وعندما تعجبوا لأنى جازفت بعبور هذا الشارع بصحبة أمى ، قلت :

– كنا عائدين إلى بيتنا فى الأشرفية . .

ونظروا إلى كأنهم يشفقون على مجنونة . . ولمح أحدهم أذن أمى التى كنت لا أزال مطبقة عليها بأصابعى وصرخ :

– الكلاب . .

ثم انحنى فوق جثة طونى وقطع إحدى أذنيه وألقاها بعيداً ثم أخذ يمزق فى بقية جسده . .

وانحنيت والتقطت أذن طونى . .

وضعتها مع أذن أمى فى يد واحده . .

* * *

يا أنت . .

لا تحاول أن تكتب لى كأنك تعتقد أنى أسألك رأيك . . رأيك لا يساوى شيئاً . . أنا لبنانية وكل لبنانى ليس فى حاجة إلى رأى أحد . . وقد كتبت لك لمجرد أن أستريح ثم ألقى بما أكتبه فى سلة المهملات . . آسفة . . لا أقصد أنك سلة مهملاتى . .

وعلى كل حال فلن أعطيـــك عنوانى لتكتب لى فقد تركت بيروت . . أبى صمم على أن يقذف بى بعيداً عن بيروت . . وانى أعيش هنا كما تعودت أن أعيش . . مغرورة . . أستاذة علم التقدم الحضارى . . وفوق صدرى أعلق قالباً صغيراً من الذهب المرصع بالماس ، وفى داخله أحتفظ بأذن أمى وأذن طونى . . إن القالب صنعه لى الجواهرى الفرنسى المعروف كارتييه . . إنه تحفة فنيـــة تثير حسد كل البنات . . ولا تدرى كم كلفنى . . لا يهم . . إننا دائماً نستطيع أن ندفع . . لم يتغير شىء . . وعندما أعود إلى بيروت سأدعوك لتلمس بنفسك أنه لم يتغير شىء . .

وسأعود . .

ولن أنسى

العذراء والشعر الأبيض

١

إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه :

- أنت لست أبى . . كن صريحاً مع نفسك وخذنى كما أنا . . وأنا لست ابنتك . .

إنها صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يزفه إلى مصيره كل ليلة قبل أن ينام . .

قبل أن ينام معها . .

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويبتسم ابتسامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة . . تحمل السعادة بنفسه والخجل من نفسه ، والسخط على نفسه . .

وتعود الصرخة تدوى فى خياله :

- أنت لست أبى . .

وقد حاول كثيراً أن يقنع نفسه وأن يحس بأنه أبوها . . إنها تحمل اسمه . . بثينة محمد عبد الله . . وهو الذى أعطاها هذا الاسم . . هو محمد عبد الله . . إذن فهى ابنته . . وقد قضى من عمره أكثر من ثمانية عشر عاماً وهو يحاول أن يقنع نفسه وأن يحصر إحساسه بأنها ابنته . .

ولكن . .

واتسعت ابتسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقلب إلى قهقهة مرة ، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله . . الفيلم الذى يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله ، دون أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له . .

كان لا يزال فى بداية شبابه . . فى السادسة والعشرين من عمره . . وكان قد انقضى على زواجه من (دولت) أربع سنوات . . إن دولت تكبرة سناً بثلاث سنوات وقد أحبها وهى زوجة رجل آخر ، وربما كان أقوى ما فى هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها . . النشوة التى ترضى غرور كل رجل يصل إلى زوجة رجل آخر . . ولكن دولت لم تتركه طويلاً يتمتع بهذه النشوة . فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعى أن يتزوجها ، وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من حبه لدولت . . جانب الأعتماد عليها ، فمنذ أن التقى بها وهو يعتمد عليها ، وهى من الشخصيات التى تعبر عن الحب بالعطاء . . كانت تعطيه كثيراً . . وهو لم يكن قد بدأ فى بناء نفسه بعد ، كان قد تخرج فى نفس العام من كلية التجارة ، وكان يقيم وهو طالب فى غرفة من بنسيون فى أطراف الجيزة ، وكان يعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة فى طنطا . . ليس غنياً ولكنه أيضاً ليس محتاجاً فى حدود المستوى المتواضع الذى يعيش فيه . . ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من غرفته فى الجيزة إلى غرفة فى بنسيون بشارع متفرع من شارع قصر النيل . . وقد حاول أن يرفض . . إن إيجار غرفته فى الجيزة ثمانية جنيهات وهذه الغرفة الجديدة التى اختارتها دولت إيجارها خمسة عشر جنيهاً لا يستطيع أن يدفعها . . وحاولت دولت أن تقنعه بأنها ستتحمل عنه دفع الإيجار . . إنها غنية ورثت عن أبيها ، وزوجها يعطيها

كثيراً ولا يدقق فى الحساب . . ولكنه رفض . . إنه يرفض التنازل عن اعتزازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة التى يملكها . . ولكن دولت تلح وهى فى حاجة إلى هذه الغرفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه فيها دون أن يكشف سرها أحد . فالعمارة كبيرة فى منطقة تجارية ومن يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها فى طريقها لأن تشترى بعض المشتريات أو فى طريقها إلى الدكتور أو الخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة ، أما الغرفة التى يقيم فيها فى الجيزة فهى فضيحة ، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلا ويصب عليها نظرات اللعنة ، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكتوا نظير الهدايا التى تحملها إليهم كل مرة ، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها ابنة عمه إلا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنهم يشلحون عنها ثوبها ليروا من تحته ما يراه محمد . . وقد اقتنع محمد بهذا المنطق ورضى أن ينتقل إلى الغرفة الجديدة على أن يظل يدفع الثمانية الجنيهات التى تعود أن يدفعها وتدفع هى الباقى . .

وضحكت دولت قائلة . .

– لا . . النصف بالنصف . . كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفاً . .

ولكنها كانت تدفع كثيراً واستسلم بلذة وغرور إلى ما تدفعه . . نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له ، والساعة التى يتباهى بها أمام أصدقائه ، والقلم الذى يكتب به ، بل إنها تحملت مسئولية حياته الخاصة كأنها أصبحت زوجته ، رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هى نفسها يمكن أن تفكر فى أن تتزوجه . . فهى زوجة رجل محترم ناجح يوفر لها اجتماعياً ومادياً كل ما تحلم به أى امرأة . وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذى لا يشمل كل شئ ولكنـــه يغطى جانباً من النقص

الذى يشعر به كل من الطرفين . . شىء ينقصها يعطيه لها ، وشىء ينقصه تعطيه له . .

إلى أن فوجئ بأنها طلقت . . ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أوحديث عنه بينهما . . مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصاً وأنه لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من أربعة أعوام ، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقائهما ، وخصوصاً أنه تأكد من أنها هى التى طالبت بالطلاق . . وكل ما قالته له أن أبلغته بطلاقها :

– إنى لا أستطيع أن أعيش لرجلين . .

وكان من الطبيعى أن يفكر فى مصيره معها . . هل يتزوجها ؟ وقبل أن يقرر كانت هى قد بدأت تشير بأسلوبها الهادئ الناعم إلى الزواج . . هل كانت تنتظر أن يتخرج فى الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج . . لا يدرى . . بل لا يدرى ماذا تجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه ما يغريها بحبه ، فهو لا يستطيع أن يوفر لها الحياة التى كان يوفرها لها زوجها الأول . . لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية . . إنها تتزوجه وهى تعلم أنها ستعطيه أكثر مما تأخذ . . لا يهم . . هذا ما تريده . .

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام ، وتركها هى تتحمل مهمة اتخاذ كل الإجراءات . . هى التى قدمته لأهلها ، وهى التى اختارت بيتهما ، وهى التى قامت بتأثيثه وهى التى اختارت المأذون وهى التى تولت دعوة أقاربها واكتفى هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته . . . . كل هذا لم يأخذ شيئاً من فكره ، فقد كان قد بدأ يفكر فى بناء نفسه . . فى أن يعمل . . وكان يكره أن يكون موظفاً فى الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البلح . . وحتى بعد أن أصبحا

زوجين فعلاً لم يحس أن هناك شيئاً جديداً يجمعه بها ، فهى ليست غريبة عنه ، وليس فيها شىء جديد ، وما تقدمه له بعد الزواج هو نفسه ما كانت تقدمه له قبل الزواج . . الاهتمام بكل شىء ومسئولية كل شىء ، كل ما أضافته هو أنها بدأت تفتح أمامه أبواباً اجتماعية جديدة كان فى حاجة إليها وساعدته كثيراً فى بناء نفسه . .

ومنذ الليالى الأولى من الزواج أحس بأن هناك شيئاً تريده وتسعى إليه دون أن يبدو ما هو ، إلى أن انقضى أكثر من شهور عندما قالت له يوماً :

– كل ما ينقصنا اليوم يا محمد هو أن نخلف . . أن أكون أماً وأن تكون أباً . . نفسى فى بنت يا محمد . .

ولم يهتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أباً ، بل يكره أن يكون أباً لبنت أو ولد . إنه لا يزال فى مقتبل شبابه . . كل ما يريده هو نفسه . .

ومرت الشهور . . وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيراً على الأطباء وتتبع إجراءات غريبة عليه فى علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء لتحمل وتلد ، ثم فاجأته يوماً بأن طالبته بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر بأنه يستطيع أن ينجب ، وصرخ فى وجهها :

– لا يهمنى إذا كنت أستطيع أولا أستطيع إننى لم أتزوج لأكون أباً . . تزوجت لأكون معك أنت تكفينى وتغنينى عن دوشة العيال . . دوشتك تكفينى . .

ولكنها تلح عليه أن يذهب إلى طبيب ، وإلحاحها يدفعه إلى التساؤل . . هل تزوجته فقط لتنجب منه وهل طلقت زوجها الأول لأنها فقط لم تنجب منه رغم أنها عاشت معه أربع سنوات . . ولكنها كانت تستطيع أن تترك نفسها للإنجاب قبل الطلاق والزواج ، فقد كانت تعطيه كل شىء ، وكانت تستطيع

أن تنسب خلفتهما إلى زوجها الأول أو تتبع أى أسلوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب . . وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إجراءات منع الحمل ، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود « حرام » ، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هى . . هى امرأة ناقصة . . امرأة لا تنجب . . امرأة عاقر . . ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطى عقدتها إلا أن تتظاهر بتعاطى وسائل منع الحمل . . أو تتهم زوجها الأول بأنه هو الناقص . . ثم تلح على زوجها الثانى بأن يذهب إلى طبيب . .

وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل إلحاحها . .

وكان يتمنى أن يثبت عليه الطبيب أنه عاقر لا ينجب ، فهو فعلا لا يتمنى ولا يحب أن يكون أبًا . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله فى حاجة إلى مولود آخر . وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتب له أى نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذى فى حاجة إلى العلاج ، لعلها تهدأ . .

وقد فرحت دولت فعلاً عندما عاد إليها وفى يده زجاجة دواء . وأصبح هذا الدواء أهم وأغلى ما فى البيت بالنسبة لها ، وتناوله له فى اهتمام مبالغ فيه كأنها تنقذ به حياته وحياتها . . ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تدارى عقدة فى داخلها . . عقدة المرأة العاقر . . فهى تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب ولكنها لا تريد أن تعترف بنقصها ولا تريد أن تبحث عن حياة تغنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات ، وكانت تتعمد أن تذهب إلى الطبيب سرًا دون أن تخبر حتى زوجها ، وقد عرض عليها أحد الأطباء أن يجرى لها عملية جراحية ولكنها رفضت حتى لا تفضح أمرها ، وكانت تغطى كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز

زوجها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة فى خيالها حتى بدأت تفكر فى أن تطلق زوجها فعلاً بحجة عجزه . . وقبل أن تبدأ فى الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد . . إنه زميل لابن عمها فى كلية التجارة وأصبح صديقاً لأخيها ، وقد شعرت منذ رأته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه . وقد كانت تستطيع أن تقاوم هذه الأحاسيس . . إنه لا يزال فى نضارة شبابه وهو يبدو كأنه ريفى لا يزال بخيره وبكل قوته لم تستنزفه بعد حياة المدينة . . من يدرى ربما كانت تستطيع أن تنجب منه . . هذه العقدة هى التى دفعتها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه . . ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله . وأعطته كل شىء كانت حريصة على أن تفرض عليه وعلى نفسها إجراءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف حتى أمام نفسها أنها لا تحمل ، أو لأنها لا تريد أن تشعره بعجزها عن الحمل ، أو ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل . . وكانت حريصة ألا تجرب هذا الأمل إلا فى الحلال . .

هذه المشكلة التى تعيشها دولت بكل فكرها وأعصابها وبكل وجودها ، لم يكن محمد يعيشها أبداً رغم أنها كانت تذكره بها بحرصها على تقديم الدواء الخادع له . . كان كل فكره وإحساسه ونشاطه ينحصر فى بناء عمله . . وقد بدأ ينجح بسرعة وبدأت أرباحه ترتفع إلى أن قارب أن يكون فى مستوى ثراء زوجته ، وكان قد مر عامان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للدخول فى صفقة جديدة ، وفوجئ بأن دولت تصر على أن تسافر معه . . يا حبيبتى إنى أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعينى أتوه هناك وحدى إلى أن أكتشفها لك ثم نسافر معاً فى المرة القادمة . . ولكنها تصر . . لماذا . . هل تغار عليه . . هل تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية . . ولماذا تصر على تهريب كل هذه المبالغ

من الجنيهات الإسترلينية . . إنه لم يعرف إلا وهو جالس بجانبها فى الطائرة التى حملتهما إلى لندن . . إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسها على طبيب هناك لعلها تحمل ، وتلح عليه أن يعدها هو أيضاً بأن يعرض نفسه على طبيب . . لابد أن هناك شيئاً جديداً . . علماً جديداً . . دواء جديداً . . شيئاً لم يصل إليه أطباء مصر . . فلنجرب . . وثار عليها . . لم يخطر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكلف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر فى محاولتها . وأقسم فى ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن ندمه لأنه استسلم لها وصحبها معه . . ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذره . .

وفى لندن اكتشف أنها كانت قد حددت موعداً مع الطبيب الإخصائى ، وذهبت إليه وحدها وتركته يتفرغ لعمله . .

ومرت أيام فاجأته بعدها بأنها قررت أن تقبل إجراء عملية جراحية ينصحها بها الطبيب – ووافقها دون أن يهتم حتى بتقصى تفاصيل العملية كل ما عرفه أنها عملية تتطلب أن تبقى فى المستشفى أكثر من أسبوع ، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين . . وبقى معها إلى أن خرجت من غرفة العمليات ثم سافر فى نفس اليوم عائداً إلى القاهرة . . ولم تعترض . . كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أباً فأعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمًّا . . إلى هذا الحد كانت تعطيه . .

وعادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل . . إن الأطباء أكدوا لها أنها حتما ستكون أمًّا . . وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما فى الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل . . إحساس ثقيل . . لم يكن إحساس المتعة التى تعودها معها ، ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية . . إنه مسئول الآن على أن يجعل منها أماً . . أن يقوم بعملية حمل . . وأحس فعلا كأنه على

وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التى أجرتها فى لندن . . كأنه طبيب . حتى أن شفتيها لم يعد لهما نفس طعم القبلات . . وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان . . إنه مكلف الآن بإجراء عملية جراحية . . يجب أن تكف عن هذه الابتسامة التى كان يحبها حتى تساعده على التحرك كأنه طبيب . . وأن تغمض عينيها حتى لا تزعجها رؤية المشرط . .

وقد أثر كل ذلك فى إحساسه الطبيعى بالجنس ، وأحس أنه يضغط على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس . . وقد أفلح فى أن يقوم بالعملية وأن يؤدى واجبه ، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبداً أن يعود إلى متعته التى تعودها معها وهما فى فراش . . فى كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية . . أداء الواجب . . فقط أداء الواجب . .

ومر عام كامل دون أن يتغير شىء فى دولت . . لم تحمل . . وبدأت تفكر فى أن تعود إلى الأطباء فى لندن ولكنه صرخ رافضاً . . احمدى الله على ما كتبه لك . . دعى حبك لى يغنيك عن حرمانك . . كان يقول هذا الكلام وعقله يأخذه إلى مشروع الطلاق . . ربما طالبته بالطلاق كما طالبت زوجها الأول حتى تغطى عقدتها أمام نفسها وأمام الناس . . ولكن لماذا لا يطلقها هو . . ولكن لا . . لا يستطيع . . إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته . . إنها سر نجاحه . . وسر كل هذه الحياة الفخمة التى يعيشها . . وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وتعود أيضاً على نقصها وعجزها عن أن تكون أمًّا إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملاً بغيرها . .

والذى حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذى كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت . . لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها

وتضلل الناس وتقول إن الزوج هو السبب.. وبدأت تعانى من ثقل الإحساس بأن مالا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه ، وزاد ثقل هذا الإحساس حتى وصل بها إلى حالة اليأس .. اليأس من أن تستمر فى محاولة أن تحمل وتنجب ، وقررت أنه لم يعد أمامها إلا وسيلة واحدة حتى تعوضها وتعوض زوجها عن عجزها وهى أن تتبنى ..

وفكرت طويلاً فى مشروع التبنى قبل أن تعرضه على محمد ، وقررت بينها وبين نفسها أن تتبنى بنتاً .. إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد ، وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربيها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربى الولد.. وبدأت فعلا تبحث عن الملاجئ ودور رعاية الأحداث التى تعطى حق التبنى .. وفى القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث ، تضم الأطفال الذين يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم فى جرائم صغيرة ليس لهم ذنب فيها ... وليس فى القاهرة إلا ملجأ واحد فى المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال فى أيامه الأولى من الحياة .. ولم تجد فى دور رعاية الأحداث طفلاً يشد إحساسها ، واقتناعها .. كانت تقف أمام كل طفلة وتتردد طويلاً ثم تبتعد دون أن تستطيع أن تتخذ قراراً .. ثم ذهبت إلى الملجأ فى المطرية وما كادت عيناها تلتقى ببثينة حتى قررت أن تكون ابنتها .. إنها طفلة فى الرابعة من عمرها كل ما فى وجهها يبتسم .. عيناها تبتسمان ، ووجنتاها تبتسمان ، وشفتاها ، حتى أصابع يديها .. ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة وفيها ذكاء. ولون بشرتها أقرب إلى البياض كلونها ، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضيع فيه الأسود مع القرمزى مع الأصفر كلون شعرها .. إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابنتها فعلاً ، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهى طفلة وفى ملجأ لقطاء

فيها كثير من الرقة الأرستقراطية ، ومن يدرى ربما أنجبتها فى خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعتها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هرباً من الفضيحة .. وسألت فى الملجأ أسئلة كثيرة عن بثينة .. أين وجدوها ؟ .. وهل يذكرون اللفافة التى كانت تلتف بها .. ولم يكن وجدوها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس ، لقد وجدوها قريباً من سور السفارة الأمريكية فى جاردن سيتى ، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين ، وكان من بختها أن الذى عثر عليها رجل محترم استدعى عسكرى البوليس وأرشده إلى بثينة وهى لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور ، وحملها العسكرى إلى قسم البوليس ، وسلمها البوليس إلى الملجأ .. والحمدلله ، فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد المتشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشئوها بينهم وهو ما يحدث كثيراً .. ودولت تسمع القصة وتجرى بعينيها بحثاً عن بثينة وتضمها من بعيد فى فرحة ..

وهرعت إلى محمد لتبلغه قرارها .. إنها ستتبنى طفلة ، وقد وجدتها فى الملجأ .. ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة ، ثم قلب شفتيه قرفاً وامتعاضاً ، ووافق .. إنه لا يريد ابنة ولا ابناً ، وكل ما يريده هو أن تهدأ زوجته وتريحه من عقدتها ..

وذهب محمد معها إلى الملجأ ليتخذا إجراءات التبنى ، ولم يتعمد هناك أن ينظر إلى بثينة وبدأ فى توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك تبرع لإحدى الجمعيات الخيرية ، أو كأنه يوقع عقداً فى صفقة لا يهمه أن يخسرها ، ولكنه عندما رأى بثينة ابتسم كأنها نقلت إليه ابتسامات تقاطيع وجهها الطفل .. ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها ..

وكان يمكن أن يكون التبنى جزئياً أى أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه ،

ولكن دولت أصرت على أن يكون التبنى كاملاً . . أى أن تكون ابنته وتحمل اسمه . . ولم يهتم محمد أيامها . . لم يكن يهمه أن تكون ربيبته أو ابنته . . إنها شىء سيوجد فى البيت كعلاج لعقدة النقص التى تعانى منها زوجته هى التى اختارت لها اسم بثينة ، إنه الاسم الذى كان يمكن أن تسمى به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم أمها . .

وانتهى توقيع الأوراق . .

وأسرع محمد خارجاً ، وترك زوجته تصحب بثينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها . . ولم ير عينى بثينة وهما متعلقتان به تتبعانه فى تعلق عجيب . .

٢

إنه يذكر الأيام الأولى التى أصبحت فيها بثينة شيئاً فى البيت . . لم يكن يحس بهذا الشىء ، ولم يكن يتعمد أن يعطيها شيئاً من الحنان ولا حتى من الاهتمام ، بل إنه لم يعود نفسه تقبيلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتفى كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة . وكان أحياناً يلمح فى لحظات أنها فعلاً طفلة جميلة . . عيناها ، شفتاها ، لون بشرتها ، شعرها . . وأحيانا كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطفولة . . إنه لم يلحظ أبداً تتبعها له كلما كان فى البيت . . إنها تسير وراءه فى كل تحركاته ، ويجلس فيجدها جالسة أمامه ، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة فى انتظاره ، لم يكن شىء يبعدها عنه إلا دولت لتأخذها وتؤدى لها ما تتطلبه طفولتها . . ولم يلحظ أيضاً أنها كانت تكرر كثيراً كلمة « بابا » كأنها الكلمة الضائعة التى كانت تبحث عنها . . بابا . . بابا . . بابا . . وكانت فى البداية تنطقها فى حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساسها كأنها تزغرد بها . . كأنها الكلمة التى تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها . . لم يكن يلحظ أو يحس بأى شىء تجاه بثينة أو « بوسى » وهو إسم التدليل الذى اختارته لها دولت ، كل ما كان يحس به نحوها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجته كباقى التحف التى تملأ البيت ، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شغلت زوجته عنه وأراحته من عقدتها . .

وقد كانت العلاقة بينه وبين زوجته دولت تأخذ مع السنين فى التباعد . . تباعد فى إحساسه بها كامرأة . . بدأ يشعر بفارق السن بينهما . . إنها أكبر منه بثلاث سنوات . . وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها فى الفراش أنه يؤدى واجباً مفروضاً عليه . . واجباً أصبح ثقيلاً ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب . . وبدأ بينهما ما يمكن أن ينتهى إلى ما يسمى الانفصال الجسدى . . ولم تكن دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد أغنتها عما كانت تريده من محمد . . أو ربما كان التحليل النفسى يصل إلى حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلا بغريزة وإحساس الأمومة التى لم تستطع أن تصل إليها بالإنجاب . . وربما كان هذا هو سر عطائها الكثير له . كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة . . وقد وجدت فى بثينة ما أشبع فيها غريزة الأمومة فلم تعد فى حاجة إلى محمد . . بل إن فرحتها ببثينة دفعتها بعد عام واحد إلى أن تفكر فى تبنى طفل ثان . . ولد . . حتى يكون عندها ولد وبنت ، وصرخ محمد فى وجهها :

– لا يمكن . . إن بنتاً غريبة تحمل اسمى أرحم من أن يحمله ولد . . ولد لا أدرى كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه . . إن الوراثة تشمل الشخصية والأخلاق . فإذا كان أبوه لصاً أو نصاباً أو صعلوكاً فيمكن أن يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصعلكة ، ويفضحنى عندما يكبر ويخرب بيتى . . لا . . لا يمكن . .

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم :

– ليست الوراثة التى تحدد الشخصية والأخلاق . . إنها البيئة . . تقاليد البيئة واحتياجات البيئة . . إنهم يقولون أن لا أحد يسرق إلا إذا كان فى حاجة

إلى السرقة . . ونحن فى بيئتنا . . فى بيتنا لا يمكن أن ينشأ لص أو صعلوك . .

وعاد يصرخ فى وجهها :

– اسمعى . . إنى لن أعطى اسمى ولن يدخل بيتى طفل آخر . . فاهمة . . ويكفينا بوسى . .

ولم تلح عليه كثيراً فقد كانت بثينة تكفيها فعلاً وتغنيها عن كل ما كانت تشعر به من نقص ، بل إنها أيضاً تغنيها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدى الذى بدأ يدب بينها وبين زوجها . .

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج . . ربما أكثر من نصف العام يقضيه فى الخارج وهو ما كان يفرضه عليه عمله ومشروعاته الواسعة . وأيضاً لأنه كان يجد فى الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تعوضه عن إحساسه بالانفصال الجسدى بينه وبين زوجته . . مجرد نساء عابرات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها تأثير له قيمة فى تغيير استمرار حياته مع دولت . . وربما كانت هذه الغيبة الطويلة فى الخارج هى السبب فى أنه لم يتعود أو لم يكتسب إحساس الأب نحو بثينة . . وهناك فرق بين الأمومة والأبوة ، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكتساب . . أى أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه ، أما الأب فإنه فى حاجة إلى وقت يمر بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة . . وهو فى حاجة إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة . . وكان يسافر إلى الخارج وينساها . . وكأن لا شىء يذكره بها إلا أن يراها بعينيه . . وكان يعود من الخارج حاملاً هدية إلى دولت وينسى أن يحمل شيئاً لبثينة . . وتصرخ دولت فى وجهه وتجرى لتشترى شيئاً أو تخرج من دولابها شيئاً لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها من الخارج . . ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسيها ، كانت فرحتها

بعودته تغطى كل شيء ، وتعود تتبعه وتلتصق به فى كل تحركاته وتفتعل الحجج لتردد : بابا . . بابا . . بابا . .

وبثينة تكبر . .

ومحمد يكبر . .

وبدأ إحساس محمد ببثينة يتطور تطورًا عجيباً . . إنه كلما عاد من الخارج والتقى بها أحس كأنه يراها لأول مرة . جسدها ينمو فى روعة . . عنقها ، ثدياها ، قوامها ، ردفاها ، ساقاها . . جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسمه هدية له . . ونظرتها تهدأ فى عينيها . . ويلتقى بهاتين العينين فيحس فيها نداء عجيباً . . إنها تنظر إليه كأنها معجبة به . . كأنها تتمناه . . أو هكذا يخيل إليه . . ثم أنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيراً . . وأصبحت ملاحقتها له داخل البيت ملاحقة عاقلة كأنها أكبر من سنها . . فقد توجد فى البيت وهى واثقة أنه هو الذى سيبحث عنها . .

ولم يعد ينساها عندما يسافر إلى الخارج ، بل بدأ يحس أن يختصر فى رحلته ليعود إلى البيت . . لم يكن يصارح نفسه بأنه يعود لأن بثينة أوحشته . . إن البيت هو الذى أوحشه . . البيت ودولت وبثينة . . ربما وصل إلى السن التى يستسلم فيها الرجل إلى وحشة البيت . . هكذا كان يقول لنفسه . . ولم يعد ينسى هديتها . . الواقع أن هديتها أصبحت تأخذ من اهتمامه أكثر مما تأخذ هدية دولت . .

وبثينة وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها . .

وهو فى الأربعين . .

وبدأ يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها . . لاشك أنها أحاسيس الأبوة . .

بدأ بعد وقت طويل يصبح أباً . . لا . . إنه يخدع نفسه . . إنه لا يزال يحس بأنها فتاة جميلة . . ويجد حرجاً كبيراً إذا سقطت عيناه على ساقيها ، أو إذا ركز نظرته على شفتيها . وحدث أن دخل الغرفة مرة فوجدها شبه عارية مع دولت فقفز بسرعة كأنه ارتكب فضيحة ، كأنه اعتدى عليها . لا يمكن أن يكون هذا هو إحساس أب . . لا يمكن أن يحس أب بسيقان ابنته أو بجسدها كله كما يحس بجسد فتاة غريبة . . لا . . قد تكون بثينة إبنة دولت ولكنها ليست ابنته . .

وبثينة فى السابعة عشرة . .

وهو فى الثالثة والأربعين . .

إنه يجد فيها نواحى جديدة . . إنها تقرأ كثيراً وتستطيع أن تجلس إليه ساعات طويلة تحكى له عما قرأته . . صحيح أن معظم قراءاتها فى القصص ، والتاريخ ، والفن ، وأكثر المجلات التى تجذبها هى المجلات التى تنشر أخبار الفنانين والفنانات ، وهو لم يكن يهتم يوماً بالأدب ولا بالفن ، ولكنه يحس وهى تروى له كأنه ينتقل إلى عالم جديد مثير مسلٍ ، بل إنه كان أحياناً يروى لها بعض مشاكل عالمه . . عالم رجال الأعمال . . فتبدى له آراء تدهشه كأن لها ذكاء بنات الأعمال .

ودون أن يتعمد بدأ نظام حياته يتغير . . بدأ يقضى ليالى كثيرة فى البيت جالساً فى غرفة مكتبه المخصصة له ومعه دولت وبثينة ، والراديو والتليفزيون ، وزجاجة الويسكى الذى تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط ، وكانت السهرة تنحصر عادة فى مناقشة تثيرها بثينة ، أو فى قصة ترويها ، أو فى رقصة تقوم وتعرضها عليهما لتطلعهما على آخر تطورات الرقص . . وهو سعيد . . مرح . . يضحك ويناقش . . وأحياناً يحتد . . ودائماً يتعمد الحذر من أن يركز عينيه على ساق بثينة ، أو على صدرها . أو على عنقها . . لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب

ويعانى صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها .. وفى مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لتنام فيلحق بها محمد فوراً .. (خدينى معاكى) .. لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه .. يخاف هذه الأحاسيس التى تعصف به ..

وهى .. بثينة .. إنها تتعمد أن تبقى بجانبه كلما كان فى البيت .. وتتعمد أن تلتصق به كلما صحبها هى ودولت إلى دعوة أو إلى سهرة فى الخارج .. وتضع ذراعها فى ذراعه كأنها تتباهى به وتنسبه إلى نفسها .. وفى كل مناسبة تقول كلاماً كأنها تحرضه على نفسها :

– تعرف صاحبتى ميرفت .. ستجن عليك .. تقول إنك أجمل وأرشق رجل وإنها ستحاول أن تخطفك من ماما دولت ..

– إنها صغيرة مجنونة ..

– ليست صغيرة ولا مجنونة إنها فى سنى وفى عقلى ..

وأحياناً تمد يدها وتلعب فى شعره الأبيض وتصيح ضاحكة :

– شعرك يا بابا .. يهوسنى ..

إنه شعر عجوز .. سأصبغه أسود حتى أسترد شبابى ..

– إياك .. أنتحر لو صبغته ..

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكاً :

« انتى حاتسكتى والا أقوم أصبغ شعرى إسود » ..

وقد كان دائماً واثقاً بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء .. ولكن تجاربه كلها كانت مع نساء من نفس جيله لم يجرب البنات المراهقات .. ربما وصل إلى السن التى يقال إن الرجل فيها يصبح مراهقاً عجوزاً .. سن الأربعين ..

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات .. وربما كان صحيحاً أن البنات فى سن المراهقة يضعفن أكثر أمام الشعر الأبيض .. أمام سن الأربعين وما بعده .. إن أول حب فى حياة البنت هو حب الأب وعادة ينقلها هذا الحب إلى تجربتها الأولى مع رجل فى سن أبيها ..

وحدث أن دعى إلى حفلة ساهرة فى فندق هيلتون مع زوجته وابنته .. أى بثينة .. وليلتها شرب كثيراً من كؤوس الويسكى ، ثم قام فجأة وشد بثينة من يدها وجذبها إلى حلبة الرقص ليراقصها .. كانت رقصة هادئة .. سلوفوكس .. وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً .. ولكن بعد بضع خطوات راقصة تركز إحساسه كله على صدرها الذى يلاصق صدره ، وأصابعه المحلقة على ظهرها ، ساقيه الملتصقتين بساقيها .. ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكى التى شربها أن يقاوم . وكف عن الكلام وعن الضحك .. وضغطها إليه بكل ذراعه .. ولصق شفتيه فوق عنقها .. وتحركت فيه كل عناصر رجولتـه .. وهى .. إنها مستسلمة .. إنها تضغط نفسها هى الأخرى إليه وتزداد التصاقاً به .. وتتعمد أن تضع ساقيها بحيث تطلق بينهما ساقيه .. وكلاهما مختبئ فى زحام الراقصين ..

وسكتت الموسيقى ..

وأفاق ..

أفاق من كل شىء ..

أفاق حتى من كؤوس الويسكى التى كانت تملأ رأسه ..

ونظر إليها فى دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعداً عن حلبة الرقص وهى تجرى خلفه . وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأساً ثقيلة وأخذ يشرب

فيها دون أن ينظر إلى بثينة . ثم قام مستأذناً وخرج بزوجته وابنته بثينة . . وركب سيارته عائداً إلى بيته ، ودولت تسأله :

– هل أنت متعب ؟

– لا . .

– إنك لست طبيعياً . .

– ربما أثقلت من الويسكى . .

ولم يحاول أن ينظر إلى بثينة حتى عندما هم أن يدخل إلى غرفة نومه ، ولكن بثينة جرت وراءه صائحة :

– تصبح على خير يابابا . .

ثم انحنت وقبلته فوق خده . .

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها . .

وذهب إلى مكتبه فى الصباح وقد تعمد ألا يلتقى ببثينة أو يقبلها كما تعود قبل خروجه واكتفى بأن قبل زوجته وفى المساء أعلن أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن يخرج جلس فى غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى بثينة وجاءته ورفع عينيه إليها بعد أن تجاهلها طول هذه الفترة ، ورآها كأنها ازدادت نضارة وابتسامتها أكثر حيوية وشباباً ، وخيل إليه أنها هائمة فى إحساس جديد ، وقال وهو يحاول جهده أن يبدو هادئاً :

– أنا آسف لما حدث ليلة أمس . .

وقالت فى براءة :

– ماذا حدث ؟

– أقصد عندما نسيت نفسى وأنا أراقصك . .

– إنك لم تنس نفسك . .

لم أكن طبيعياً . . كنت قد شربت أكثر مما يجب . .

– كنت طبيعياً جداً . .

ونظر إليها فى دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقصها . . واقتربت منه أكثر وقالت :

– صدقنى . . لقد كنت طبيعياً وأنا أيضاً كنت طبيعية . .

ثم انحنت تقبل خده وجرت من أمامه . .

وتركته حائراً . .

ماذا تقصد . . هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعياً بين أب وابنته . . أم تقصد أنه طبيعى بين رجل وامرأة . . أم لم تحس فعلاً بما جرى . .

وفى اليوم التالى قال إنه مسافر إلى الإسكندرية ، وقالت بثينة بسرعة وفرحة :

– خذنى معك . .

وصرخ فى حدة :

– لا . . إنى ذاهب فى عمل . .

ومالت بثينة على دولت ترجوها :

– والنبى ياماما . . دعيه يأخذنى معه . . إنى لم أر الإسكندرية منذ الصيف . . أريد أن أطمئن على الكابينة وبيتنا هناك . وأقابل صديقتى تحية . . وغداً أجازة . .

وقالت دولت فى إلحاح :

– محمد .. دع بوسى تسافر معك .. إن من حقها أن تقضى يوماً بعيداً عن البيت ..

ثم ضحكت دولت قائلة :

– أتعهد لك بأنها ستترك لك حريتك .. بوسى .. احلفى أنك لن تضايقيه بطلباتك ..

وقالت بثينة فى دلال :

– أنا باضايقك يابابا ؟ !

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له ، وضعف أمام الإغراء . وأخذها معه ..

وفى طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامتاً وأن يكتفى بالنظر أمامه ، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام .. تروى له قصصاً قرأتها وقصصاً سمعتها ، وأخبار الفنانات والفنانين ، وأخبار صديقاتها فى الجامعة والنادى ، ثم تدير راديو السيارة وتهتز على الأنغام وتغنى .. وهو يحاول أن يقاوم .. ولكن مقاومته تخف .. وتخف أكثر إلى أن نسى ما جرى وبدأ يملأ عينيه منها ويضحك لضحكاتها ويغنى معها ..

ووصلا الإسكندرية فى المساء .. ووقف فى فندق فلسطين يسجل اسمه واسمها .. محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله .. وقال لموظف الفندق :

نريد حجرتين من فضلك ..

وصرخت وهى بجانبه :

– يا خبر يابابا .. إنى أخاف موت إذا نمت فى حجرة وحدى .. من أجل خاطرى يابابا لا تتركنى وحدى ..

ولم يستطع أن يجادلها طويلاً أمام موظف الفندق ..

وجمعتهما غرفة واحدة ..

وعندما بدأت تخلع ثيابها وتلبس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينيه ، ثم قال بحدة :

– بدلى ثيابك فى الحمام ..

وقالت فى دهشة :

– لماذا ؟

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلاً :

– أنا سأدخل الحمام ..

وبدل ثيابه بعيداً عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذى تحمله على نغمات راقصة ، وعندما خرج من الحمام وجدها فى قميص النوم .. وقد تعود أن يراها فى ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أبداً عارية كما يراها فى هذا القميص ..

وقالت وهى تهتز راقصة على نغمات الراديو :

– طلبت لك الويسكى ..

وهو حائر أين يضع عينيه منها .. وجاء الويسكى ، وأخذ يشرب كأنه يهرب بنفسه داخل الكوب ، أو كأنه يلقى بنفسه فى بحر الويسكى لينتحر ..

ثم شدته من يده قائلة :

– قم راقصنى ..

– لا تكونى مجنونة ..

– من أجل خاطرى .. لا تحرمنى قبل أن أنام ..

وقام يراقصها بجانب الفراش .. وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده ..

وقالت ضاحكة :

– لا . . كما راقصتنى آخر مرة . .

وألقت بنفسها فوق صدره . . وأحس بثدييها . . وساقيها . . وظهرها العارى . . وضمها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه . . وتحركت كل حيوية رجولته . . ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير ، وقال وأنفاسه تنهدج :

– إذا كنت مجنونة فلن أجن معك . .

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير . . يحاول أن يشعل سيجارة . . وقامت من رقدتها واقتربت منه وفى عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر حكماً نهائيًّا وقالت فى صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل خداع ومن كل خجل :

– اسمع . . أنت لست أبى . . خذنى كما أنا . . وأنا لست ابنتك . .

ونظر إليها بعينين ثائرتين خطيرتين كأنه قرر أن ينتهى من كل شىء . . ينتهى من هذه المقاومة التى أنهكته خلال سنوات . . وينتهى من هذا الضياع بين ابنة وعشيقة فى جسد واحد ، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر . . وشدها إليه وقبض على شفتيها بشفتيه ، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم ، ثم قام وحملها عارية وألقى بها وألقى بنفسه معها . .

وحدث كل شىء . .

٣

قالت له إنها هى أيضاً حاولت العمر كله أن تحس به كأب ولكن كان هناك دائماً إحساس يغلب إحساسها بأبوته . . ربما منذ اليوم الأول الذى وعته فيه وهى لا تستطيع أن تعيه كأب . . كان إنساناً يملأ خيالها وأحلامها ولا يمثل واقعها . . إنها تستطيع أن تتخيله بطلاً للقصص التى تقرأها والأفلام التى تشاهدها وتحلم به كمستقبل وهمى . . كأن يحبها ويخطفها على حصان ، ولكنها لم تكن تحس به كواقع . . والإحساس بالأب هو الإحساس بالواقع . . وهو لم يكن أبداً واقعاً ، كان خيالاً وحلماً . . وكلما تقدم بها العمر اقترب بها خيالها وأحلامها من الحب . . أصبحت تريده . . تشتهيه . . وتتمنى أن تتباهى به أمام صديقاتها كرجل لا كأبيها . . إنها تعلم أنه ليس أباها ولم يكن يجدى الإخفاء عنها فقد خرجت من الملجأ وهى فى الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الذكريات ، ولأنها تعلم فقد كان يخيل إليها أن الناس كلها تعلم ، وأنها تعيش فى كذبة مستمرة ، ويخيل إليها أن كل من يقرأ اسمها منسوباً إليه يصيح . . كذابة . . وهى تتمنى أن تحيل هذه الكذبة إلى حقيقة . . والحقيقة الوحيدة التى تستطيع ألا تصل إليها هى أن تكون حبيبته لا ابنته . . وكانت تعلم أن لا أمل . . كانت تحاول أن تيأس . . بل إنها حاولت أن تحب حباً يشغلها عنه . . تحب شاباً من الجامعة أو من النادى يحملها إلى المستوى الطبيعى للحياة . . ولكنها لا تستطيع أن تيأس . . وعندما تقدم بها العمر أكثر بدأت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم . . هو الآخر لا يحس بها كابنة بل كفتاة يريدها . . وكانت تحس بكل ما يعانيه وتكتشف كل الكذبات التى

يضحك بها على نفسه . . فبدأت تشجعه . . إنها تعترف له بأنها كانت تشجعه . . تحاول أن تسهل له الطريق إليها . . إلى أن التقيا كما تمنيا أن يلتقيا . .

ولم يكن كلامها يكفى ليخلصه مما يعانيه من حيرة فى الحكم على نفسه . . هل هى من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن إئتمنه المجتمع عليها ، وسجل فى أوراق رسمية أنها ابنته . . وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقى بها وحدهما . . إنه ينتقل معها إلى الحب كله . . إنه يحبهابرغم فارق السن . . يحبها حباً أوسع بكثير من مجرد الاحتياج الجنسى . . أصبح يحب شخصيتها وعقليتها . . بل أصبح يتمثل المستقبل كله معها . . ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة والتأنيب ، والخوف . . والإحساس بالجريمة وبالكذب . . إنها ابنته كيف أباح لنفسه كل هذا مع ابنته . .

ولكن دولت . .

لا يدرى . . إنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش بلا دولت . . كلتاهما لا تغنيه عن الأخرى . . كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى . . كل منهما لها منه أحاسيس حب تختلف عن أحاسيسه بالأخرى . .

وبعد ما حدث فى الإسكندرية كف عن المقاومة ، واستسلم لحبه لبثينة مع كل المعاناة التى يعيش فيها وكانا يحرصان أمام دولت فى البيت على تأكيد أن لا شىء جد عليهما . وربما أصبحا يتباعدان أحدهما عن الآخر أكثر وهما فى البيت ، ويقلل هو من سهرات المساء التى كانت تجمعه مع الاثنتين فى غرفة مكتبه ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى بثينة أمامه وهو محروم من الانطلاق معها وإليها . . وكان يلتقى ببثينة لقاءهما الخاص فى شقته التى استأجرها منذ سنوات وخصصها لحياته الخاصة . . ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما

واثقان أن أحداً لا يلحظ عليهما شيئاً أو بدأ يشك فى أمرهما . .

ولكن محمداً بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت . . لقد عاش معها العمر كله ويستطيع أن يلتقط أى لمحة جديدة . . إنها لمحة فى نظره عجيبة تصحبها ابتسامة . . كأنها اكتشفت السر . . ورغم ذلك فهى لا تقول شيئاً وتبالغ أكثر مما عودته فى تدليله وفى تدليل بثينة . .

ربما لم تكتشف شيئاً . .

إلى أن كان يوم . . وكان فى لقائه الخاص مع بثينة عندما قالت له ضاحكة ضحكتها الحلوة ؟ .

— هل أقول أو لا أقول ؟ .

— تقولين ماذا ؟

— أخبرنى أولاً . . هل أقول أو لا أقول ؟

— قولى . .

— إذاً أنت الذى تأمرنى بأن أقول . . لست أنا التى قررت القول . .

— يا ستى قولى . . تكلمى . .

— عدنى أولا أن تقبلنى بعد أن تسمعنى . . أو الأفضل أن تقبلنى الآن فلست واثقة من وقع الخبر عليك .

وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعيها كأنه ينوى أن يهزها وينخلها حتى يسقط منها السر . . وصاح

— تكلمى . .

— إنى حامل . .

واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى ألم كأنه طعنة وقال :

– ولكنك كنت حريصة دائماً . .

– لا لم أكن حريصة . . كنت أتعمد أن أحمل منك . .

– لماذا يامجنونة ؟

– لأعطيك ما أخذته منك . . لقد أخذت منك ابنتك التى كانت أنا فأردت أن أعطيك ابنة أخرى . . أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئاً لم تعطك إياه امرأة أخرى . . أن أجعل منك شيئاً لم تكنه وهو أن تكون أباً . .

وصرخ :

– من قال لك أنى أريد أن أكون أباً . . ستذهبين فوراً إلى طبيب لإسقاطك . .

– لا يمكن . .

– كيف . . ماذا تعنين ؟ .

– إنى الآن فى الشهر السادس . . وطبيعتى تساعدنى على إخفاء حملى . . ولا يمكن الآن إجراء أى عملية . . إنى متأكدة سألت الطبيب . .

– ستة أشهر . . كاذبة . . لا يمكن أن تعيشى معنا ستة أشهر وأنت حامل وأنا لا أدرى . . ثم دولت ؟

– إنك لا تدرى ماذا كنت أفعل حتى أخفى كل شىء عن ماما دولت . .

– وماذا تتصورين أن يكون مصير هذا الطفل ؟ .

– مصيره هو نفس المصير الذى عشته . . أتركه للملجأ . . ثم نذهب مع ماما دولت ونتبناه . .

– كيف يكون ابنى وأتركه لملجأ . .

– كل من فى الملاجئ لهم آباء . . وهم غالباً أغنياء . . لأن حياة الفقراء لا تتسع لأولاد الحرام . . أمى لاشك كانت من عائلة كبيرة وإلا لما خشيت

الفضيحة وكذلك أبى . . لو كانا فقيرين لتزوجا حتى لو كان أبى متزوجاً عشر زوجات أو لقتلونى بدلاً من أن يضعونى فى ملجأ . .

وقال فى سخط :

– إنك لا تنسين أصلك . .

– أصلى هو الذى أوصلنى إلى أجمل وأحلى ما فى الدنيا . . إليك . .

ونظر إليها كأنه يعتذر عن إسفافه وقال :

– بوسى . . أرجوك . . دعينا نفكر فى هدوء . . لنبدأ أولاً باستشارة طبيب أعرفه . .

– لا أمل . .

– سآخذك ونذهب إلى لندن ونحاول إجراء العملية هناك . .

– لا يمكن . .

– لماذا ؟

– لأنى أريده . . أريد ابناً منك وأريدك أباً لابنى . . أتمنى أن تكون بنتاً . . ماذا نسميها يا محمد . .

وصرخ بأعلى صوته :

– لا تستهزئى بى إلى هذا الحد . . قدرى أنى لم أخرج من ملجأ ولا أريد لابنى أن يخرج من ملجأ . . إنى منذ وجدتك وأنا أعيش فى فضيحة مستمرة لا أريد أن أجنى على طفل لا ذنب له بفضيحة أكبر . .

ونظرت إليه فى هدوء وقالت :

– محمد . . هل تحبنى . . قل لى بصراحة . . إذا لم تكن تحبنى فسأخرج من هنا أنا وبطنى ولن ترى أى مشكلة فى حياتك ولن ترانى . .

ونظر إليها طويلا ، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم بالبكاء ، وهمس :

– أحبك . . لن تكون لك مشكلة وحدك أبداً . . فقط أتركينى أفكر . .

وتركته وعادت إلى البيت . . وحاول هو أن يجد حلاً . . ليس هناك حل إلا أن يتزوجها . . ولكنه لا يستطيع ليس من حقه . . إن عقد التبنى يجعل لها كل أوضاع الابنة ولا يستطيع قانوناً أن يتزوجها . . ياليته اكتفى أن يكفلها كما عرضوا عليه فى الملجأ . . ولكن دولت أصرت على أن تتبناها . . دولت . . كيف يتزوجها والناس كلها تعلم أنها ابنته وابنة دولت حتى لو أجاز القانون زواجهما . . وماذا يكون رأى دولت ؟ أن رأى دولت هو الأهم . . وقام فى عصبية مجنونة وذهب إلى البيت ودخل وهو يصرخ . . دولت . . دولت . . ودولت تهرع إليه فى هلع ، وبثينة تخرج إليه من غرفتها فيصرخ فيها :

– دعينا وحدنا . .

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويغلق وراءهما الباب ويلقى بنفسه على مقعد ويتكلم بين أنفاسه المتهدجة :

– سأروى لك كل شىء . . وأرجوك أن تحتملى . . إنى أحبك ولولا حبك لما اضطرت أن أقول لك كل شىء . . ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلا لما كانت هناك مشكلة . . اسمعى . .

وابتسمت دولت فى هدوء وحنان وقالت :

– انتظر ثانية واحدة . .

ثم قامت فى عجلة وخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوباً من شراب البرتقال :

– لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب . . واجلس مستريحاً . . أرح

ظهرك على مسند المقعد . .

وشرب العصير وأراح ظهره وهدأ فعلاً . وبدأ يروى القصة كلها . . من يوم أن تبنيا بثينة إلى أن حملت منه . . وكانت دولت هادئة طول القصة لم تنفعل ولم تقاطعه . وكان هو الذى يقطع الكلام وينظر إليها فى دهشة ويقول :

– هل كنت تتصورين أن يحدث هذا ؟ . .

وترد عليه بهدوء :

– أكمل الحكاية . . وبعدها ستعرف ما كنت أتصوره . .

وأتم الحكاية . . وصل إلى أن اعترف لها بأن بثينة حامل منه . . وبرغم ذلك لم تفاجأ ، ولم تصرخ ، ولم تثر ، ولكنها . بدأت تتكلم فى هدوء . .

– إنى أعرف كل شىء . . وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسى تجذبك إلى قضاء السهرة فى البيت . . كنت أعرف أنى أصبحت بالنسبة لك مجرد إحساس بالوفاء والعشرة والمشاركة فى البناء والاطمئنان ، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرجل فى عز رجولته . . ولذلك فرحت بأن بوسى أصبحت هى الإغراء الذى يزيد من ارتباطك بالبيت ، وبى . . وكنت أحس بمدى المعاناة التى تبذلها حتى توقف هذا الإغراء عند حد معين . . ولكنك لم تستطع أن تستمر فى المقاومة التى تسبب لك هذه المعاناة . . وعاشرتها . . وأستطيع أن أحدد لك متى بدأت . . إنها ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية . . كنت أعلم أنك ستتمادى معها ولكنى لم أكن أقدر أنك ستتمادى إلى هذا الحد . . كنت أعتقد أنها ستبقى عذراء . . ولكنى عرفت أنها لم تعد . . إن المسكينة تحاول دائماً أن تخفى عنى ولكنها لا تدرى أنى صنعت كل قطعة منها بيدى حتى أصبح من السهل على أن أكتشف كل ما يلم بها . . وقد قاسيت أيامها . . إن ابنتى لم تعد عذراء ،

وزوجى هو المسئول . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل . . إنها تحبك لو كنت قد قاومت حبها فربما أثرت فيها إحساسها بأنها متبناة وليست ابنتى . . وتصورت أنى أضطهدها أو أغار منها فتهرب منى . . وأنت أيضاً تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولت أن أحرمك منها ، فربما زاد إحساسك بأنى لم أعد امرأة بالنسبة لك وأنى أحرمك من حقك فى متعة رجولتك فتثور على وتهجرنى . . كان كل ما يشغل بالى دائماً هو أن أحتفظ بك وبها . . وماذا يهم ، إنى أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسى ، فما الفرق ؟ — بل إنى أحياناً كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية . . إن جدى كان متزوجاً من أربع نساء يجمعهن الأربع فى بيت واحد . . لأفترض أنى أعيش فى أيام جدى . . ثم حملت منك . . إنى لم أكتشف فى الشهور الأولى . . ولم تحاول طبعاً أن تستعين بى . . وليس صحيحاً أنها احتفظت بالحمل متعمدة كما أخبرتك . . ولكنها اعتمدت على صديقاتها فى إسقاطه . ولم يكن لديها الجرأة لتذهب إلى طبيب . . وقد اكتشفت حالتها بعد مدة . . وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس . . إنها ساذجة فى هذه المواضيع النسائية برغم ذكائها المعروف عنها . .

وقاطعها وهو يستمع إليها فى دهشة :

— المهم . . ما رأيك . . ماذا تعمل ؟ .

وابتسمت كأنها واثقة بأنها أعدت كل شىء :

— أقول لك الحق . . إنها ابنتى . . برغم كل شىء إنى أحس بها ابنة لى . . ولا أريد لابنتى أن تنجب فى الحرام . . ويجب أن تتزوجها . . إنك لن تستطيع أن تتزوجها فى مصر لأن قانون التبنى يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيداً

عن مصر . . نسافر نحن الثلاثة إلى باريس أو أى عاصمة أخرى وتتزوجها هناك . .

وقاطعها :

— هل سنتزوجها أنا وأنت . .

وقالت مبتسمة :

— آسفة . . أقصد طبعاً أن تتزوجها أنت ويبقى الزواج سراً . . ثم تضع مولودها هناك . . ونبقى فى الخارج ستة شهور أو أكثر ونعود وأنا أحمل الطفل على أنى تبنيته من أحد الملاجئ هناك ، وكل الناس هنا يعلمون أنى أريد أن أتبنى طفلاً آخر بعد أن كبرت بوسى . . ومنذ شهور وأنا أذيع بين كل الأصدقاء أنى أريد أن أتبنى مولوداً جديداً بل إن أم عطيه الغسالة عرضت على من أيام تبنى طفلة أنجبتها شقيقتها . . المهم سنعود وأنا أحمل طفلك على أنى تبنيته ولن يغير ذلك شيئاً فى واقعه فأمه الحقيقية ستبقى معه وأبوه معه ويحمل اسمه . . أما بالنسبة لى فلا شىء تغير أيضاً ، فقد كنت أتبنى من الملاجئ ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لى ملجأ خاص . . وهو بوسى نفسها . . بوسى أصبحت ملجأى الخاص . . وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبى فإنى أتصور أنى أنا التى كلفتك بإنجابهم لى . . إنها مجرد عملية تلقيح صناعى بشكل خاص . . بما أن التلقيح لا يصلح لى فقد جربناه فى بوسى ونجح . . ومن يدرى . . ربما بعد سنة أو سنتين نتفق على إجراء تلقيح آخر وأتلقى من ملجأى الخاص . . من بطن بوسى . . طفلاً آخر . . اعمل حسابك . . إنى أريده ولداً . .

وكان يستمع إليها فى دهشة . . دهشة لا يدرى كيف يفسرها . . ولا كيف

يحكم عليها . . وكيف يحكم على دولت . . إنه لم يكن ينتظر منها كل هذا . .
وقال في وجوم :
– إنك نسيت أن تقدرى أنى أحبها . . أنت تحبينها كابنة ولكنى أحبها كامرأة . . إنى أحبها فعلاً . . .
قالت من خلال ابتسامتها الهادئة :
– ما هو الحب . . إنه العطاء . . وقد أعطتك مالا أستطيع أن أعطيه لك . . أعطتك متعة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسدياً منذ سنين . . وها هى تعطيك الخلف الذى عجزت أن أعطيه لك . . ولهذا لا أغار منها ، بل أحس كأنها تكمل ما ينقصنى . . لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وانجبت لك لما دخلت بوسى بيتى ولما تركتها تعطيك شيئاً . .
– إذا كان الحب عطاء . . فماذا أعطيها أنا . . ماذا أعطى بوسى . .
– تعطيها كل ما لا تستطيع أن تعطيه لى . . وأنت لا تستطيع أن تمارس الجنس معى ولا أن تنجب منى . .
– مستحيل . . هذا لا يكفى . . إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد عملية حسابية يقوم بها العقل وحده . . إن الحب عاطفة . . إحساس . . والعاطفة تعطى أكثر مما يعطى العقل ، أو أن العقل يصبح فى خدمة العاطفة . .
– إنك تحبنى أنا أيضاً يا محمد . . وهم يقولون أن ليس من حق الإنسان أن يحب اثنتين ولكن هذا كلام فارغ . . فإن من حق الإنسان أن يستكمل ما تحتاج إليه طبيعته . . ويأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى . . ويجب أن تعطيها ولكن ليس على حساب ما تعطيه لى . .
– إنك إنسانة مجردة من العاطفة . . ليس لك قلب ولكن لك عقلان ،

عقل فى رأسك وعقل فى صدرك . . وأستطيع أن أكشف الآن أنك منذ اليوم الأول الذى التقينا فيه وأنت تأخذيننى بعقلك . . أخذتنى على أمل أن تحملى وتنجبى لأنك لم تنجبى من زوجك الأول ولو كنت قد أنجبت منه لما التقينا أبداً . . ثم بعد أن جربت معى ولم تنجبى أيضاً بدأ عقلك الذى ينظم ويحدد احتياجاتك يقنعك بأن تأخذينى كابن بالتبنى . . إن عواطفك نحوى هى نفس عواطفك نحو بوسى . . عواطف التبنى التى تكتفى بالإحساس بالملكية . . لذلك لم تغار أبداً على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة . . كأى أم ، لا تغار على ابنها من عشيقاته ومغامراته لأنه سيبقى دائماً ابنها . . ولم تغار من بوسى وإلى الآن لا تغارين منها حتى بعد أن حملت منى ، كل ما يهمك هو الحرص على ملكيتك لى ولها . .
وردت محتدة :
– إنك تظلمنى . . إنى أحبك إلى حد أنى أضحى بما يسعدنى لأحتفظ لك بما يسعدك . . ماذا كنت تريدنى أن أفعل وأنا أحس بعجزى ونقصى . .
– كنت أريد أن يكون حبك أقوى من عجزك . . ألا تقبلى أى وضع يمس حبك . . كنت أريدك أن تغارى دائماً وأن تثورى علىَّ . . أن تحتفظى باحترام حبك كاملاً حتى لو ضحيت بى . . كنت تستطيعين أن تنقذينى من حب بوسى ، وتنقذى بوسى من حبها لى منذ بدأت تلاحظين ضعف كل منا نحو الآخر . . ولكنك لم تحاولى . . لأنك ضامنة ملكيتك لنا نحن الاثنين . .
– ماذا كنت تنتظر منى ؟
– لا أدرى . . إن كل ما يهمنى الآن هو مستقبل بوسى . . إن الحب عطاء كما تقولين ، والعطاء الذى تحتاج إليه بوسى الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة

وأن يكون مولودها لها وتتباهى به أمام الناس . . لا أريد أن أظلمها وأظلم ابنى معها . . كيف . . كيف . . لا أدرى . .

واقتربت منه ومدت يدها تربت على كتفه وتمسح بأصابعها على شعره الأبيض ، وقالت فى حنان :

دعنى أفكر لك . . اطمئن . . كل شىء له حل . .

إنه يرى بأذنيه

إن محمود شخصية معروفة مشهورة . . إنه مشهور شهرة التابعى بائع الفول ، أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية ، أو بنترومولى بائع قطع الأثاث ، أو فلفلة بائعة الطعمية ، أو الشوربجى بائع الملابس الداخلية ، أو شهرة زكى السماك . . شهرة البائع المتخصص الفنان الذى يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحتفظ به ، ويستطيع أن يجعل من كل زبون طعماً يرميه فى السوق ليصطاد به عشرة زبائن آخرين . .

ومحمود متخصص فى بيع الكأس . .

إنه بارمان . . أو ساق ، بلغة قاموس مختار الصحاح . .

وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته ، ولم تدفعه إليه هوايته للكأس ، فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر « بارمان » فى مصر ، لا يشرب الخمر إنما فقط يذوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها ، أو كلما أرد أن يختبر تركيباً جديداً من تراكيب كؤوس الكوكتيل التى تضم خليطاً من أنواع الخمر . . ومنذ أن كان فى بلدته كفر نعيمه مركز طلخا وهو يتخيل لمستقبله مختلف الصور . . يتخيل نفسه ضابط بوليس ، أو طبيباً ، أو مدرسا ، أو زعيما سياسياً ، ولم يخطر على باله أبدا أن يتصور نفسه

ساقيا يقدم الخمر ، ولم تكن كل دنيا خياله تتسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفاً فى حانة .

وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى البندر ليصل إلى المدرسة الثانوية . . ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ كان طفلا . . ضابطا . . طبيبا . . مدرسا . . زعيما . . إلى أن وجد نفسه يعيش المشكلة العادية التى تمر بملايين العائلات . . مات الوالد ولم يترك شيئاً سوى أم وخمسة أخوة ومعاش قيمته خمسمائة وثمانون قرشاً فى الشهر . تتسلم منه العائلة خمسمائة قرش فقط والباقى يذهب إلى الدولة ممثلة فى شخص الصراف . . وأصبح مضطراً أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه ، وكان له قريب لأمه يعمل جرسونا فى فندق كبير من فنادق القاهرة ، فذهب إليه لا ليعمل معه فى نفس الفندق إنما ليبحث له عن أى عمل فى القاهرة التى كانت تمثل له ولكل أهل قريته غابة فى الجنة يكفى أن تمد يدك لأى شجرة منها لتقطف ما تشاء . . وهو يريد أن يقطف عملا يكفل له أن يستمر فى الحياة إلى أن يصبح ضابطاً أو طبيباً أو مدرساً أو زعيماً . . وكل ما كان يتمناه فى هذا العمل ألا يستغرق كل يومه حتى يترك له الفرصة ليستمر فى دراسته الثانوية . .

ولكن قريبه أخذه معه فى نفس العمل . . ووجد نفسه سفرجياً صغيراً . . أو مساعد سفرجى . . ووجد نفسه يندمج بسرعة فى هذا العالم الجديد . . ولعله اكتشف نفسه أو اكتشف مواهبه . . وأخذ يفهم كل شىء بسرعة عجيبة ، ويحفظ أسماء المأكولات والأدوات بسرعة أكبر ، ثم بدأ يفهم الزبائن . . إن أهم شىء فى المهنة هو أن تفهم الزبون ، فكل زبون له عقلية خاصة ومزاج خاص ونغم خاص من نغمات الأوتار العصبية ، ولا يكفى أن تقدم للزبون ما يطلبه ، بل المهم هو الأسلوب الذى تقدم به . . هذا زبون تتطلب معاملته ابتسامة وكلمة

حلوة وهذا تروى له قصة حياتك وأنت تقدم له طعام العشاء . . وهذا زبون تتطلب معاملته نوعاً من التعالى عليه بما يشبه الاحتقار لأنه تعود ألا يكون مهذباً إلا بالتعالى عليه فإذا دللته أو ضعفت أمامه حاول أن يركبك وينهش لحمك . . و . . و . . المهم أن تفهم الزبون وعلى قدر فهمك تستطيع أن تكتسب سمعة بين الزبائن وتستطيع أيضاً أن تحصل على الحد الأقصى من البقشيش . . فالبقشيش لا يعطى فقط كمجرد مكافأة على عمل بل قد يعطى أيضا كرشوة ، أو قد يعطى كنوع من التظاهر إذا كان الزبون فى حالة يريد أن يعلن فيها أمام فتاة تصحبه أنه خليفة هارون الرشيد ، وأبخس وأحقر أنواع البقشيش هو الذى يدفعه الزبون إجباراً وبحكم النص عليه فى فاتورة الحساب . .

واستطاع محمود أن يكسب نجاحاً كمساعد سفرجى أو كسفرجى صغير . . نجاحاً بين رؤسائه ونجاحاً بين الزبائن . . ولكنه وجد نفسه مشدوداً دائماً إلى عالم البار الذى يتولى زعامته الرئيس مهداوى محمدين . . الرجل النوبى الذى مضى عليه وهو يقود البار أكثر من ثلاثين سنة . . منذ أيام الإنجليز . . كان محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عالم خارج مصر . . كأنه بمجرد أن يخطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح فى أوربا . . لا لأن معظم زبائن البار من الأجانب فهم نفس الزبائن فى كل مكان من الفندق ، ولكن لأن كل ما فى البار ينقلك إلى عالم أجنبى . . الزجاجات الملونة . . الأسماء العجيبة . . أسلوب الخدمة . . كل شىء ليس فيه شىء من مصر ولا من الشرق . . إنه صورة كاملة من المجتمع الأوربى . . حتى التمثال الفرعونى الكبير الذى وضعه مهداوى فى جانب من صالة البار ، واللوحات التى رسم عليها النخيل والجمال والصحراء المعلقة على الحائط ، كل ذلك ليس له أى أثر فى نقل

جو البار إلى عالم الشرق ، إنها تبدو كتحف معلقة فى بيت أجنبى . .

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوربا . . يريد أن يخطو فوق عتبة البار ليصل إلى هذا العالم الآخر . . واستطاع بذكائه الريفى الذى يخفيه وراء قناع من السذاجة البريئة ويقدمه فى كل كأس من خفة الدم المهذبة . . استطاع أن يلفت نظر « المتر » مهداوى وأن يثير اهتمامه فأخذه معه مساعداً له فى البار . لم يكن مساعداً إنما كان مجرد سفرجى يغسل الكئوس وينقل الزجاجات ويطيع الأوامر . . ولكنه كان دائماً يحصر كل اهتمامه فى اكتشاف أسرار « المتر » مهداوى . . اكتشاف سر المهنة . . وعرف أسرار الويسكى . . وأسرار الكونياك . . والشمبانيا . . والفودكا . . والجين . . ثم اكتشف أسرار علم الكوكتيل . . اكتشف سر « بلودى مارى » أى مارى الدامية ، وهو كوكتيل مكون من الفودكا وعصير الطماطم والشطة والفلفل والليمون . . وسر « الأمريكانو » وهو كوكتيل آخر يجمع بين عصير الكمبارى والمارتينى والصودا . . و . . و . . وعشرات من أنواع الكوكتيل . . إنه علم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس ، والأبحاث . .

ومهداوى يعتمد أكثر وأكثر على محمود ، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار ، إلى أن تعب مهداوى وذهب إلى رحمة الله وتولى ولى العهد – أى محمود – مملكة البار فى الفندق الكبير ، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجرد أن يملأ الكأس ويقدمها ، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس . . إن البارمان كسائق التاكسى الذى يركب معه كل ساعة زبون لا يعرفه ، وسائق التاكسى ينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة ، فيجب أن يعرف الحالة التى هو فيها والحالة التى يريد أن ينقله إليها . .

وأكثر من ذلك . . لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم ى صغره ليحققه كمستقبل له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانا . . كان يحلم أن يكون ضابطاً للبوليس ، أو طبيبا ، أو زعيما وقد وجد أن كل ذلك يجب أن ... فى شخصية البارمان وأن يمارس فعلاً اختصاصات الضابط والطبيب والزعيم ... بائنه . .

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكى الذى جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب ، ثم بدأ يغنى أغانى بذيئة بصوت عال ، ثم قام ووقف أمام محمود وقال فى تحد :

– لن أدفع . . إن خمرك كلها مغشوشة . .

وكان من حق محمود أن يدعو فورا رجال الأمن المتفرقين فى الفندق ويقبض على الرجل ولكنه بذلك يسيئ إلى بقية الزبائن ويفسد جو البار ، والأفضل أن ...هم من نفسه ضابط بوليس ويتصرف ، فابتسم ابتسامته الجذابة التى تخفى خبثه وقال فى مرح :

– لا يهم . . خذ كأسا أخيرة على حسابى . .انها ليست على حسابى ولكن أغالط فى ثمنها أصحاب الفندق . . لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئاً . .

وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحاً :

– يسقط أصحاب الفندق . .

وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس :

– هل معك سيارة . .

وقال الرجل ضاحكاً ضحكة مخمور :

– نعم . . إنها قريبة . . تركتها فى شارع برودواى . . ألسنا الآن فى نيويورك . .

وقال محمود :

– انتظر . . سنخرج سوياً . . سأصحبك بسيارتي إلى نيويورك . . إنها قريبة من هنا . .

وقال الرجل :

– هيا يا صديقي . . ولكن على شرط أن نمـر على مدير الفندق لنصفي حسابنا معه . . إني أدفع باللكمات . .

وضحك محمود قائلا :

– وأنا أدفع بالشلاليت . .

ووضع محمود ذراعه في ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاحكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجي وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدما وقبضا على الرجل قبل أن يقاوم ، وبقيا معه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر .

وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البوليس التي كان يحلم بها في صغره . .

ثم بدأ محمود يحس بنفسه كطبيب مسئول ، فهو ينقل الزبون بفعل الخمر من حالة إلى حالة . . سواء حالته الصحية أو حالته النفسية . . فيجب أن يتحمل مسئولية الطبيب سواء كان طبيب الأمراض الجسدية أو الطبيب النفساني . . وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذي يقدمه في الكأس . . وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي ، ومع ذلك يصر على طلب كأس أخرى . . والمهم دائماً هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول . . ومعظم الزبائن لا يستطيعون خصوصا بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه ، إنما يصبح الأمر كله في يد محمود ، ولذلك فهو يتعمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول

هناك زبون لا يتحمل أكثر من كأسين ، وزبون يستطيع أن يبتلع عشر كؤوس دون أن يهتز . . وبناء على هذه الدراسة قد تختلف الكأس الثالثة التي يقدمها محمود عن الكأس الأولى . . قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكي ولا تحمل الكأس الثالثة سوى قيراط واحد ، ويغطي هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا التي يزيدها على الويسكي دون أن يشعر الزبون بأي شيء . . ولم يكن محمود يشعر نفسه بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكي من أفواه الزبائن ولكنه طبيب حريص على حالة مرضاه الصحية . . مرضى الخمر . . وكان يحس بقدرة أكبر على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكتيل ، بل إنه أصبح من هواة إعداد الكوكتيل . . إنه يحس بنفسه كأنه صيدلي يعد الدواء المركب لكل مريض . . كوكتيل « جين فيس » أي « الابنة الصغيرة » المكون من خمر الجين مضافاً إليه الليمون والسكر والصودا . . والكوكتل الفرنسي المترافع الغالي الذي لا يقدم إلا في المناسبات العزيزة . . كوكتيل « رويال مالبيشير ب » المكون من الكونياك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع شمبانيا من النوع القوي الطازج وتزين الكأس من حوله بقطع من فاكهة الموسم . . و . . . وصل محمود بعد أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يبتكر أنواعاً جديدة من الكوكتيل تنسب له ويتعمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أولها كوكتيل نفرتيتي الذي يعتمد في تكوينه على الجين والكوانترو والكمباري وعصير الأناناس ، وأصبح نفرتيتي مشروباً عالمياً مسجلاً في كل بارات العالم ومنسوباً إلى اسم محمود . .

وقد اضطر محمود أن يعتمد على نفرتيتي عندما وجد نفسه يوما مضطراً لأن يتولى بين زبائن البار مسئولية القاضي أو الزعيم الذي يصدر أحكامه تحقيقاً للعدالة . .

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين ، وهو رجل فى حوالى الأربعين من عمره يبدو وسيماً ولكنه يعتبر نفسه أكثر وسامة من حقيقته ، ويهتم بشاربه الرفيع الملتصق فوق شفتيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حذائه . . وقد يكون ذكياً ولكنه أيضاً يعتبر نفسه أكثر ذكاءً من حقيقته ، ويلقى كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد . . كان إنساناً مغروراً بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطياد عجائز السائحات . فهو دائما فى البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى فى اليوم التالى مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية » . .

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية ، وقد عرف عنه الكثير . . عرف أنه متزوج ويسكن فى حى شبرا ، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات ، وأحيانا يعمل كسمسار أو كوسيط فى عمليات تجارية تافهة ، وأنه يعتمد اعتماداً كاملا فى اكتساب دخله على اصطياد السائحات العجائز واستنزافهن . . إنه محترف بيع المتعة للعجائز . .

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمنى الخمر . ربما اختار البار كمجال للعمل ، يسهل عليه فيه التأثير على صيده . . وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها فى مدة طويلة وبأسلوب معين يتيح له أن يترك المرأة التى معه تشرب فى نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استنزافها . .

ورغم ذلك فإن محمود كعادته مع كل الزبائن تعمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر ، فقدم له ذات مرة ما يوازى كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التى تعود عليها ، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله . .

وفى ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها . . جمالها

هادئ . . شعرها ينساب برفق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من يصففه ، والألوان فوق وجهها كلها ألوان نائمة فى حلم سعيد لا يوقظها منه لون دخيل كأنه وجه مغسول من كل الألوان المزيفة . . وقد خطت إلى داخل البار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حولها فى حيرة وارتباك ، ومحمود يتطلع إليها تطلعه إلى أى زبون جديد ، إلى أن اقتربت منه وقالت فى صوت خجول يتكسر بين شفتيها :

— من فضلك . . هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز . .

ونظر إليها محمود فى دهشة . . إنها ليست من النوع الذى يمكن أن يسأل عن مصطفى عبد العزيز . . كان يمكن أن تسأل عن أى زبون إلا هذا الزبون . . وأجاب وهو يقيسها بين عينيه ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز . . ربما كانت أخته . . لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهى تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله . . أجاب :

— نعم . . أعرفه . .

قالت وهى أكثر تردداً وحياء :

— هل يأتى هنا .

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقبل الإجابة على أى سؤال خاص بأحد من زبائنه . . إنه يحترم دائماً سر المهنة . . ولكنه أجابها كأنه يضع نفسه فى خدمتها :

— إنه دائما هنا . .

وعادت الفتاة تتلفت حولها فى حيرة . . وفى هذه اللحظة دخل مصطفى عبد العزيز ولمحه محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكا عندما وجد الفتاة فى البار واستدار كأنه يحاول الهرب ، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها

الهارب وجرت إليه . .

وعاد مصطفى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وسمعه محمود وهو يقول لها :

– لا شك أنك جننت . . منذ متى تعودت دخول البارات . .

وقالت الفتاة وصوتها كأنه تأهب للبكاء :

– جئت أبحث عنك . . يجب أن ننتهى إلى حل . .

وقال لها :

– لا يمكن أن نجد الحل هنا فى البار . . إنى فى انتظار بعض الأصدقاء الآن لنتحدث فى عمل . . اذهبى الآن . . ونلتقى غدا . .

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما . . لقد عود أذنيه على الاستماع من بعيد ويستطيع أن يوجهها فى أى اتجاه ليسمع ما يريد . . كأنهما عيناه . . إنه يرى بأذنيه . . ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضاً حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحاديث الزبائن . . ومن خلال أذنيه رأى الكثير . . رأى صفقات تعقد ، ورأى حوادث حب ، ورأى سرقات . . ورأى . . ورأى . . وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه الفتاة . . والرجل يكذب عليها . . إنه ليس هنا للقاء أصدقائه . . إنه هنا ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء . . وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب كأسا تدفعه إلى الصدق . . لا تكذب على هذه الفتاة المسكينة . . لا تكذب . .

ورفع من كمية الويسكى التى تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليها نقطتين من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول :

– لم أعد أحتمل الغد . . لقد أعددت كل شىء . .

وشرب مصطفى الكأس وقال ساخراً :

– ماذا أعددت . . أعددت فضيحة أم جريمة . .

وبكت وتساقطت دموع صامتة على وجنتى الفتاة وقالت :

– ارحمنى يا مصطفى واسمع لى . .

وتقدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلا :

– أستاذ مصطفى . . اسمح لى أن أقدم لك نفرتيتى . . إنى أحتفل اليوم بميلادها . . فى مثل هذا اليوم ولدتها وجعلت منها أجمل كوكتيل فى العالم . . كل الزبائن يجب أن يحتفلوا بنفرتيتى . .

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكى تهز لسانه :

– عجيبة . . لم أرك أبداً كريماً إلى هذا الحد . .

وتجاهله محمود والتفت إلى الفتاة قائلا :

– والآنسة أيضا . . يجب أن تحيى معنا نفرتيتى . .

ونظرت إليه الفتاة فى ارتباك كأنها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة صاخبة قائلا :

– اشربى . . لقد أصبحت أنت أيضا من زبائن البار . .

وغاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أرادها . . الصيدلى الذى قرر أن يكتشف دواء للكذب . .

وشرب مصطفى . .

ثم مد يده وغصب الفتاة على أن تشرب . . لم تكن هذه هى عادة مصطفى ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفا مفضوحاً . . ولكنه تأثير نفرتيتى . . وقالت الفتاة وهى تبلع الكأس :

– إسمعنى . . لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى تجمع من المال ما يكفينا . .

لقد جمعته أنا . . أخذته من البيت وجئت به إليك . .

وقال مصطفى وقد التوى لسانه :

– إن كل ما فى بيتكم لا يكفى خطوة واحدة نحو المأذون . . ولو كان مأذون كلاب . .

ثم شد حقيبتها وفتحها والتقط ما فيها ثم صرخ ضاحكاً ضحكة سكرى قائلا :

– خمسون جنيها . . ها . . ها . . ها . . هل تعرفين كم أخرج فى الليلة الواحدة من أى سائحة . . مائة . . مائتين . . أكثر . .

وقامت الفتاة وقد بـدأ لسانها هى الأخرى يرتج :

– لا أعلم يا مصطفى . . ماذا تقصد . . هذا كل ما وجدته فى البيت . .

وقال السكران :

– البيت الذى ليس فيه إلا خمسون جنيها . . خرابة . . وأنا لن أتزوج ولو كان فى بيتك ألف . . كفانى زواج . . الولية فى بيت شبرا مطلعة دينى . .

وصرخت الفتاة :

– هل أنت متزوج . . متزوج يا مصطفى . . خدعتنى . . ماذا أفعل الآن . .

وقام مصطفى مترنحا من فوق مقعد البار ، ووضع الخمسين جنيها فى جيبه وقال مترنحا :

– عودى إلى بيتك إلى أن تجدى شيئاً آخر ثم نعود ونفكر . .

وانطلقت الفتاة وهى تصرخ :

– خدعتنى . . يا مجرم . . يا لص . .

ثم رفعت كفها وصفعته بكل قواها . .

وابتسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفعة ، ثم قفز نحو الفتاة والرجل وأمسك بهما فى رفق وقادهما إلى خارج البار ، وقال هامسا لمصطفى :

– كن هادئا . . رجال الأمن وراءنا . .

واحتقن وجه مصطفى بالذعر وانقاد إلى محمود ومعه الفتاة ، وفى زاوية بعيدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة . . وكانت العدالة التى أرادها عن طريق نفرتيتى هى أن تكتشف الفتاة حقيقة مصطفى . . وقد اكتشفتها . .

هكذا كان محمود . البارمان المشهور . . ساقى الخمر . . عيناه فى أذنيه . .

إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف . . المقدم رفعت عبد اللطيف . . وهو زبـون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة ، أى الزبائن الذين لم يظهروا إلا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه بالنسبة للثورة . . وهو زبون للبار طالما ظل محتفظا بمنصبه ، فإذا ترك المنصب ترك البار . .

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتقى كل ليلة داخل البار مع صديق لم يكن أبدا من زبائن البار . . وعرف أن هذا الصديق هو أيضا ضابط . . ومع الوقت سمع اسمه . . سعيد المر . . وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار ناحية الركن البعيد . . وكان حديثهما غالبا أقرب إلى الهمس حتى كان محمود يضطر أن يبذل مجهوداً كبيراً ليلتقطه بأذنيه ، وبدأ يتعمد أن يرفع من نسبة الكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرفعا صوتيهما فيسهل سماعهما . . ولم يبدأ اهتمامه بتوجيه أذنيه إليهما لمجرد أنهما من رجال الجيش ، ولكن لأنه سمع منهما بالصدفة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار .

كان المقدم رفعت يقول :

- لازم نخلص . . ونخلص بسرعة . .
وأجاب الرائد سعيد المر :
- السرعة ليست فى صالحنا . . كل الدواهى سببها التسراع . .
وفى ليلة أخرى قال المقدم رفعت :
- الراجل بتاعنا اقتنع . . لم يبق إلا تحديد الموعد . .
وسمع الرائد سعيد يقول :
- الجماعة بتوع سوريا مستعدين . . كنت معهم منذ ساعات . .

وبدأ محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر . . ربما انقلاب . . ربما عملية اغتيال . . وليس غريباً أن تتم لقاءات المتآمرين فى بار . . بالعكس . . إن حوادث خطيرة وهامة ترسم داخل البارات . . فهنا – فى البار – يأمن المتآمرون من عدم إثارة الشبهة . . لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعاً خطيرًا يمكن أن يعقد فى بار ، ولا حتى رجال البوليس . . فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا أسرار البارات . . ومحمود ليس من رجال المخابرات . . ولا يدرى إذا كان بين زبائنه مخابرات ، أم لا . . وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تنبهوا إلى هذه المؤامرة أم لا . . وأذناه لا تكفان عن تتبع المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر وتلتقطان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدرى كيف يتصرف فيها . . إلى أن سمع الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف :
- غدا سننشر فى الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلى الذى اكتشفناه . . من باب التغطية . . وسيستمر النشر . . وقد تتم العملية يوم الرابع أو الخامس من الشهر القادم . .
وأجاب المقدم رفعت :

- التحركات كلها حددت . . وعلى بركة الله . .

والدماء تغلى فى عروق محمود . . إنه لا يدرى ماذا يفعل بكل هذا الذى يسمعه . . بل إنه يراه . . إنه يرى ما يسمعه . . يرى بأذنيه . . يرى مصر تنقلب أمام عينيه . . ربما كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذى يسمعه . . ماله ومال البلاوى . . وأعد لنفسه كأساً من عصير النعناع المركز حتى يهدئ أعصابه . . يجب أن يقنع نفسه بأن كل هذا لا يهمه ، وليس من اختصاصه أن يهمه . . إنه ليس مخابرات . . وهو يسمع أن البلد كلها غارقة فى بحر من المخابرات . . ويكفى الاتكال على المخابرات . .

ولكنه فى صباح اليوم التالى فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس الإسرائيلى . . إن الخطة تأكدت . . كل ما سمعه يحدث . . لم يبق إلا أيام وتتم العملية . . ماذا يفعل . . كيف يتصرف . . إنه لا يريد أن يقوم انقلاب فى مصر . . إن مصيبة جديدة لن تحل المصيبة القائمة . . والبلاوى لا تحلها البلاوى . . ونعرة الفلاح الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه . . ورغم ذلك كله لا يدرى ماذا يفعل . .

إلى أن دخل إلى صالة البار بهجت شكرى . . إنه ليس من زبائن البار ولكنه يتردد عليه فى فترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق فى إحدى المناسبات . . وهو يعلم أنه يحتل مركزًا هاما فى مكتب الرئاسة . . ربما كان مدير مكتب . . أو سكرتيرًا خاصاً . . أو مستشارًا . . المهم أنه فى أحد أركان الرئاسة العليا . . وهمس محمود فى أذنه وهو يقدم له الكأس :
- أرجو أن تسمح لى بلقاء . . إنه موضوع هام . .
ورد بهجت ضاحكاً :

– إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود .. فماذا تريد أكثر ..

وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد :

– إنه موضوع لا يتعلق بى .. يتعلق بالبلد .. بالمصير .. وأفضل أن أراك فى مكتبك ..

ونظر إليه بهجت شكرى نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيرًا فعلا ، ثم قال وهو يحتفظ بابتسامته :

– هل يهون عليك البار تتركه بعد نصف ساعة ..

وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه :

– ألا يمكن أن أتركه غدًا صباحًا ..

وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر :

– إذا كان الموضوع متعلقا بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد .. سأكون فى انتظارك فى مكتبى بعد نصف ساعة وسأترك تعليمات بإدخالك فورًا .. أمثالك يا محمود لا يؤجل لهم طلب ..

ثم قام بهجت شكرى وانصرف بسرعة خارجاً من البار ..

ووقف محمود متجمداً كأنه أصيب بالشلل .. ويقول لنفسه إنه مجنون .. ألقى نفسه فى مصيبه .. ماله ومال المصائب .. إنه ليس مسئولاً عن إنقاذ البلد من المصائب .. إنه لن يذهب إلى بهجت شكرى .. ولكنه لا يستطيع .. قد يرسل وراءه البوليس للقبض عليه .. سيذهب ولكنه لن يقول شيئاً .. سيدعى أنه كان يريده حتى يتوسط له فى شراء سيارة نصر ، أو استئجار شقة .. ولكنه قد يكشف كذبه .. واستسلم محمود .. استسلم لقدره .. وذهب إلى مكتب بهجت شكرى الذى يقع بين مكاتب الرئاسات ..

واستقبله حارس من جنود الجيش .. صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط الجيش .. وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب .. لعلها غرفة انتظار .. وتركه الضابط وحيدًا وخرج وأغلق الباب وراءه .. ومضت أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيدًا ، وأعصابه تتمزق ، وأنفاسه تضيق وأوهام كثيرة تملأ رأسه .. وفجأة فتح الباب ودخل بهجت شكرى .. دخل مرحباً مبتسماً وهلل فى مرح :

– آسف .. تأخرت عليك .. ألم يقدموا لك شيئا .. هل تريد كأساً من الويسكى .. إنك الآن الزبون وأنا البارمان .. اطلب ما شئت .. وإن كنت لى أستطيع أن أخدمك قدر خدماتك لنا ..

وقال محمود وهو يبتلع توتر أعصابه ويحاول أن يتجاوب مع ابتسامة بهجت :

– ألف شكر .. أريد أن أقول ما عندى وأعود إلى البار .. تأخرت كثيرًا ..

وقال بهجت فى تواضع :

– آسف يا متر محمود لأنى أخرت عودتك .. احك لى ..

وبدأ محمود يحكى ، وربما كان قد قرر أن يكون حريصًا فى كل كلمة يقولها .. ألا يقول كل شىء .. وألا يتهم أحدا .. ولكنه ما كاد ينطق حتى غلبه حماسه ، وسيطرت عليه فكرة محاولة إنقاذ مصر من انقلاب آخر ، وانطلق يروى كل شىء .. يصف كل ما رآه بأذنيه ..

وظل شكرى يستمع إليه صامتًا دون أن يرفع إليه عينيه .. ثم بدأ يسأله أسئلة كثيرة قصيرة :

– منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام .

ويجيب محمود فى حماس :

– منذ أكثر من شهرين . .

ويسأل بهجت :

– ألم تر أحدًا ينضم إليهما فى هذه الأحاديث . . ؟

ويرد محمود :

– لا . . ولكن الرائد سعيد المر كان دائماً يبقى قليلاً ثم ينصرف فى خطوات سريعة كأنه على موعد آخر . وتتوالى أسئلة بهجت شكرى وترتفع درجة حماس محمود فى إجاباته . . إلى أن استأذن بهجت :

– عن إذنك يا محمود . . سأعود إليك . .

وتركه وحيدًا والباب مغلق عليه . .

ومضت نصف ساعة . . وبدأ محمود يتململ . . ونصف ساعة أخرى وبدأ ينهار . . لعلهم سيتركونه هنا إلى الأبد . . لعله مسجون . . لعلهم نسوه . . وحاول أن يفتح الباب فاكتشف أنه مغلق بمفتاح أو ترباس . . ودق بيده على الباب . . وفتحه ضابط من ضباط الجيش . . لقد وضعوا عليه حارسًا . . وقال الضابط فى رفق :

– هل تريد شيئاً . .

وقال محمود فى رعشة :

– أريد أن أخرج من هنا . .

وقال الضابط فى رفق :

– بعد قليل بإذن الله . . السيد بهجت مشغول قليلا . .

ثم عاد وأغلق عليه الباب . .

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحاً . . ووصل محمود إلى حد الانهيار . . إنه جالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع . . إنه يعلم

طريقة هؤلاء الناس . . إنهم يذبحون كل من يعلم شيئاً عن دنياهم حتى لو كان يحاول إنقاذ هذه الدنيا . . آخر خدمة الغز علقة . . وهو الآن فى انتظار العلقة . . ضاع . . انتهى . .

وفجأة فتح الباب . .

ودخل بهجت شكرى . . وقفز محمود كأنما لسعته النار عندما رأى اثنين يدخلان معه . . المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر . . وارتعش . . لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه فسقط على مقعدة كأنه انتهى . .

وقال بهجت شكرى فى هدوء :

– أرجوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك . . لا تخف . . إنه فقط أسلوب المواجهة فى التحقيق . .

وقال محمود ولسانه يتلعثم مع تمزق أنفاسه :

– أنا لم أتهم أحدا . . إنى فقط قلت كلاماً سمعته . . لم أقصد شيئاً . . لم أقصد شيئاً . .

وعاد بهجت يكرر أمامه بعض ما قاله . . وهو يهز رأسه أحياناً . . وأحياناً يعود ويقسم أنه لا يتهم أحدا . . وعيناه زائغتان . . تتنقلان فى فزع بين المقدم رفعت والرائد سعيد . .

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود :

– ألا تذكر الرجل الأمريكى الذى كان يدخل البار كل مساء . .

وقال محمود وهو يطوى نفسه فى مقعده :

– أى أمريكى . . إنهم كثيرون

وقال سعيد المر . .

– اسمه بيتر برسون .. لاشك أنك تعرف اسمه ..

وقال محمود :

– نعم أعرفه . .

وعاد سعيد المر يقول :

متى سافر بيتر هذا؟

وقال محمود :

– أول أمس على ما أعتقد . .

وقال سعيد المر :

– ألم تلتق معه فى حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضى . .

وقال محمود :

– إنه زبون صديق كبقية الزبائن . .

والتفت سعيد المر إلى بهجت قائلاً :

– كما قلت لك . . إنه تخطيط أمريكى . . والهدف واضح . . إثارة الانقسام فى الجيش . .

وهز بهجت رأسه موافقاً ، ثم خرج الثلاثة من الغرفة . .

وفى الصباح وجد محمود نفسه فى السجن الحربى . .

° ° °

ومضت أربع سنوات ومحمود مختف عن البار ، وكل الزبائن يعتقدون أنه سافر للعمل فى الخارج . وتتعدد القصص والحكايات . . إنه فى باريس . . إنه فى أسبانيا . . إنه فى أستراليا . . لقد تزوج من أمريكية . . لقد أصبح مليونيراً وافتتح بارا فى هونولولو . . ولم يخطر على بال أحد من الزبائن أنه ملقى فى السجن

الحربى . . هكذا بلا محاكمة ، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن . كلهم نسوه هناك . .

وفجأة ظهر محمود داخل البار . .

لقد عاد . .

وهو يقبل على الزجاجات والكؤوس فى لهفة كأنه فنان يعود إلى فرشاته وألوانه بعد غيبة طويلة . .

واستقبله الزبائن بالتهليل ، ولكنه يتلقى تهليلهم بابتسامة باردة كأنه لا يسمعهم . .

إنه لا يسمع فعلا . .

إنه يضع فى كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء . .

لم يعد يرى بأذنيه . .

وبدأ يعود زبائنه على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات الشفاه .

وجاء بهجت شكرى ذات ليلة إلى البار وأخذ يبحلق فى محمود طويلا ثم أشار إليه ليتقدم نحوه وبدأ يتكلم . . قال له :

– أعترف أننا ظلمناك يا محمود . . ولكن الرئاسات أحيانا تضطر إلى الظلم . . وقد كانت المعلومات التى قدمتها لنا صحيحة . . وكان يجب أن نكافئك على شهامتك ووطنيتك ، ولكن الخطة التى وضعناها كانت تفرض أن نظلمك وأن نقذف بك فى عملية انتحارية كأبطال الحروب . . فلو أننا تحركنا للقضاء على المتآمرين فربما وقعت مصيبة فى الجيش لأنهم كلهم من الشخصيات الهامة التى كانت مسيطرة . . وفى الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا

مؤامرتهم لأننا لا نصدق ما اكتشفناه . . لذلك تركناهم يواجهونك ثم قبضنا عليك حتى نؤكد أننا لا نصدقك . . وقد نجحت الخطة . . فإنهم اضطروا أن يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا فى وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافى حتى نصفى المتآمرين واحداً بعد الآخر فى هدوء دون أن نعرض الجيش لأى ضجة أو انقسام . . أتدرى أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف . . إنهما حيث كنت . . فى السجن الحربى . .

وانتظر بهجت شكرى أن يتكلم محمود . .

ولكنه لم يتكلم . .

لم يلاحظ بهجت شكرى أن محمود يسد أذنيه . . لم يعد يسمع شيئاً . . لم يعد يرى بأذنيه . . لقد اكتشف طريق السلامه . . ألا يسمع حتى لا يرى . .

الصيد فى بحر الأسرار

١

عزيزى الأستاذ . .

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسى . . وفى صيغة أكثر تواضعاً ، أنا موظف فى إحدى السفارات العربية . . ولا يهم أن أحدد لك الدولة التى تنتمى إليها هذه السفارة ، ولا فى أى عاصمة من عواصم العالم تقع ، فأنا لا أكتب لك لأدفعك إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية ، كما أنى لا أكتب لأشهر ببلدى أو بأحد من الناس . . إنما أكتب لأنى تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالباً عندكم فى مصر ، وكنت أقدر أنك فيما تكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين ما يمكن أن يقال همساً وفى داخل المجتمعات المغلقة وما يمكن أن يقال علناً وينشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده . . أى ربما كنت جريئاً وربما كنت ساذجاً . . المهم ، أنى أكتب لك لأعرض عليك صورة من صور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك . . لا لأستعين بك على موقف معين ولا حتى لأستعين برأيك ، إنما أكتب لمجرد الكتابة . . أريد أن أسلى نفسى فى أوقات الفراغ ، أو على الأصح – أريد أن أخفف عن نفسى بعض ما أحمله من هذا الواقع ، أو لعلى أكتب لأجرب نفسى ككاتب قصة . .

اسمعنى يا سيدى . .

إن منصبى الرسمى فى السلك الدبلوماسى هو منصب وزير مفوض . .

فى خلال عامين اثنين ارتقيت من سكرتير ثان إلى وزير مفوض . . ويمكن أن تقدر ذلك على أنه اعتراف بثقافتى وكفاءتى ، فإنى أعتبر واحدا من قمم الطبقة المثقفة الضيقة التى يضمها مجتمع بلدى . . كما أنى لا شك أمتاز بمستوى عال من الكفاءة ، وأنا لست واحداً من أفراد الطبقة الحاكمة . . وهى طبقة أترك لك الخيال فى أن تتصورها فى شكل عائلة حاكمة ، أو فى شكل مجلس قيادة ثورة . . ورغم أن أبى مجرد تاجر عادى يعيش حياته فى دكان صغير داخل السوق ، إلا أنى منذ صباى استطعت أن أثبت وجودى بين أبناء الطبقة التى تحكم ، ثم استطعت أن أستمر فى تعليم نفسى حتى تخرجت فى كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، جامعة القاهرة . . فأنا أعتبر نفسى الفيلسوف الوحيد فى بلدى . . ورغم ذلك وحتى أكون واقعياً فإنى لا أعتبر أن ثقافتى أو كفاءتى كانت السبب الرئيسى فى هـذه القفزات السريعة التى قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسى . . السبب فى تقديرى هو الخدمات التى أؤديها . . وحتى أكون أكثر صراحة معك فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية . .

إن مهمتى الرئيسية داخل السفارة بجانب المهام الرسمية الأخرى هى ما يسمى « العلاقات العامة » ولكنى تخصصت فى جانب خاص من هذه العلاقات ، وهى العلاقات النسائية . . علاقات مع نوع معين من النساء . .

هل فوجئت ؟

هل دهشت ؟

يا صديقى إن العلاقات النسائية تمثل جانباً هاماً رئيسياً من نشاط أى سفارة من سفارات العالم ، وهى – ولا شك أنك تعلم – علاقات تستغل إما لتجنيد بعض النساء للتجسس لحساب الدولة ، وإما لتوفير المتعة لبعض الشخصيات

الكبيرة من أهل البلد الذين يزورون السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية فى الخارج . . فقط من باب إكرام الضيف . . ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب المخابرات الملحقة بالسفارة ، وإما أن تتولاها السفارة نفسها عندما لا يكون بها مكتب مخابرات ، كسفارتنا . .

هل تذكر الضجة التى قامت فى القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيلتون ، وطلب أن تلحق به بعد سفره ، ورفضت الحكومة المصرية السماح لها بالسفر . . هذه القصة منذ بدايتها كانت لا يمكن أن تتم إلا تحت إشراف الجهاز الدبلوماسى الذى يتبع الرئيس سوكارنو ، والخطأ الذى وقع فيه هذا الجهاز هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس ، وهو نفس السبب الذى جعل الحكومة المصرية ترفض السماح للفتاة بالسفر ، مداراة وتغطية للفضيحة حتى لا تصبح قصة دولية ، وإلا فلا أعتقد أن أى دبلوماسية كانت تضحى بصداقة زعيم عالمى كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة فى فندق ، وأن سوكارنو كان مشهوراً عالمياً بأنه زير نساء . . وأكثر من ذلك . . ألا تذكر القصص الكثيرة التى عرفت ونشرت عندكم عن النساء اللاتى كن يقدمن إلى بعض الشخصيات العربية الزائرة ، وقيل إنه كان من بينهن بعض الفنانات المشهورات وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية تلتقط مواقف خاصة جارحة لهذه الشخصيات وهم فى حالات شاذة مع هاتيك النساء . . إن ما أعرفه أن هذه العمليات لم تكن مقصورة على الشخصيات العربية فحسب ، هناك شخصيات غير عربية أيضاً . . شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق . . المهم . . إن ما يشغل فكرى كلما تذكرت هذه القصص هو أن أتساءل : أين ذهبت الصور الفوتوغرافية التى التقطت . . إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة ابتزاز لملايين من

العملات الصعبة . . ولكنى أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أعدمت فإنه يحتفظ بها فى أعماق بئر الأسرار حرصاً على العلاقات الدبلوماسية . . المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التى تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية ، فإن أى شخصية لها قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح فى حماية السفارة . . ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضاً الحماية الاجتماعية والحماية من النزوات الخاصة ، أى أن من حق السفارة أن تتدخل فى اختيار الزائر لمجال ممارسة حياته الخاصة ، فإن الحياة الخاصة هى الباب السهل الذى تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية . .

أريد أن أقول لك إن تخصصى فى العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء ، ليس عملاً مشيناً ولا ينطبق عليه اللقب الذى تستعملونه فى مصر وهو لقب « قواد » . . لا . . ابصقها من فمك . . فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التى تتطلب حماية الشخصيات الهامة فى بلدك رغم أن دوافع تصرفات هذه الشخصيات التى تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا بالوطنية . .

وصدقنى عندما أقول لك إنى لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يخطر ببالى ولكنى وجدت نفسى فيه . . وعندما عينت فى السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سناً ، ولا أبالغ إذا قلت إنى كنت الصورة الأكثر وسامة وانطلاقاً بينهم ، فإن حياتى الطويلة فى مصر ورحلاتى إلى الخارج جعلت منى شاباً يتميز بقبول اجتماعى أكثر من أى شاب فى بلدى . . أنا لست مغروراً ، وأنت لا تعرفنى ولن أفصح لك عن اسمى أو شخصيتى حتى أتباهى أمامك بالغرور . . ولكن هذا هو الواقع . . وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التى تضم السفارة

بالحياة الجنسية المفضوحة التى تعيشها هذه العاصمة . . وهى حياة مخصصة ليعيشها السياح والأجانب . . إن أحد العناصر الرئيسية فى عملية التنشيط والدعاية السياحية التى تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس . . ولذلك فإنى أنصح وزارة السياحة فى مصر أن تقاوم الدعوة التى نسمع عنها والتى تدعو إلى إغلاق ملاهى شارع الهرم ، كما أنصح بوليس الآداب المصرى ألا يفرض تدخله فى هذا المجال و أن يتبع اللوائح الخاصة بنوادى القمار . . فالقمار فى مصر وفى كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلا للأجانب ، أى للسياح ، فلماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار ، وكلاهما حرام ، وكلاهما رجس من عمل الشيطان . . أعرف أنك تلوى شفتيك امتعاضاً وأنت تقرأ هذا الكلام ، ولكنى أعتبرك كاتباً واقعياً وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية . . إلى منتهى الواقعية . . على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التى يعرضون بها الجنس فى هذا البلد . . فى الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذى يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البذيئة . . وعندما دخلت نادياً ليلياً أى « كباريه » وجدتهم يضعون النساء خلف نافذة زجاجية كأنها « فترينة » دكان لبيع الأحذية تقع فى جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل وينتقى الحذاء الذى يعجبه أقصد المرأة التى تعجبه ليأخذها وتجلس معه على مائدته ، وفى الحمامات الساخنة المخصصة للتدليك نفس الشئ . . نساء خلف فترينة زجاجية تنتقى من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك . محلات تجارية تعرض بضاعتها فى فترينات زجاجية كما تعرض الأحذية واللحوم فى دكاكين بلادنا . . وعلى قدر ما فوجئت إلا أنى اكتشفت فيما بعد أن هذه الوسيلة من وسائل العرض تتكرر فى أكثر من بلد سياحى ، بل إنى رأيت الوسيلة نفسها تتكرر فى ميناء هامبورج بألمانيا

الغربية . .وصدقنى أنها وسيلة قرزتنى . ولم أترك نفسى أبداً تنجذب إليها . . كنت أحس أنى لو أخـذت واحدة من هاتيك النساء فكأنى وقفت معها أمام الناس داخل الفترينة . . ولكنى كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتى اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعنى إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء ، وهذا الصنف قادنى إلى صنف أرقى لا يعرض فى الفترينات . . وكنت قادراً على أن أجمع بينى وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرقى من الجنس ، بل إنى أعطيت نفسى حق الظهور معهن بعيداً عن مجال عملهن فى دعوة إلى الغداء أو فى رحلة خارج العاصمة . .

المهم . .

لم يكـن قد انقضى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور على وصولى إلى السفارة . . لم أكن قد عرفت بعد كل ما يعيشه المجتمع الدبلوماسى . . وكان قد زارتنا شخصية رئيسية من الطبقة الحاكمة ، وكان السفير يقيم حفل عشاء خاصاً لهذه الشخصية فى داره . . وكنت أنا وحدى فى الغارة عندما وصلت برقية هامة يجب أن أحملها فوراً إلى السفير فى بيتـه . . وذهبت إلى البيت ، وعندما وصلت إلى الباب وصلت معى سيارة السفارة ونزلت منها واحدة من النساء اللاتى عرفتهن يرقصن عاريات فى أحد البارات . . وكانت تعرفنى . . وظنت أنى أحد المدعوين إلى بيت السفير . . وحاولت أن تهلل لرؤيتى وتفضح معرفتى بها . ولكنى صددتها بلقاء رسمى مبالغ فيه وأسكتها وكتمت تهليلها ، ثم تركتها تدخل إلى البيت ووقفت أنا على الباب إلى أن استدعانى السفير واستقبلنى فى غرفة مكتبه بعيداً عن مجال الحفل حيث سلمته البرقية . .

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهنى إلى مجال تخصصى . .

وبعدها بأيام استدعانى السفير وقال لى ضاحكاً :

— يبدو أن البلد أعجبتك جداً . .

قلت :

— جداً يا سيادة السفير ، ولكنى مازلت فى مرحلة الاستكشاف . .

وقال وضحكته تعلو :

— إنك على الأقل اكتشفت حتى الآن أجمل نسائها ، لقد رأوك أمس مع فتاة قالوا إنها رائعة . . حلوة . . تجنن . .

قلت وأنا أرد على ضحكته بابتسامة :

— عرفتها مصادفة و . .

وقاطعنى قائلا :

— دع الصدف تشملنا . . ادعها الليلة . . ونسهر معاً . .

قالها ببساطة كأنه يلقى على أمراً إدارياً . . وقد دعوت الفتاة بالفعل وخرج معى للقائها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت . . وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكلفة بينى وبينه ، وأنه يريد أن يشركنى فى هذا الجانب من أعمال السفارة الذى كان هو نفسه يعانى منه من طول ما تحمل من مسئولياته ولعجز باقى موظفى السفارة عن مزاولة العلاقات النسائية بمستوى راق . . كان السفير يريد أن يمنحنى فرصة التجربة ليختبرنى . . وهى ليست فرصة سهلة ، إنما فرصة تعطيك الحق فى أن تستولى وتحتفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التى تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة فى بلدك . .

ونجحت فى التجربة . .

واكتسبت ثقة السفير واعتماده علىّ ، بل إن السفير أصبح فى يدى لأنه هو الآخر له أسرار شخصية جارحة حصلت عليها من خلال العمليات التى كنت أقدمها له واحتفظت له بها فى بئر الأسرار ، والذى يملك بئر الأسرار يملك كل من له سر . .

وكانت الشخصيات الزائرة التى تفد من بلدى تنقسم إلى أنواع :

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلا أو مبتدئاً فى حياة الليل ، ولا يزال جائعاً إلى كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها ، وهو نوع كنت أكتفى بأن أصحبه إلى الحانات والكباريهات والحمامات فيبهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلقى نفسه فوقها بشراهة دون أن يطلب أى إعداد خاص . كالحرص على التستر ، أو إحاطته بجو ومزاج معين . . وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين ، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كباراً فجأة . . ولم أكن أبذل اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الزوار ، بل فى الغالب كنت أترك الاهتمام به إلى سكرتيرى الخاص . . وسكرتيرى الخاص ليس من بلدى ولكنه من بلد عربى آخر ، وقد اخترته غريباً حتى لا أترك لأحد من موظفى الوزارة فرصة التتلمذ على يدى فى علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضى علىّ ويحل محلى كما يحدث غالباً . .

أما النوع الثانى من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة والذى شبع من حياة الليل السهلة ، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات ، وهو ما يجعل الإهتمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة فى بيوت خاصة ، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر ، لأن هذه البيوت ، أو على الأصح البيوت التى كنت أختارها

هذه الشخصيات الهامة ليست بيوتاً مفتوحة لأى زائر . . إنها أقرب إلى بيوت الجيشا فى اليابان ، عندما كان للجيشا تقاليد واحترام وقبل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سياحية أقرب إلى دكاكين خان الخليلى عندكم . . وفى مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر . . موسيقى ، رقص ، غناء ، عشاء . . وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه ، ويستطيع أن يطلب أى شيء وكأنه صاحب البيت . . يملكه ويملك من فيه . . ولذلك قلت إن الزائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيراً . .

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم . . النوع الذى يشمل الشخصيات الرئيسية فى بلدنا . . وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالى . . لا يكلف السفارة بأن تحقق له متعة خاصة ، احتراما لمركزه وحرصاً على مظاهر تقاليد الحكم . . كما أن أحداً لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل النكته أن يوفر له هذه المتعة . . ليس من حقى كمسئول عن العلاقات العامة أن أغرى شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أنه يتمنى مثل هذه الليلة الخاصة ، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائراً إلا بعد أن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتعة التى أقدمها . . وعلم العلاقات العامة ينصحك فى مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئاً ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعى الذى يتيح له فرصة الاختيار . . اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد . . وتحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك فى اكتساب صداقة نوع معين من العائلات . . إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها ، أو مراكز ليست رسمية ، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعى ، ونساؤها على استعداد للاشتراك

في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير . . كتحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلاً ، أو المساهمة بالوساطة فى صفقة ضخمة . . وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائلى يقيمه السفير تكريماً للضيف الكبير . . حفل خاص لا يدعى إليه أحد بصفته الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيون . . وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالجو الاجتماعى المرح المفتوح الذى يشجعه على أن يطلب . . أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يطلبها . . وغالباً ما ينتهى الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره ووسامته وذكائه وأنه فتاك نساء ، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أن يستدعينى فى لقاء خاص ويهمس فى أذنى بما وصل إليه وكأنه يطلعنى على سر خطير لا علم لى به ، حتى أعد له المكان الخاص الذى سيلتقى فيه مع هذه السيدة . .

ومثل هذه العمليات التى تتم عن طريق صداقة العائلات المحلية لا تتحمل ميزانية العلاقات العامة تكاليفها . ولكن قد يتم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية سمسرة يقوم بها رجل العائلة ، وفى الغالب تنتهى العملية بهدية ثمينة تساوى آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة . .

هذه هى الأنواع الثلاثة من الشخصيات التى كنت مسئولاً عنها .

وقد حققت لحسابى أرباحاً كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها فى بئر الأسرار وأصبحت أقبض بكل سر على عنق واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبنى ويتقينى . . ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفزات السريعة فوق السلك الدبلوماسى والتى وصلت بى فى خلال عامين إلى رتبة الوزير المفوض ، ولكنى استفدت كثيراً من الوساطة فى تحقيق صفقات متعددة . . وأستطيع أن

أقول الآن إنى وصلت إلى مستوى الطبقة الحاكمة حتى ولو كنت لا أعتبر سياسياً من بينها . .

وفى داخل السفارة كانت هناك شخصية مضت فترة طويلة وأنا حائر فيها . . وهى شخصية زوجة السفير . . إنها تعرف كل شىء . . وفى بيتها وفى حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التى حدثتك عنها . . وكانت تستقبل أنواعاً من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من بينهن أدنى أنواع المحترفات من فتيات الحانات والحمامات إلى أن تحملت أنا المسئولية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء فى الحفلات العامة أو الخاصة والاقتصار على المحترفات الراقيات . . وقد قدرت أولا أن الزوجة التى تقبل كل ذلك فى بيتها لابد أنها زوجة سهلة ، بل إنى قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزاول نفس ما تسمح به . . إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هى الأخرى نفس الحياة . . وحاولت كثيراً أن أكتشف عن حياة خاصة تعيشها . . أن ألقى بها فى بئر الأسرار مع باقى الرجال والنساء . . ولكنى لم أكتشف ولم أعرف لها سراً . . وأكثر من ذلك ، حاولت أنا نفسى أن أصل إليها . . إنى كما قلت لك أتمتع بجاذبية الوجود . . مجرد وجودى يشد أى امرأة . . ومع هذه الجاذبية استعملت كل مواهبى حتى أشد إلى السيدة زوجة السفير ، ولكنى فشلت . . وقد كانت متنبهة إلى محاولاتى وكانت تقابلها بابتسامة هادئة صامتة تثير الاحترام لا التشجيع . وأخيراً خرجت من حيرتى إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة . . سيدة كاملة . . وأن سكوتها على ما يجرى فى بيتها هو استسلام لحكم الوظيفة كزوجة سفير ، كما أن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذى ارتبط به أهلها . . وقد استطاعت بهدوئها واستسلامها

للواقع أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات ونصف المحترفات والهواة . . صداقة قائمة على مجرد الاحترام . . وكانت عندما يقام حفل فى السفارة تتعمد تجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء ، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل فى هدوء ، وتصحو فى اليوم التالى دون أن تسأل أحداً أو تحاسب أحداً عما تم . . وأصبحت هى الشخصية الوحيدة التى أحترمها فعلا داخل السفارة بل ربما فى البلد كله الذى أقيم فيه . . أصبحت صديقتى النظيفة . . أختى . . وكانت هى وحدها التى تعلم علاقتى مع بهاناى . .

وصدقنى عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذى يحيط بى وأعيشه لم تكن لى أى علاقة خاصة مع أى امرأة ، حتى ولا علاقة ليلة واحدة . . ربما لأنى أغار على جسدى وأبخل به تكملة لغرورى بنفسى وكأن هذا الجسد شىء غال لا يبتذل . . إلى أن قابلت بهاناى . . إنها امرأة من تايلاند . . فيها الجمال الأسمر البوذى الذى تشتهر به بنات جنوب شرق آسيا . . الشعر الأسود الناعم الذى ينساب فى غزارة كشلال الليل . . والقوام الممشوق الصغير كأنه تحفة صاغها فنان ليعلقها على صدره . . والأسنان البيضاء الناصعة التى تشرق مع ابتسامتها كأنها تضىء لك الطريق إليها . . وبهاناى من عائلة كبيرة معروفة فى تايلاند ، وأمها تمتلك أكبر محل أزياء هناك ، وأبوها يملك مصانع للغزل ، وقد سافرت بهاناى إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال فى جامعة بوسطن ، ولكنها كانت تقاوم منذ صغرها إلحاح الفن عليها . إنها فنانة . تغنى وتعزف على البيانو . . وهى تقاوم هذا الفن حتى تستمر فى الطريق الذى نجح فيه أبوها وأمها . . طريق إدارة المصانع وبيوت الأزياء . . ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهى فى الجامعة ، فى أمريكا ، تزوجت

زميلاً لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدين ، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيداً عن فنها وتربطها أكثر بواقعها . . ولكنها عجزت عن الاستمرار . . وقبل أن تحصل على الشهادة الجامعية فى إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة وبدأت فى دراسة الموسيقى . . فنها . . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيقى ، ورفض زوجها فتركته . . إنه لا يساوى شيئاً بجانب إحساسها بفنها . . وولداها تركتهما فى بيت العائلة . . وهى تجوب عواصم جنوب شرق آسيا وتغنى ، وقد قابلتها وهى تغنى فى صالة صغيرة فى أحد الفنادق الكبرى وشدتنى إليها . . شعرها . . وابتسامتها التى تشرق فى لونها الأسمر . . ورغم ذلك فعندما بدأت أتحدث إليها كانت لا تزال تغلبنى مسئوليتى عن العلاقات العامة فى السفارة فدعوتها إلى حفل خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز :

وقالت بهاناى من خلال ابتسامتها :

— هل يفهم الضيف هذا النوع من الغناء الذى أغنيه ؟

وتعجبت للسؤال وقلت فى وقاحة :

— لا أعتقد . . ولكن لا يهم الغناء . . يكفيه أنك جميلة ومن هذا النوع من النساء ! ! .

وقالت بهاناى ضاحكة :

— إذن تستطيع أن تدعو صديقتى دانولى فهى تصلح أكثر لهذه الدعوات . . إنى حتى لو اعتبرتنى جميلة فأنا مملة عندما أكون مع من لا يفهمنى . .

والشىء الجديد الذى طرأ على أنى لم أحاول استعمال مواهبى لإقناعها بقبول الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتها فعلا ، وبدأت من يومها أتردد كل ليلة على الصالة التى تغنى فيها وأحاول أن أفهمها . . وفهمتها وفهمتنى . . وارتبطنا بعلاقة

لا أريد أن أقول إنها علاقة حب . . ولكنها علاقة راحة . . كل منا يرتاح إلى الآخر ويتمتع بصحبته ، بكل ما تطلبه المتعة . . وأكثر ما يريح هو الفهم المتبادل . . ولم تكن بهاناى امرأة شريفة بالمعنى المفهوم للشرف فى بلادنا . . إن الجنس فى جنوب شرق آسيا ليس موضوعاً يستحق كل هذا الاهتمام ، وليس علاقة تفرق بين الشريف وغير الشريف ، وقد تكون بهاناى تعطى نفسها لرجال آخرين مع ارتباطها بى . . هذا لا يهم . . ولكن المهم أنها امرأة غالية . . ليست محتاجة . . إنها قد يغريها بالعطاء الثمن الكبير جداً ، أو الصدفة التى لا تستطيع أن تقاومها . . وقد عرف أعضاء السفارة ، علاقتى ببهناى ولكنى لم أكن أسمح لأحد بأن يحدثنى عنها إلا لصديقتى زوجة السفير ، وكانت هى التى تختار لى الهدايا التى أهديها لبهاناى . .

وقال لى السفير يوما :

– ألن تدعو المرأة التى تعرفها فى إحدى جلساتنا . .

وقلت فى برود :

– إنها مملة لا تصلح لأى جلسة . .

قال وهو ينظر إلى فى غيظ :

– لعلك تغار عليها . .

قلت ضاحكاً :

– الغيرة غير معروفة فى هذه البلاد . . المرأة هنا لا تستحق الغيرة . .

وأنهى السفير الموضوع ربما لأنه راعى ألا ندخل فى نقاش قد يفسد علاقتنا خصوصاً بعد أن أصبحت أنا الأقوى ، واكتفى بأن ذهب معى مرة ليستمع إلى غناء بهاناى ، ولم يعلق بشىء ، لم يبد إعجاباً حتى بجمالها وطبعاً لم يتأثر بشىء من غنائها . . إلى أن حدث وجاءنا ضيف كبير مهم . .

وتعبت فى وضع كل مواهبى فى خدمته . . قدمت له نساء أكثر من عائلة محترمة فى أكثر من حفل خاص . . لا شىء . . وتجرأت ودعوته إلى البيوت الخاصة ، وقبل الدعوة . . ولكن لا شىء . . وخيل إلى أنه قد يكون لا يزال محتفظاً برعونة الشباب فدعوته إلى حمامات التدليك ، وقبل الدعوة أيضاً وأبدى دهشته وانبهاره بما يراه . . ولكن لا شىء . . وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لا يريد أكثر من هذه المجتمعات والمشاهدات البريئة فاسترحت من محاولة إرضائه وتكريمه . .

وكان الضيف المهم يقيم فى نفس الفندق الكبير الذى تغنى فيه بهاناى ، وفى الليلة الأخيرة قبل سفره كان الضيف ومعه السفير عائدين إلى الفندق وأنا معهما واقترح عليه السفير أن يدخل به إلى الصالة الصغيرة التى تغنى فيها بهاناى ، وقبل الضيف المهم ، وما كادت عيناه تقعان على بهاناى وهى تغنى حتى استقرتا عليها . . لا يحولهما عنها . . لا يريد أن ينظر إلى أى شىء آخر من حوله . . وإذا تحدث إليه السفير استمع إليه دون أن يحول نظره عن بهاناى . . وحاولت أن أبدأ أسرد عليه مجموعة من النكات لعل الضحك يشده بعيداً عن بهاناى ، ولكنه لا يضحك ، وإذا ضحك لا يحول عينيه . . ثم قال وهو يجفف لعابه من فوق شفتيه بلسانه كأنه انقلب إلى وحش جائع :

– هذه امرأة حلوة . .

وقال السفير ضاحكا

– اتفضل سيادتك . . بالهنا والشفا . .

وقال الضيف من فوق لسانه المدلى :

– هل يمكن . .

وقال السفير :

– طبعاً يمكن . .

ثم نظر إلىّ وقال كأنه يصدر أمراً سلطانياً :

– أدعها إلى المائدة . .

قلت كأنى أتوسل إليه :

– إنها مملة . . وسيقرف منها سيادته .

وقال السفير كأنه يصرخ :

– إدعها . . لا تكن مجنونا . .

وقلت فى استسلام :

– حاضر . بعد أن تنتهى من الغناء . .

وناديت المشرف على الصالة وهمست فى أذنه . أن يذهب إلى بهاناى ويطلب منها ألا تكف عن الغناء ، ولم تكف فعلا عن الغناء ، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التى يتبعها أثرياء العرب فى الكباريهات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشمبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية . . ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوى ما قيمته مائة جنيه وحاول أن يلصقها على صدر بهاناى وعنـدما تراجعت عنه وهى تضحك أخرج ولاعته وأحرق الورقة النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها ، وكل من فى الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناى ، وانطلق حولنا كثير من الضحك والتصفيق لحركات السفير ، فأمر بدعوة كل من فى الصالة على حسابه . . كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل ، ثم قمت بسرعة وطلبت من الجرسون أن يدعو دانولى صديقة بهاناى إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتنقذ بهاناى من هذا الاهتمام . . ولكن دانولى لم تكن فى الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها فى مكان آخر وجاءت

إلينـــا بينما بهاناى لا تزال تغنى وقد بدا عليها التعب من طول ما تغنى . . وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانولى :

هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصاً عندما علمت أن سيادتك هنا . .

ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناى وقال السفير ساخطاً :

– إننا لا نريد هذه . .

قلت فى يأس :

– إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهى بهاناى من الغناء . .

واضطرت بهاناى أن تنتهى ، على الأقل لتستريح ، واضطرت إلى أن تجئ إلى مائدتنا بعد كل هذا السخاء المجنون الذى أحاطها به السفير ، ونظرت إلىّ كأنها تسألنى ماذا تفعل ، وأدرت عنها ناظرى بسرعة حتى لا يتهمنى السفير بشىء أو يلحظ الضيف الكبير شيئاً . . ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناى والضيف الكبير فهو لا يعرف أى لغة يمكن أن يتحدث بها إليها ، وتولى الحديث كله السفير ، وقال لها إن الضيف الكبير يهمه أن يختلى بها لأمر هام . . وضحك . .

وقالت بهاناى وهى تبتسم :

– هذا يشرفنى . . ولكن الساعة الآن الثالثة صباحا . . ويجب أن أجتمع مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغانى الجديدة . . لنجعل لقاءنا غداً . .

وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ :

– إنه يسافر غداً . . تعالى . . وأفراد الفرقة يمكن أن ينتظروك . . وسنعوضك ونعوضهم بما تريدين . .

ثم قام واقفاً وشد بهاناى من يدها ، واستسلمت له كعادة أفراد هذا الشعب ، وحتى لا تثير أى مشكلة مع ضيف كبير من نزلاء الفندق . وقال السفير للضيف الكبير :

— اتفضل سيادتك . .

ثم صحبها والضيف بجانبهما وأنا أتبعهم سائراً خلفهم فى صمت ضعيف كأنى قد انهرت وانتهيت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف ، ودفع السفير بهاناى إلى جانبه . وقال ضاحكا :

— الدور التاسع . لا تنس سيادتك . . غرفتك فى الدور التاسع . .

ووقفت أنا والسفير وبهاناى تبتسم لى من بعيد ابتسامة ضعيفة كأنها تشفق بها علىّ ، وباب المصعد يغلق فى وجهينا — أنا والسفير — ويرتفع بالضيف ومعه بهاناى

ونظر إلى السفير فى شماتة كأنه انتصر علىّ . . وسار خارجاً من الفندق وركب سيارته دون أن يدعونى كعادته للركوب معه . .

ولم أنم ليلتها ، لا لأنى كنت أعانى أمراً عاطفياً من أجل بهاناى . . قلت لك أنه لم يكن ما بينى وبينها حب . . ولكنى كنت أعانى الإحساس بأنى فقدت مركزى . . فقدت سيطرتى على مثل هذه المواقف التى تدخل فى صميم اختصاصى لست أنا الذى حقق رغبات الضيف الكبير . . لست أنا الذى حمل بهاناى إليه . . إنه السفير . . كأن السفير طردنى من وظيفتى واستولى على اختصاصى لنفسه . . معنى هذا أنى خيبة . . أنى فاشل لا أستطيع أن أقدر وأتصرف وفقاً لتقدير صحيح . . والواقع أنى أخطأت فى تقدير موقف بهاناى ، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التى وجهتها إليها لحضور حفلات السفارة ، أو لحضور الجلسات الخاصة ، بل رفضت حتى زيارة زوجة السفير . . وصحيح أنى كنت أستسلم ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن احتفظ بها لاستعمالى الخاص ، ولكنى لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب لإلحاح أومحاولة أحد

غيرى . . وقد استجابت لإلحاح السفير . . أى أنى فى الواقع لم أكن أحاول أن أحرم الضيف من بهاناى ولكنى كنت أحاول أن أحميه من رفضها . . ولكن . . أنا غبى . . ولأنى غبى انتصر تقدير السفير للموقف على تقديرى . .

إلى أن كان الصباح . .

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بجو غريب من التوتر ، وعرفت أن السفير وزع سخطه ولعناته على كل الموظفين منذ وصل ، وعندما دخلت إليه فى مكتبه وجدته واقفا يستعد للخروج ، ولم يمد يده لمصافحتى ، بل لم يرد على تحيتى ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وكنت أعلم أنه فى طريقه إلى الفندق الذى يقيم فيه الضيف الكبير ، فقلت له :

— هل ألحق بك ؟

وقال كأنه يصرخ فى وجهى :

— لا . . انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك . .

وأسرع خارجاً كأنه يرفض أن يناقشنى ، وانتظرت طويلا وأنا حائر فيما يمكن أن يكون قد حدث ، ثم لم أعد أحتمل الانتظار وذهبت لألتقى بالضيف الكبير . . وكان فى الجناح المخصص له مجتمعا مع السفير ، ودخلت إليهما بلا استئذان فإن مركزى يعفينى من الاستئذان ، وبمجرد أن دخلت رفع إلى الضيف عينيه كأنه دهش لوقاحتى ، وقال بسرعة :

— من فضلك . . انتظرنا فى الخارج . .

وانتظرت ولم يدعنى أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السفير فى طريقهما إلى المطار دون أن يلتفت أحد منهما إلىّ . . ركبت سيارتى وليس معى إلا سكرتيرى الخاص جالساً بجانب السائق وذهبت إلى المطار . . وعندما اصطففنا بجانب

الطائرة مع المودعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليمر بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه ، لمس يدى الممدودة لمسة سريعة دون أن ينظر فى وجهى . .

وسافر الضيف الكبير عائداً إلى بلدنا . .

وعرفت بعدها كل شيء . .

لقد هربت بهاناى من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص . .

وقد استقبلت الخبر بفرحة . . فرحة استعادت ثقتى بنفسى ، وثقتى فى بهاناى . . إن تقديرى لم يكن خاطئاً ، وبهاناى لم تتخل عنى . . ولكن هذه الفرحة طارت بسرعة وحل محلها الخوف . . الخوف على مستقبلى كله . . ترى ماذا قال السفير للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث . . وقد أسرعت أولا إلى بهاناى أسألها ، فضحكت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروى نكته :

– لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مفاتيح المصعد ثم غافلته فى نفس اللحظة وضغط على مفتاح الدور الخامس . . وعندما وقف المصعد حادثته باللغة التايلاندية وأنا أخرج وبقيت أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد وأنا واثقة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انغلق باب المصعد وصعد به وحده إلى جناحه فى الدور التاسع .. ولم أنزل أنا فى المصعد الآخر ولا على السلم العمومى خوفاً من ألتقى بك أو بالسفير فى بهو الفندق ولكنى نزلت من سلم الحريق . .

قلت :

– أنت مجنونة . .

قالت :

– إنى لم أوافق أصلا على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذى دفعنى دفعا إلى المصعد . . ثم ماذا يهم . . إن ما يريده منى يستطيع أن يناله من أى امرأة .

لم أشعر أنى حرمته من شئ مهم . . هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التى لا يفهمها . . لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه . . كنت أقول له إنى آسفه لأنى متعبة وأننا نستطيع أن نلتقى فى موعد آخر وأنى أعتز بإعجابه بى . . كنت أقول له مثل هذه الكلام . . و . .

وقاطعتها :

– الكلام الذى لا يفهمه . . إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لى لو أطلق مثل هذا الرجل غضبه علىّ . .

وقامت وجلست فوق ساقى وأسقطت صدرها على صدرى وقالت وشفتاها تقتربان من شفتى :

– لا تهتم . . أنا المسئولة عن كل ما يحدث . .

وقد احترت فعلا كيف أتصرف ، فقد عرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير أنى أعتبر هذه المرأة – بهاناى – ملكاً خاصاً لى ، وأنى أرفض حتى دعوتها لإحياء الحفلات الرسمية فى السفارة لمجرد إلقاء أغانيها ، وأنه – أى السفير – واثق أنى أنا الذى حرضتها على أن تهرب منه . .

وكان معنى هذا أن أنتظر طردى من السلك الدبلوماسى أو على الأقل نقلى إلى بلد مقطوع الصلات من بلدان أفريقيا مثلا ، وقد تصب على لعنة أكبر من ذلك.

وفكرت أن أكتب تقريراً خاصاً أرسله إلى الشخصية الهامة التى عجزت عن أوفيها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسى .

وفكرت أن أعود بنفسى إلى بلدى وأحاول أن ألتقى به وأشرح له كل الظروف التى أحاطت بالموقف وأثبت عدم تقصيرى فى ممارسة العلاقات العامة أو تدخلها أى تدخل مضاد . .

إلى أن استشرت صديقتى زوجة السفير التى أحترمها وأعتز برضائها عنى . .
فقالت لى فى بساطة :

– ارسلها إليه . .

قلت :

– كيف ؟

قالت وهى تنظر إلى كأنى طفل صغير لم يتعلم بعد :

– لا أدرى كيف . . ولكن اقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت خصيصا للقائه بعد أن وقعت فى غرامه . .

وبهرت بالفكرة ، وقبلت يد السيدة المحترمة شكراً وامتناناً ، وأسرعت أجرى إلى بهاناى ، وقلت لها وكأنى ألهث من ضغط حيرتى وخوفى :

– لقد قلت لى أنك المسئولة . . وإنى مهدد بالطرد من وظيفتى بسببك . .

قالت من خلال ابتسامتها :

– ماذا يهم . . إن وظيفتك تحيطك بقيود ثقيلة الدم . . إبحث عن عمل آخر . .

إنها لا تعلم أن وظيفتى ليست مجرد منصبى فى السلك الدبلوماسى ، إن هذه الوظيفة هى التى أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التى أصبحت بها واحداً من كبار الأثرياء . . وهى لا تعلم أن طردى معناه أنى أصبحت مبعداً عن أصحاب الحكم والمبعدون فى بلادنا لا يستطيعون الحياة إلا اعتماداً على أموالهم المهربة ، فإذا لم تكن لهم أموال مهربة عاشوا على الاستجداء . . إن المبعد فى بلادنا معناه أنه وصل إلى قيمة الصفر ، حتى أنى أحياناً تغلبنى هوايتى للفلسفة الاجتماعية وأفكر فى أن أطالب الدولة بافتتاح ملجأ للمبعدين كملاجئ الأيتام .

وقد قلت كل ذلك لبهاناى حتى أقنعتها بأن كل حياتى أصبحت فى خطر إلى أن اقتنعت قائلة :

– ماذا تريدنى أن أفعل . .

قلت فى حماس :

– تسافرين إلى بلدى وتلتقين به هناك . .

قالت فى تردد :

– ولكن إن . .

وقاطعتها :

– سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذى تحصلين عليه من هنا . . ليس فقط قيمة مرتبك من إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجبين . . وهناك فى بلادنا إذا نجحت فى الوصول إلى صاحبنا فثقى أنك ستعودين مليونيرة

ووافقت بهاناى ، وأقنعت نفسى أنها وافقت لا طمعا فيما وعدتها به ولكن حباً فى شخصى الضعيف . . وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة . . إنها سترسل خطاباً إلى الشخصية الهامة الكبيرة – ولاحظ أنى أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفضح نفسى – تعتذر له فيه عما حدث ، وتضمنه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه ، وتقول إنها حتى تؤكد إعتذارها فقد قررت أن تزوره فى بلده . . ولا يهم بعد ذلك أن تنتظر رداً . . يكفى أن تنتظر مدة كافية حتى تطمئن إلى وصول الخطاب وبعدها تسافر ، ويكون سكرتيرى الخاص قد سافر قبلها ليمهد لوصولها ويدرس الموقف ويتصل بى لنحدد هل تسافر بهاناى وتقدم نفسها كفنانة أجنبية وتتفق على إحياء بضع حفلات فى الفندق الكبير هناك ، أم تصل كمجرد سائحة دون أن ينتبه أحد إلى وصولها بحيث يبقى اتصالها بالشخصية الكبيرة سراً . . ثم بعد أن

تقرر كل ذلك وبعد أن تنجح فى لقاء صاحبنا فقد إتفقت معها على تفاصيل الكلام الذى يجب أن تقوله له . . يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إليه إلا عن طريقى . . طريقى أنا . . أنا الذى أعددت كل شىء . . أما السفير فهى ترفض دائماً الاتصال به لأنه حاول معها كثيراً وكانت تصده . . وكلام كثير قدرت أنه يخدمنى ويبعد عنى شر السفير . .

وسافرت بهاناى فعلا إلى بلدى . .

سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيتها « الفيزا » دون إذنه ودون أن يعلم بهذه الفيزا أى واحد من السفارة . .

هل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهاناى ؟ كلفتنا حوالى ستين ألف دولار . . لا يهم . . وأنى أعلم أنها لو نجحت فى مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه – أى من أموال الدولة – على أكثر من ذلك بكثير . .

المهم أنى كنت أعيش منذ سفرها فى انتظار الأخبار . .

أعيش كأنى فى انتظار كلمة القدر . .

وعلاقتى مع السفير تتوتر يوماً بعد يوم ، ولولا أنه واحد ممن أحتفظ بهم فى بئر الأسرار لما حاول أن يراعى معى حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التى تجمع بين السفير والوزير المفوض . . إنه أيضاً فى انتظار أخبار .. أخبار نقلى أو إحالتى إلى ملجأ المبعدين . .

إنى فى عذاب . .

عذاب الانتظار لنتائج أدق خطة دبلوماسية وضعتها فى حياتى . .

٢

يا عزى الأستاذ . .

لا أريد أن أطيل عليك فعندى ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك ، وقد نجحت الخطة التى وضعتها مع مهاباى ، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات العامة التى حققتها . . وقد التقت مهاباى هناك – فى بلدى بصاحب الشخصية الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد ، وأعطاها أكثر مما أرادت ومما كانت تحلم به ، واستطاعت أن تبدد كل شكوكه التى ثارت حولى ، وأن تمحو الصورة التى رسمها لى السفير ، وعاد سكرتيرى الخاص وروى لى كل التفاصيل التى كانت تبلغها له مهاباى أولا بأول ، وأصبحت مطمئناً إلى مستقبلى ومطمئناً إلى أن الشخصية الكبيرة قد عادت وهدأت داخل بئر الأسرار التى أمتلكها . .

أما مهاباى نفسها فإنها لم تعد . . سافرت إلى أوربا بعد أن انتهت زيارتها لبلدى ، وقطعت اتصالاتها بى . . لم أعد أعرف عنها شيئاً ولا أهتم بأن أعرف شيئاً . .

وكانت علاقتى بالسفير مستمرة فى توترها إلى أن بدأ ييأس من صدور قرار بنقلى من السفارة أو بإحالتى إلى ملجأ المبعدين ، فبدأ يلين معى ويعود إلى تعمد إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر مهاباى إلى البلد ولقائها بالشخصية الكبيرة وقدر أنى دائماً أقوى منه وأذكى منه فى التخطيط الدبلوماسى ، فلم يحاول أن يسألنى أو يناقشنى أو يحاسبنى على إعطاء « فيزا » للدخول دون علمه أو علم أحد من موظفى السفارة ، حتى لا يثير بينى وبينه أزمة جديدة ، وعاد إلىّ أضعف مما كان ، وكنت أشفق عليه لأنى كنت واثقاً أنى أنا الذى أستطيع أن

أنقله أو أحيله إلى ملجأ المبعدين فإنى أملك أسراره وأسرار الذين يملكون حق الإطاحة بأى موظف فى البلد . . أنا صاحب بئر الأسرار . . ولم يعف السفير من غضبى إلا تقديرى واحترامى للسيدة زوجته . . لولاها لأطحت به . .

ولكن . .

صدقنى أنى بدأت فى هذه الأيام أزهق وأقرف من نفسى ومن كل ما يحيط بى . . أزهق وأقرف من عملى . . بدأ إحساسى بأنه عمل قذر يؤرقنى ويعذبنى . . ومع اعتبار أنه عمل وطنى ، إلا أن كثيراً من الأعمال الوطنية تفرض الإلتجاء إلى القذارة . . كالجاسوسية مثلا . . إن التجسس سواء فى المجال الخارجى أو المجال الداخلى لا شك أنه يعتبر عملاً وطنياً رئيسياً ولكنه لا شك أيضاً أنه عمل يعتمد على عمليات قذرة ، وأخطر ما يهدد الجاسوس فى عمله وفى مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قذر . . إن الجاسوس الناجح القوى هو الذى لا يتأثر بأى إحساس بالقذارة ، بل يؤدى أقذر مهمة وهو ملئ بالإحساس بأنه فقط يؤدى مهمة وطنية ، كالمقاتل الذى لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدى خدمة لبلده . . كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصاً الجانب النسائى منها ، لا شك أنها عمليات وطنية كما سبق أن شرحت لك ، رغم كل ما فيها من قذارة ، المهم ألا تحس بهذه القذارة ، ولكنى بدأت أحس بها . . بدأت أفقد متعة الاهتمام بالعمليات التى أقوم بها ، وبدأت أهرب من كثير من هذه العمليات ، وأدعى المرض حتى لا أشترك فى استقبال كبار الوافدين من بلدنا . . وبدأت أتمنى الراحة . . الراحة النفسية والراحة الذهنية . . أريد أن أحاول تحقيق حلمى القديم عندما كنت لا أزال طالباً فى الجامعة عندكم ، وهو أن أستمر فى دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراة وأصدر عدة كتب ، لا تزال تنقصنا تشمل فلسفة المجتمع العربى . . على الأقل أريد أن أرفع نفسى عن مستوى القذارة . .

ولم يكن هذا سهلا . . إن الحياة التى تعودتها استولت علىّ ، والنجاح الذى حققته وما جمعته من ورائه من أموال أصبح أقوى منى . . إن الإنسان الناجح لا يشبع أبداً من النجاح ، ولا يكتفى أبداً بثرائه . . ليس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء ، ولذلك لم أستطع أن أتخذ قراراً بتغيير شخصيتى الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيداً عن القذارة والقرف ، كل ما استطعته هو أن أمنح نفسى أجازة ، وحتى هذا لم يكن سهلا ، فخلال السنوات الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسى لم أمنح نفسى أجازة بل أنى كنت أتنازل عن الأجازات الرسمية . .

وقررت أن أقضى الأجازة فى اليابان . . أقرب بلد إلى مركز عملى . . وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات فى عمليات سريعة خاطفة ، ولكنى أذهب هذه المرة فى اجازة . .

وقررت أن أخفى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أكون وحدى بعيداً عن جو الرسميات وبعيداً عن كل ما يذكرنى بعملى ، وقضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالمكتبات وأجمع الكتب التى أرى أنها يمكن أن تساعدنى على استعادة اهتمامى بدراسة الفلسفة ، ثم أتعمد أن أقضى الليل وأنا أحاول أن أقرأ . . وصدقنى . . لم أعد أستطيع القراءة . . ليس فقط لأن لغتى الإنجليزية إزدادت ضعفاً ، ولكن لأنى فقدت التعود على القراءة . . فقدت قدرتى على تركيز عقلى فيما أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أفرض على نفسى القراءة كأن فى داخلى طفلاً صغيراً يشده أبوه إلى المدرسة غصباً عنه . . وكنت خلال النهار أتردد أحياناً على دكان داخل الفندق الكبير الذى أقيم فيه مخصص لبيع آلات التصوير والأفلام . . كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب

هواية التصوير . . وعرفنى صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذى كنت أقضيه معه وهو يطلعنى على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير . .

وكنت يوماً فى دكان الصور الفوتوغرافية . .

ودخلت فتاة رائعة ليست يابانية وقدرت فوراً من لهجة حديثها أنها أمريكية . . لم تكن مجرد فتاة جميلة ، ولكن كان فيها نوع من جمال الترفع والتعالى . . نظرات عينيها تحيط بكل ما حولها فى ثقة وغرور كأنها موكب رسمى يتقدمها . . وأصابع يديها رفيعة طويلة تحمل بينها خاتماً ماسياً لا يقل حجمه عن ثلاثة قراريط تحركها كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذى تريده . . وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضاً وتسير خلفها وقدرت أنها لا شك سكرتيرتها أو وصيفتها . .

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان فى لهجة آمرة رغم نعومتها ، وكانت تلومه على آلة سبق أن باعها لها ، وقالت فى بساطة كأن من حقها أن تهين شعب اليابان كله :

– إنكم هنا تنقلون كل جديد يظهر فى أى مكان من العالم ، ولكن عيبكم أنكم تنتظرون أكثر من أسبوع حتى تصلوا إلى الجديد الذى يظهر بعده فى حين أن ما بعده يظهر بعد يوم واحد . .

وقال صاحب الدكان فى احترام كبير وهو ينحنى برأسه وظهره عدة مرات على الطريقة اليابانية :

– هذه آخر آلة وصلتنا . . وصلتنا أمس . .

وبسرعة كان ذكائى كله قد تجمع وتركز حول هذا الجمال المتعالى ، فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التى أحملها وكان يعرضها على منذ دقائق :

– ولكنك قلت لى إن هذه الآلة وصلت اليوم لا أمس . .

ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلا وأنا أقدم لها الآلة :

– أعتقد أنها تختلف . .

ونظرت إلىّ نظرة سريعة أحسست أنها طوقتنى بها كلى كأنها التقطت كل مقاساتى ، ثم مدت يدها وأخذت منى الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة فى علم التصوير ، ثم قالت :

– فعلاً إن فيها شيئاً جديداً مختلفاً . .

واستمر بيننا الحديث . . أنا وهى وصاحب الدكان ، بينما الفتاة الأخرى صامتة لا تتكلم كأنها فى انتظار أوامر سيدتها . . وفى خلال الحديث قال لها صاحب الدكان مشيراً إلىّ :

– إنه عربى . .

وتفتحت عيناها فى ومضة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلا وقالت :

– هل صحيح . . أنت عربى ؟ .

قلت ضاحكاً :

– نعم . . ولكنى من بلد ليس فيه بترول . .

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقنى :

– هل هناك بلد عربى لا يملك البترول . .

قلت :

– كثير . .

ولا أدرى ما الذى دفع ذكائى إلى الكذب عليها ، ربما لأنى كنت أريد أن أقنعها بأنى أرقى من أبناء دول البترول العربى ، أو أنى أردت أن أقدم لها نفسى

على أنى أعتمد على ثقافتى وعملى لا على دخلى من البترول ، أو ربما أردت أن أختبرها لأكشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتى يندفعن وراء إغراء رجال البترول ، أقصد ، فلوس البترول ، أم أنها ليست من هذا النوع . . امرأة شبعانة . . ومن يدرى ربما كانت هى نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول . . وقلت متودداً :

– ألم تذهبى إلى إحدى الدول العربية . .

قالت :

– لا . .

قلت :

– يشرفنى أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهى تهم بمغادرة الدكان :

– إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل . .

قلت :

– هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير . .

ونظرت إلى نظرة احترت فيها ، هل هى نظرة فرحة أم نظرة ساخرة ، وقالت :

– إنك تقيم فى نفس الفندق . . أليس كذلك . . ما هو رقم غرفتك لأتصل بك . . .

وأعطيتها رقم الغرفة ، وتركتنى بعد أن لفتنى بابتسامتها . . وأحسست فعلا أنى ملفوف فى هذه الابتسامة حتى خيالى لفته معها ، وبدأت أتخيل بها كل مستقبلى . . إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية . . إنها مليونيرة أو ابنة مليونير . . وهى

فرصة لأفتح لنفسى مجتمعاً جديداً ومستقبلا جديداً . . قد أتزوجها . . لماذا لا أتزوج . . إن هذا النوع من النساء الذى كنت أتعامل معه كان ينفرنى من التفكير فى الزواج ، كان يدفعنى إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع ، ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع . . وحتى لو كان لها ماض فلا يمكن أن تكون محترفة ، والنساء فى المجتمعات المتقدمة لا يحاسبهن أحد على الماضى ولكنهن يحاسبن على المستقبل . . فلنفرض أن لها ماضياً . . لا يهم . . أتزوجها . .وبعد أن أتزوجها يصبح من حقى بحكم القانون الأمريكى أن أحصل على الجنسية الأمريكية . . أى أنى لا أتزوج هذه وحدها ولكنى أتزوج أمريكا كلها . . وأحسست بفرحة تملأ صدرى كله وأنا أتخيل نفسى وقد أصبحت أمريكياً ، وربما تلومنى على هذه الفرحة لأنى أعلم أنك متزمت فى وطنيتك ، ولكن التجنس لم يعد له اليوم علاقة بالوطنية ، أصبح أشبه بعقد عمل.. تعطيك الدولة التى تحمل جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا ، وتستطيع فى الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك الأصلى بكل عواطفك وأن تتبرع له بكل ما تريد التبرع به حتى لو تبرعت له بروحك فى قتال . . هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية . .

وكل هذا الفكر يسيطر على خواطرى وأنا جالس فى غرفتى بالفندق فى انتظار دقات جرس التليفون لأسمع صوتها . لا أستطيع القراءة طبعاً . .ولا أستطيع أن أشغل فكرى بأى شىء آخر . . إن كل فكرى مركز فى مشروعى الجديد . . والساعة وصلت التاسعة مساء وجرس التليفون لم يدق . . وبدأت ثقتى فى نفسى تهتز . . ثقتى فى وسامتى وقوة الجذب التى يفرضها دائماً وجودى . . ربما كانت هذه الفتاة أقوى من قوة جذبى . . لا يمكن أن تطلبنى بعد الساعة التاسعة . . فات الوقت الذى يمكن أن نتفق فيه على لقاء سهرة . . وخرجت من غرفتى وذهبت

إلى « بار » الفندق وأنا أتلفت حولى فى كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن تجمعنا المصادفة مرة ثانية . . ووجدت نفسى أستسلم لكؤوس الويسكى على غير ما تعودت . . سكرت وعدت إلى فراشى وألقيت نفسى عليه كأنى أصبحت جثة هامدة . .

وفى اليوم التالى ، وبعد أن تغلبت على الصداع الذى تركته فى رأسى كؤوس الويسكى ، عدت أفكر فى هذه الفتاة الأمريكية . . هل أتصل بها . . إنى أستطيع أن أعرف رقم غرفتها لو أردت . . ولكن هل أتصل بها . . لا . . إن اتصالى بها يضعفنى أمامها . . لأنتظر اليوم أيضاً . .

ونجحت بانتظارى . .

دق جرس التليفون فى الساعة السابعة مساء وقالت كأننا أصدقاء قدماء :

– أنا جوانا . . أين كنت ليلة أمس . . اتصلت بك فى الساعة العاشرة ولم أجدك . .

قلت :

– انتظرتك حتى التاسعة ثم يئست . .

قالت :

– آسفة . . تأخرت عليك . . كنت مشغولة . .

قلت :

– سأراك الليلة . . أين ؟

قالت :

– فى جناحى الخاص . . هنا ستجد كل شىء . . ونستطيع أن نتعرف أسرع . .

قلت :

– موافق . . وسعيد . .

قالت :

– ولكن . . هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجاراج . .

ولم أفهم شيئاً وقلت فى سذاجة :

– آسف . . ماذا تقولين ؟

وكررت نفس الكلام :

– هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجاراج

وعدت أقول :

– لا أفهم . . أى سائق وأى سيارة ؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت فى صوت هادئ :

– نسيت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير . . إنى أريد أن أقول لك إنى سأكلفك كثيراً . .

قلت وأنا أحاول أن أنكر ما سمعته :

– ماذا تقصدين ؟

قالت :

– الجناح الذى نلتقى فيه له ثمن . . والطلبات لها ثمن . . وأنا لى ثمن . .

وأحسست كأن زلزالا ثار فى داخلى وهدم كل خيالى وكل خواطرى وقلت والصدمة تترك فى لسانى طعم الخيبة والقرف :

– آسف . . وقد سبق أن قلت لك إنى رغم أنى عربى فإنى من دولة ليس فيها بترول . . لست غنياً . . وقد جئت إلى طوكيو مدعواً وأقيم على حساب الدعوة .

وليس فى جيبى إلا ما يكفى مصروفى الخاص . .

قالت والأسف يقطر فعلا من كلماتها :

– خسارة . . . لقد أعجبت بك فعلاً منذ رأيتك . . اسمع . . إن أقل ما أستطيع أن أقبله هو خمسمائة دولار . . هل تستطيع ؟

وقلت وأنا أكبت غيظى من خيبتى :

– أرجوك ، دعينى أفكر . .

قالت فى بساطة :

– سأنتظر منك تليفوناً حتى الساعة الثامنة . . وأنا آسفة . . ويجب أن تقدر أن الحياة مكلفة . .

وتركتنى أقاوم آثار هذا الزلزال الذى أطلقته فى صدرى . . ويبدو أن كل نصيبى فى الحياة هو هذا النوع من النساء . . يبدو أن قوة الوجود التى أدعيها لنفسى لا تؤثر إلا فى هذا النوع ، فلم تنجذب إلىّ أبداً فتاة ليست محترفة أو ليست على استعداد للاحتراف . . ولكنى لم أكن أعتقد أن هذا يمكن أن يكون نصيبى حتى مع فتاة أمريكية ألتقى بها فى طوكيو . . والحضارة الأمريكية مسيطرة سيطرة كاملة على اليابان . . كل الحياة فى اليابان تأمركت . . ولكنى لم أكن أعتقد أن الأمريكان استولوا على كل شىء حتى على أسواق الدعارة . .

وربما كانت جوانا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتى يسمونهن فى أمريكا « فتيات التليفون » وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية حتى وصلت بنفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيشا فتؤمركها هى الأخرى . .

ولكن لماذا أقاوم نصيبى فى الحياة . . لماذا أعود بنفسى إلى أيام الطفولة

الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هى مجموعة من المبادئ العامة . . الشرف . الأمانة . . الوطنية . . الحرية . . و . . و . . وأترك هذه المبادئ العامة تشعرنى بأنى أقوم بأعمال قذرة . . إن الدعارة ليست أكثر قذارة من القذارة السياسية أو القذارة الاقتصادية التى تعيشها المجتمعات الرسمية والراقية فى كل أنحاء العالم . . المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد ولا تخدع أحداً ، إنها تمارس الخطيئة وهى متحملة كل مسئولياتها حتى أمام الله ، أما السياسى الداعر أو الاقتصادى الداعر فهو يكذب حتى على الله . . يكذب ، ويؤذى . . وحتى بالنسبة لنفسى . . ما هو أشرف لى كعمل أتحمل مسئوليته . . أن أعد ليلة يقضيها أحد المسئولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحميه من امرأة أخرى قد تكون جاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدى ، أم أشترك فى عملية اقتصادية أحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبى . . إنى فى العملية الأولى يسموننى « قواداً » وفى العملية الثانية أسمى « إقتصادى » أو رجل أعمال . . أيهما أشرف لى لأكونه . . قواداً أم رجل أعمال إذن لماذا أتقزز من جوانا بعد أن أكتشفت أنها تحترف الدعارة . . لماذا لا اعتبرها مجرد سيدة أعمال وأصطادها لألقى بها طعماً فى بحر الأسرار . . لقد كنت أريد أن أعتبر نفسى فى أجازة . . لا لست فى أجازة .

والثورة على نفسى تستبد بى إلى أن رفعت سماعة التليفون واتصلت بجوانا وقلت فى لهجة جادة سريعة كأنى أصدر قراراً خاصاً بصفقة هامة :

– أعددت ما تطلبين . . متى ألقاك :

قالت كأنها تزغرد :

– رائع . . أعفيتنى من حيرة البحث عن آخر . . أنتظرك التاسعة . . .

وذهبت إليها . .

إنها هى حتى بعد أن عرفتها على حقيقتها . . الجمال الرائع المتعالى الرافع المتعفف . وكأن كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفقة تجارية شريفة لا تؤثر فى هذا التعالى والتعفف . . وأصابعها الرفيعة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يديها كأنها تعزف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذى تريده ، وكأنها رغم احترافها لا تعزف إلا اللحن الذى تريده . . والجناح الذى تقيم فيه هو نفس الجناح الذى يمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تتعمد أن تضع نفسها فى نفس المستوى وهى واثقة دائماً بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى . . إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتى سبق أن حدثتك عنهن . نفس مستوى الخطيئة الغالية . .

وأخرجت من جيبى بمجرد أن جلست مظروفاً يحمل الدولارات وقلت :

– حتى أطمئنك . .

والتقطت المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرفيعة وقالت فى تأفف متعال :

– شكراً . .

ثم ألقت المظروف على مائدة بعيدة ، وقلت :

– أرجو أن تفتحيه وتعدى ما فيه ، فقد أعطيت أكثر حتى تعطينى أكثر . .

وكنت قد وضعت فى المظروف ألف دولار بدلا من الخمسمائة التى طلبتها ، ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيداً وقالت وهى تقترب منى وجسدها العارى يبدو من خلف الثوب الشفاف كشعاع من النور :

– لا يهم ما تعطينى وما أعطيك . . الذى يهم هو إحساسك وأنت تعطى إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة ،

لأنه رسم الأولى بناء على طلب زبون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه . . كل شىء فى الحياة فن . . والفن إحساس لا يمكن أن تقدر له ثمناً . .

واستدارت تعد لى كأس الويسكى ، وقلت :

– وهل أنا زبون أم إحساس . .

قالت وهى تقدم لى الكأس ثم تجلس بعيداً على المقعد المقابل :

– أنت أعجبتنى وأثرتنى منذ رأيتك . . تركتنى أحس كأنى أريد أن أكتشف عالماً جديداً . . ولا أدرى إلى ماذا سيقودنى هذا الإحساس فى الساعات التى نعيشها الآن . . ربما اكتفيت بك كزبون تشرفت به وربما أثرتنى كإحساس يتعلق بك . .

هكذا كانت تتكلم . . فلسفة صريحة رائعة لا تعتمد على كلمات مزيفة ولا آراء عامة . . إنها تقول فى صدق كل ما تحس به فعلاً .

واستمر حديثنا طويلا وكأننا فى جلسة عائلية تضم زوجاً وزوجة فى إحدى ليالى شهر العسل ، إلى أن قالت خلال الحديث :

– هل تعرف فهمان اليارجى . .

وبهرت كأنى أقفز بصوتى من فوق مقعدى :

– هل تعرفينه ؟

قالت فى هدوء :

– عرفته بعض الوقت فى بوسطن . . إنه ذكى وكريم . .

واستعدت صورة اليارجى فى خيالى . . إن كل الناس تعرف فهمان اليارجى ، إنه أنجح رجل أعمال عربى بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالميين . . وقد بدأ نجاحه معتمداً على نفس العلم الذى أعتمد أنا عليه ، علم أو فن العلاقات العامة ، والاتصالات الشخصية . . ورغم أنى لا أعرفه شخصياً إلا أنى كنت أعتبره من

بعيد أستاذى ، وأعتبره الأمل الذى أتمنى تحقيقه ، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحياناً ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه غيرتى أو حقدى . . وربما كان يمكن بالعمليات التى أقوم بها أن أصل إلى مستواه ، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحقق مثلها حتى اليوم . . عمليات الأسلحة . . إنك لا تدرى كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح . . ربما أكثر من عشرة ملايين دولار . . إن هناك صحفياً شاباً فى إحدى البلاد العربية أستطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ما كسبته صحافة بلده – كصحافة – فى عشر سنوات . . وآه لو استطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة . . تكفينى عملية واحدة وبعدها أتوب إلى الله . .

وجوانا كانت تعرف فهمان اليارجى ، ولابد أنه استخدمها فى بعض عملياته . . أى أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة فى فن العلاقات العامة ، وفهمان اليارجى لا يمكن أن يستخدم أحداً سواء كان رجلا أو إمرأة إلا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريده منه . .

وبسرعة انقلب تفكيرى كله وانحصر فى موضوع واحد حتى أنى لم أعد أرى جسد جوانا العارى من خلف ثوبها الشفاف إنما عيناى مركزتان فوق جبينها كأنى أحاول أن أقيس ذكاءها وأحاول أن أقنع نفسى بالاطمئنان ، ثم قلت لها :

– جوانا . . لقد كذبت عليك . . فإنى لست هنا فى طوكيو بناء على دعوة . . إنى فى جولة حرة . . وأنا وزير مفوض فى السلك الدبلوماسى فى بلدى . . والأهم من ذلك إنى رجل أعمال . .

ولم تدهش جوانا وهى تسمع اسم بلدى رغم أنى كنت قد ادعيت أمامها أنى مصرى حتى لا تعتبرنى من أبناء البترول ، وكأنها كانت تعرف الحقيقة ، وقالت وكأنها تربت على خدى بابتسامتها الحلوة المترفعة :

– ولماذا كذبت ؟

وقلت ضاحكاً :

– كنت أريد أن تقعى فى حبى لا فى ثرائى . .

قالت :

– وهل الحب لا يكون إلا مع الفقر . .

قلت :

– لا . . ولكنه لا يشترى . . والرجل الغنى كالفتاة الغنية كل منهما يعانى من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله . .

قالت :

– إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة فى مستوى واحد ، فإذا كان فقيراً جمعهما الفقر ، وإذا كان مليونيراً فيجب أن يرفعها إلى مستوى المليونيرات . . هل أنت مليونير ؟

قلت :

– على وشك أن أكون . .

قالت :

– ولماذا قررت أن تصارحنى بالحقيقة . . حقيقتك ؟

قلت وأنا أنظر إليها كأنى أغريها :

– لأنى فى حاجة إليك ، وقد استطعت بسرعة أن تقنعينى بنفسك . . وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال فى حاجة إلى من تساهم معه فى مسئولياته الاجتماعية . . وأريد أن أعرض عليك أن تتفرغى لى . . أقصد للعمل معى . .

ونظرت إلىّ كأنها تحاول أن تعرفنى أكثر وقد نسيت هى الأخرى جسدها العارى

تحت ثوبها الشفاف ، وقالت :
– كيف . . كيف أتفرغ لك . . لعلك تقصد ألا أكون لرجل آخر . .
وأجبتها كأنى أنفى تهمة :
– لا . . قلت إنى أريدك أن تتفرغى لى فى العمل لا أن تتفرغى لى فى الفراش . .
وعادت تنظر إلى صامتة نظرة طويلة ثم قالت :
– موافقة . . إنها فكرة تستحق التجربة . .
قلت فرحاً :
– والتجربة تبدأ بأن تعتبرى كل تكاليف إقامتك فى طوكيو على حسابى الخاص ، أقصد على حساب مكتبى . .
قالت وهى أيضاً فرحة :
– هذا يعفينى من البحث عن أى رجل آخر . . أستطيع أن أتفرغ لك فعلاً . . فعلاً . .
قلت :
– وبعد يومين سأعود إلى مقر عملى ، وتعودين معى لتقيمى هناك . .
قالت :
– ولكنى كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو . .
قلت :
– أسافر معك . .
قالت :
– لا . . إنى مرتبطة هناك بمواعيد سبق أن حددتها قبل أن نتعارف . .
قلت :

– المهم أن أكون معك فى بلد واحد . .
قالت :
– الأفضل أن ألحق بك فى أى بلد تكون فيه . . ولن أغيب فى هونولولو أكثر من ثلاثة أيام . .
ونظرت إليها كأنى أشك فيها حائراً فى نواياها ثم قلت :
– موافق . .
وأقنعت نفسى بأنه لا يهم أن تغيب وحدها بعيداً عنى فى هونولولو فالخطة كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لى كما أنها تجربة بالنسبة لها . .
وقلت وأنا أترك مقعدى وأقترب منها وأشدها إلى صدرى وأصل بكفى إلى جسدها العارى من تحت ثوبها الشفاف :
– دعينا نوقع عقد الإتفاق . .
وأخذت شفتيها . . أول شفاه أمريكية أتذوقها . . إن الشفاه الأمريكية لها طعم مغر جذاب يتغلب على طعم الاحتراف . . وأعطتنى جوانا ليلتها أضعاف الأحاسيس التى كانت تعطيها لى مهاباى . .
إن ما تعطيه تايلاند شىء وما تعطيه أمريكا شىء آخر . .

* * *

وفى صباح اليوم التالى ونحن لا نزال فى الفراش قالت لى جوانا :
– لقد تذكرت شيئاً ربما يهمك ، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض الرجال الأمريكان وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدرى ما هى ، وكانوا يتحدثون عن مشاكل يواجهونها فى بلدك بخصوص إحدى العمليات .
قلت وأنا مازلت أتمطى :

– أى نوع من العمليات ؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذى يشتعل نشاطاً بمجرد أن يفتح عينيه :

– لا أدرى . . ولكنى أستطيع أن أدعوهم الليلة هنا على كأس شراب وأقدمهم لك ونفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول ، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ فهمان اليارجى . .

وقد تركتها فى الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ . . عقد وسوار وخاتم وحلق . . كلفتنى حوالى عشرة آلاف دولار . . كان يجب أن أجذبها بأقوى خيوط الإغراء . . وفى المساء عرفتنى فى جناحها الخاص بالذين حدثتنى عنهم من رجال الأعمال الأمريكان ، وقدمتنى إليهم كأنى أملك كل مصير بلدى . . وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنابيب ومعدات خاصة بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم ، برغم أن شركتهم معروفة عالميًا بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضاً أقل تكلفة و . . و . . إنها عملية تساوى ثلاثة ملايين دولار ، وعمولتها تصل على الأقل إلى مائتين وخمسين ألف دولار . . .

واتفقت معهم على أن أتحمل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم ، وأن يلتقوا بى بعد خمسة عشر يوماً فى مقر السفارة ، وقلت ضاحكاً كأنى ألقى مجرد نكتة :

– لقد ظلمت نفسى عندما قبلت منصب وزير مفوض ، فإن عملى فى الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإنى أعتبر أن حقى يضيع عندما لا أحصل على العمولة كاملة . .

وقالوا فوراً :

– طبعاً . . طبعاً . . هذا حقك . .

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة جرت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة لوكلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا ينالهم إلا جزء من العمولة .

وقد تفرغت لى جوانا فعلاً خلال الأيام التى قضيناها فى طوكيو ، وكنت فى كل يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليالى الجسد ، إن فى داخل رأسها ثقافة كاملة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة ، وبلغت فرحتى بها إلى حد أن أقنعت نفسى بأنى لست بالنسبة لها مجرد رجل بل إنها تحبنى ، أو على الأقل تميزنى عن باقى الرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيهم . . ولم يكن يبدو عليها أبداً افتعال أى شىء . . إنها حتى وهى تحدثنى فى مجالات العمل لا تتباهى بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلقى على درساً بل تبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأياً عادياً ، ثم وهى تعطينى . . إنها لا تفتعل . . إنى لا أحس بها أبدا كامرأة مأجورة ، كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبى . . ولكن البساطة التى تعطى بها هى التى تجعلنى أحس بأنها تريدنى كما أريدها . . إلى أن سافرت إلى هونولولو فى هذه الرحلة الغامضة التى فضلت أن تقوم بها وحدها . . ربما خطر على بالك أنها قد تكون جاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية «لا يهم» فإنى لا أملك من أسرار بلدى السياسية أو الإقتصادية أكثر مما يملكه أى شخص فى الشارع ولا أكثر مما ينشر فى الصحف . . لا يمكن أن يكون لبلد مثل بلدى أسرار ، إن الأسلوب الذى نتعامل به لا يترك مجالاً للأسرار . . لا أسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية . . أسرار الفراش .

لذلك ، فإنى لست مستعداً أن أتخلى عن جوانا حتى لو كانت جاسوسة . .

وقد تركت طوكيو وعدت إلى السفارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة فى أفخر أحياء البلد لتقيم فيها جوانا عندما تصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة فى تحمل تكاليف إستئجار هذه الشقة . . وقد تلوى شفتيك إمتعاضاً وأنت تسمع منى أنى أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة . . يا أستاذى العزيز إن ميزانية العلاقات العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب ، وهذا فى كل بلاد العالم حتى عندكم . . قد يأتى إليكم زائر أجنبى صغير . . وكيل وزارة مثلا . . وتضطر الحكومة أن تقيم له حفل عشاء ، فمن تدعو إلى هذا الحفل ؟ إنها تدعو على الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهمهم شىء من زيارته ، ولا يجد فيهم الضيف نفسه شيئاً يهمه ، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة وأنواع الأطعمة والمشروبات التى تقدم لهم مجاناً ، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة من أجل لا شىء عملى سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتنشر فى الصحف وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين . . إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات الرسمية والشعبية التى تعد لرؤساء الدول . . المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى فى تصرفات الفرد بالنسبة لنفسه « إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة جنيهات فى حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله فى مطعم آخر ويكلفه خمسين قرشاً . . المظاهر لها ثمن . . وميزانية العلاقات العامة هى كلها ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المفتعل . . إنك لو ذهبت فى زيارة رسمية إلى اليابان فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا وسينتهز عشرة على الأقل من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا

البيت . . ليست الحكومات فقط . . حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات واسعة لهذه المظاهر ، وأنا لا آخذ شيئاً من مشروعات هامة تخص بلدى ولكنى آخذ من ميزانية المظاهر لأنفقه فيما أعتقد أنها مظاهر هامة . .

وجاءت جوانا . .

واتفقنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتمد إقامتها بحكم أن البلد أعجبها . . وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هى عملية مشروع معدات آبار البترول ، واستطعت بسرعة أن أغرى المسئول فى بلدى عن هذه العملية إلى زيارتنا زيارة رسمية ، وفى خلال ليالى الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة الثرية التى التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة . . وأنت قد لا تدرى مدى الإنبهار الذى يصيب مسئولاً عربياً عندما يجد نفسه مع إمرأة أمريكية جميلة ويخيل إليه أنه يستطيع أن يصل إليها فى الفراش . . إنه يحس كأنه يحاول أن ينتصر على أمريكا . . كأنه يهتك عرض العلم الأمريكى . . كأنه اعتدى على شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . . إنه الإحساس الشرقى القديم الذى يعطى جسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها . . كأن فى هذا الجسد يتجمع كل كيان الأمة . . وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولى على جسد امرأة من بلد آخر . .

وربما كانت جوانا قد درست هذا الإحساس للرجل العربى . . أو الرجل الذى ينتمى . . لدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة ، فقد ظلت تبخل عليه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعاً . . وعندما أعطته كنت أنا قد حصلت على موافقته على مشروع معدات الآبار . . إن الشركات كما تعرف تعطى للمسئولين دائماً عمولات – أو سمها رشاوى – فى شكل هدايا ثمينة غالية قد تشمل فصوصاً من الماس ، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع

آخر . . أعطيته جسد جوانا . .

وتسلمت فعلاً عمولة الصفقة . . أى أخذت مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار . . واشتريت لجوانا خاتم سولتير ، فصا واحداً من الماس حجمه ثلاثة قراريط كلفنى عشرين ألف دولار ، وتعمدت ألا أعطيها هديتها نقداً بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معى فى الصفقة وتعود أن تطالبنى بنصيب محدد . .

والدنيا تتفتح أمامى ومعى جوانا . . والجديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إلىَ وبدأت أكتسب صداقتها ، وكنت أجتمع بهم فى شقة جوانا كأنهم أصدقاؤها لا أصدقائى حتى لا أكشف نفسى أمام السفير . . زوجة السفير وحدها . . السيدة التى أقدرها وأحترمها هى التى تعرف كل شىء . . إنها تعرف حتى قصة موظف السفارة الأمريكية الذى كنا نعتبره موظفاً صغيراً إلى أن كشف لى عن حقيقته عندما اجتمعت به فى ليلة من ليالى جوانا . . واعذرنى . . لن أحكى لك هذه القصة . .

المهم . .

إلى الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح . .

وأعتقد أنه يجب أن أستقيل من وظيفتى حتى أستطيع أن أتفرغ وتكون لى حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح . . ولو استطعت فربما استطعت وخصوصاً وأنا معتمد على أصدقائى الأمريكان أن أكون وزيراً أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحى ، ولكنى أفضل أن أصل إلى صفقة سلاح . .

إذا وصلت فسأكتب لك مرة أخرى . .

البحث عن الطريق الآخر

مقدمة القصة :

عندما يكون الأب رئيساً . . هل يظلم ابناءه أو يظلمه أبناؤه ؟

هذه القصة خطرت لى عندما كنت منذ شهور فى زيارة الهند . . فوجئت هناك بحملة عنيفه ضد سنجاى غاندى ابن السيدة أنديرا غاندى رئيسة الوزراء . . وكان سنجاى متهماً بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه فى تحقيق مصالح خاصة ،منها إنشاء مصنع للسيارات ، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسى الهندى بدليل ، أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب . . وقد كتبت أيامها فى جريدة « الأهرام » تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثاً جرى مع سنجاى يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس فى حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها فى كثير من آرائها ، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأى واحد من أبناء الشعب بدليل أنه له أخ هو ابن أنديرا غاندى أيضاً ولكنه مبتعد ابتعاداً كاملاً عن المجتمع السياسى الهندى . . .ورغم هذا فقد قيل إن سبب سقوط أنديرا غاندى وحزب المؤتمر فى الانتخابات هو تصرفات ابنها سنجاى وإنه هو الذى دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التى أدت إلى سقوطها . .

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة فى كل بلد من بلاد العالم ، وقد كان طونى فرنجية ابن الرئيس اللبنانى السابق سليمان فرنجيه

متهماً بأنه يحكم لبنان باسم ابنه ، وأنه هو – لا أبيه – سبب كل ما حدث للبنان . . كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد أعلن بعد انتخابه أنه سيستعين باثنين من أولاده فى تحمل مسئوليات البيت الأبيض ، فثارت ضده حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق النكات ، ظل كارتر بعدها مستمراً فى الاستعانه بأولاده فى تحمل مسئولية الحكم . .

وفى مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعى عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهماً بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس ، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصديق سيد مرعى وقلت له :

– على قدر فرحتى بخطبة حسن إلى نهى فإنى أشفق عليك من هذا الزواج . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعى فإنى أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب ، ولكنى كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسرى مع رئيس الدولة سيثير حوله متاعب كان فى غنى عنها ، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب . . وهو ما حدث فعلاً . .

وحتى فى المستوى العادى لا مستوى الحكام ، فإن رياسة الأب لأى عمل تجعله محرجاً مع أولاده بالنسبة لهذا العمل . . فأى رئيس مؤسسة يرفض غالباً أن يعين أبناءه فى نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستثناء ابنه عن باقى المتقدمين إلى العمل ، فإذا عين الرئيس ابنه فعلاً فإنه يصبح فى حرج كلما استحق هذا الأبن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما ، حتى قيل إن بعض رؤساء المؤسسات فى مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبناء

الآخر حتى لا يتهم باستثنائهم أو بمحاباتهم . .

وقد تعرضت أنا شخصياً لهذا الوضع المتعب ، فإنى ابن صاحبة المجلة التى بدأت العمل بها . . ابن السيدة روزاليوسف . . ومضت فترة كنت لا أعرف فيها بين الناس إلا بأنى ابن روزاليوسف وكان كل مجهود صحفى أبذله ينسب إلى أمى . . وكانت مشكلتى الرئيسية هى أن أثبت لنفسى شخصية قائمة بذاتها بعيداً عن شخصية أمى . . وكنت أتعمد أن أترك مجلة روزاليوسف وأعمل فى صحف أخرى ، رغم حاجة العمل إلىّ ، لمجرد أن أحرر نفسى من اسم أمى ، وفى الوقت نفسه كانت أمى تعاملنى بحزم لا تعامل به بقية المحررين وتحدد لى دائماً أقل أجر حتى لا يعرف عنها أنها تحابينى أو تستثنينى من بين بقية الزملاء لمجرد أنى ابنها . . وهكذا ظلمت أمى وظلمتنى أمى . .

وبعد ذلك أصبحت أنا أباً لابن يصر على أن يكون صحفياً . . وقد كنت أتمنى ألا يكون صحفياً فأى أب يخيل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذى يجلب المتاعب والمخاطر ويتمنى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل . . ولكن ابنى محمداً أصر على أن يكون صحفياً ، فأصررت على ألا يعمل فى أى جريدة أعمل بها وخصوصاً إذا كنت أتولى فيها منصباً رئيسياً سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس إدارة . . وجاءت فترة كنت أنا أعمل فى مؤسسة أخبار اليوم وابنى محمد يعمل فى مؤسسة الأهرام ، إلى أن جاءنى يوماً وقال لى إنهم فى الأهرام يعاملونه ويحذرونه كأنه جاسوس لى . . فاضطررت أن أسمح له بأن يعمل معى فى أخبار اليوم ، وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمح له بالاتصال بى فى كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أى إجراء به إلا إذا وافق سعيد سنبل . .

أتعبت ابنى وأتعبنى . . ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم فى عمله بأخبار اليوم إلا بعد أن تركتها أنا . .

إنه موضوع طويل سبق أن كتبت فيه كثيراً وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية ، هل هم مظلومون بآبائهم أو أنهم يظلمون أباءهم ؟

وهذه القصة من وحى هذا الموضوع . .

إحسان . .

١

إننا فى عز النهار . . الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً . . والشوارع كلها مزدحمة كالعادة بما فيها الشوارع الجانبية ، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة فى انتظار أصحابها . . وكان يسير فى شارع رشيد بمصر الجديدة ، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة ، ولم يتلفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف ، ومد يده يحاول أن يفتح باب السيارة وعندما وجده مغلقاً بالمفتاح . أخرج من جيبه لفافة من المشمع الطبى الذى تلصق به الضمادات ، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الجانبية للسيارة ، ثم أخرج من جيبه « أجنة » حديدية صغيرة مما تستعمل فى فك وربط الصواميل ، وضرب بها اللوح الزجاجى الصغير ضربة قوية فتحطم دون صوت ودون أن يتناثر الزجاج فى الشارع ملتصقاً بقطعة المشمع ، ومد يده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفز جالساً أمام عجلة القيادة . وانحنى ومد يده خلف لائحة العدادات . والتقط سلك البطارية وسلك « الكونتاكت » وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاتة المفضض وجمع به السلكين فدار موتور السيارة فوراً . . كان يتصرف بسرعة وخفة كأى لص محترف من لصوص السيارات . .

وتنبه بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحاً :

– بتعمل إيه يا جدع انت ؟ .

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصيح :

– حرامى . . حرامى ! !

وكان فى الشارع سائق تاكسى تطوع وجرى بسيارته يلاحق السيارة المسروقة وهو الآخر يصيح :

– حرامى . . حرامى ! !

وتطوعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص ، وكان الخبر قد أبلغ للبويس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصرى من أجهزة . .

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه فى استعراض لسباق السيارات ، ولم تستطع أى سيارة أخرى أن تلحق به ، بل إنـه من كثرة مفاجآته فى اللف والدوران تسبب فى تصادم سيارتين من السيارات التى تتبعه تماماً كما يحدث فى أفلام السينما الأمريكية . .

وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطاردين أن اللص بدأ يهدئ من سرعـة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادهم إلى الشارع الذى يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة ، وعندما وصل إلى باب المركز كاد يتوقف بالسيارة ، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تماماً ، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه ، وربما هم بعضهم بأن يعتدى عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسيماً هادئاً يبتسم لهم فترددت الأيدى التى كانت تهم بالضرب ، وبدأوا يكتفون بالصراخ من حوله ، وامتدت يد الباشاويش وقبضت عليه من كتفه ثم شدته فى عنف خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز

البوليس ، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة . .

وأمام ضابط البوليس رفع الباشاويش يده بالتحيـة وهو يدق بقدمه على الأرض كأنه يطلق زغرودة الفرح وصاح :

– قبضنا عليه يا أفندم . . لص سيارة شارع رشيد ! !

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقه فى تكاسل وملل ، ولكنه ما كاد يلتقى بوجه اللص حتى انتبهت كل خلجات وجهه وأخذ يطيل النظر إليه كأنه لا يصدق عينيه ، ثم التفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح :

– لا أريد أن أرى أحداً هنا . . يا شاويش . . خذهم لينتظروا فى الخارج . .

ودفع الشاويش بكل من فى الغرفة إلى الخارج ، ولم يبق إلا الباشجاويش وهو لا يزال قابضاً بيده على كتف اللص ، وقال الضابط :

– انتظرنى أنت أيضاً فى الخارج يابا شجاويش . . أتركه لى . .

وتردد الباشاويش برهـة ثم رفع يده بالتحية بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حضرة الضابط . .

ونظر الضابط فى رفق إلى اللص وقال فى صوت خفيض :

– اسمك ؟

وقال اللص وهو يتململ كأنه لا يريد أن يبقى وحيدا مع حضرة الضابط :

– أشرف . .

وابتسم الضابط وعاد يقول :

– وبقية الاسم ؟ . قل . . إنى أعرفك ! !

وقال اللص فى زهق :

– أشرف عبد الصبور . .

وقال الضابط مبتسماً :
– تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور . .
وقال اللص فى حدة :
– إن من حقى أن أحدد اسمى . . هذا أقل حق لى حتى لو كنت لصاً . . واسمى أشرف عبد الصبور ! !
وقال الضابط وهو لا يزال يبتسم :
– لا يهم . . طبعاً أنت لم تسرق السيارة ؟ !
وصرخ المتهم :
– طبعاً سرقتها . . ما هى السرقة إذا لم تكن هذه سرقة ؟. إنى أعترف بأنى سرقت . . لا تحاول أن تزور اعترافى . .
ونظر الضابط إليه فى دهشة وقال :
– يا أشرف أرجوك أن تهدأ ، كل شىء يمكن إصلاحه . .
وصرخ أشرف :
– لا أريد إصلاح شىء . . أريد أن يكون نصيبى هو نصيب غيرى . . القانون . .
وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة جديدة وكأنه ينظر إلى مجنون ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ منادياً الباشاويش وقال بمجرد أن دخل إليه :
– إبق معه إلى أن أعود . .
ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقدمه التى يدق بها على الأرض . . وخرج الضابط مسرعاً ودخل إلى مكتب مأمور المركز . . وبعد لحظات عاد

والمأمور يهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال فى حسرة مفتعلة :
– لماذا يا ابنى . . لماذا لا ترحموا آباءكم من « بلاويكم » ؟
وصرخ أشرف :
– أنا سرقت . . افتح المحضر واستدع الشهود . .
وقال المأمور فى لهجة خطيب الجمعة :
– ولأنك سرقت لا يهمك أن تضيع البلد
وقبل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات تليفونية وبعد مدة نادى الضابط ليأتى إليه فى مكتبه ومعه أشرف ، وقال وهو يبتسم لأشرف ابتسامة يتوسل بها إليه حتى لا يتعبه :
– انتهينا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن . . تستطيع الآن أن تعود إلى البيت . .
وصرخ أشرف :
– لن أخرج من هنا إلا بأمر النيابة . .
وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستغيث :
– لا داعى للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن دعواه وهو راض عما فعلته . .
وقال أشرف ساخراً :
– طبعاً نظير رشوة ؟ .
وقال المأمور :
– لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعاً من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذى

حدث لسيارته ، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب . .

وقال أشرف محتداً :

– تقصد شقاوة عيال . . لا يهم اعتبرنى كما تريد أن تعتبرنى – ولكنك لا تستطيع أن تفرج عنى حتى لو تنازل صاحب السيارة . . إنها جريمة . . وصاحب السيارة ليس إلا مدعياً بالحق المدنى إنما الخصم هو المجتمع ، والذى يعبر عن المجتمع هو القانون والذى يطبق القانون هو النيابة . . ولن أخرج من هنا إلى بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأت النيابة بعدها أن تطلق سراحى . .

وقال المأمور فى (قرف) .

– إنى أرحب بك فى ضيافتى وتستطيع أن تبقى هنا كما تريد .

ومال المأمور وهمس فى أذن الضابط وخرج الضابط من الغرفة مسرعاً ، ثم مال المأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذى لا يزال جالساً أمامه قد انتهى ، وقال أشرف فى حنق :

– إنك تخل بمسئولياتك . . البوليس يجب أن يكون متحرراً من مراكز القوى . .

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلقى عليه درساً .

– إن مسئوليتى هى منع وقوع الجريمة . .

وقال أشرف :

– الجريمة وقعت والسيارة سرقت . .

وقال المأمور :

– ليست هذه هى الجريمة التى كنت تقصدها . . الجريمة الأخرى لم تقع

بعد . . وأرجوك ، إجلس صامتاً فإن أمامى عملاً كثيراً . .

وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور فى غيظ :

– ضعنى فى زنزانة ! !

– إن أى مكان هنا يمكن اعتباره زنزانة بما فيه مكتبى . . وأرجوك . . دعنى لعملى . .

وسكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس . .

والمأمور يدعى أنه غارق فى مراجعة أوراقه بينما يتسلل بعينيه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة ، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس فى أذن المأمور ، وانتفض المأمور واقفاً وهو يقول لأشرف :

– يا أستاذ أشرف . . إن والدتك تنتظرك فى الخارج . . وأرى أنك توافقنى على أن تذهب إليها بدلاً من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس . .

وقام أشرف وقال وهو يزم شفتيه فى (قرف) :

– سأذهب إليها . .

وخرج من الغرفة دون أن يحيى المأمور أو الضابط ، والمأمور يجرى وراءه إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التى تنتظره وانحنى إنحناءة كبيرة تحية لأمه . .

وانطلقت السيارة الفخمة وهو جالس بجانب أمه ، وهمت الأم بأن تتكلم ولكن أشرف قال وهو غارق فى الانهيار :

– دعينى الآن يا ماما . .

ثم أمسك بيدها وقبلها واحتفظ بها فى يده ودموعه تكاد تطفر من عينيه كأنه يهم بأن يبكى نفسه . .

فطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة . . معاناة الابن الذى ولد لأب

ناجح مشهور ويضيع هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة . . ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يرفعون له أيديهم « تعظيم سلام » إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا « التعظيم سلام » ليس تعظيماً له إنما هو تعظيم لوالده . . هو وحده لا يستحق أى تعظيم . . ومنذ دخل المدارس وهو منتبه إلى أنه يعامل معاملة خاصة تختلف عن معاملة زملائه الطلبة . . وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبه بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة وينصحه نصائح تافهة ، ثم يقول له « تحياتى للسيد الوالد إنه رجل عظيم » . . وكان يعلم أن كل ما يريده الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده ، لا شىء آخر ، ولولا والده لما استدعاه أبداً ولا عرف بوجوده . . والمدرسون أيضاً إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده . . ويحس أنهم يجاملونه فى الدرجات ، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة فى كل مناسبة تافهة « ياسلام . . إنك سترث والدك فى عبقريته » أو كلاما آخر فى هذا المعنى . . وحتى الطلبة . . إنهم يضعونه فى ركن بعيد عنهم ، ويعيشون معــه كأنه ليس منهم ، وعنــدما يجتمع بهم يلتفــون حــوله كأنهم يتفرجون عليه ، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع فى الراديو . .

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتعقد داخل نفسه ، وبدأ يحاول أن يثور عليها . . أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه . . يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها . . يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف ، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . ومنذ أن كان صغيراً وهو يتعمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه بـ « تعظيم سلام » ، بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح فى واحد منهم :

— عندما ترى أبى ارفع يدك بالسلام . . هذا السلام ليس مخصصاً لى . . إياك أن ترفع يدك بالتحية لى . . فاهم ؟ .

وأجاب الشاويش وهو يبتسم فى تملق :

— يا سلام يا أشرف بيه . . إنك تستحق ألف سلام . . إنك سيدنا وابن سيدنا . .

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ « تعظيم سلام » . .

ودفعته العقدة التى يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ . . كان يجلس بينهم فى ركن بعيد وهو صامت بينما هم يتضاحكون ويهرجون ويلعبون ، ثم فجأة يقوم من بينهم بعمل شاذ لا ينتظرونه . . كأن يرقص رقصاً بلدياً وهو يصيح فيهم فى لهجة أولاد البلد :

— (سقف) انت وهو . . باللا ياجدعان .

ويصفقون وهم ينظرون إليه فى دهشة ، ويشعر أنهم يستثقلون دمه فيتوقف عن الرقص فجأة — كما بدأه فجأة ويخرج من بينهم مبتعداً وهو صامت . . تائه مع نفسه كما أنهم تائهون فيه .

وفى مرة كان جالساً بينهم وهم يلعنون أحدهم الآخر باسم الأب . . وهو منذ وعى وهو يسمع زملاءه يتلاعنون باسم الأب والأم كنوع من أحاديث المداعبة ورفع الكلفة ، ما عدا هو . . هو وحده الذى لم يلعن أحد من زملائه أباه . . حتى ولا من باب الخطأ . . وكأن أباه شخصية مقدسة ليس من حق أحد أن يلعنها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعاً للمزاح . . فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يغريهم برفع الكلفة بينهم وبينه :

— وأنا كمان يلعن أبويا . .

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة ، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهز الفرصة وصرخ فى وجه أشرف لا عنا أباه .

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشتائم على أبِ أشرف ، وهو يحاول أن يضحك معهم ويرد على شتائمهم وهو يحس أنه لا يستطيع أن يحتفظ بضحكته لا يستطيع أن يحتمل مزيداً من اللعنات التى تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح . . إنه يحب أباه ، ويقدره ، ويغار عليه ، ر حتى على صورته العامة التى تتمثل فى احترام الناس له ورهبتهم منه . . برغم كل ما يعانيه أشرف من عقد فى مواجهة أبيه فهو يحبه ويغار عليه حتى لو ثار ضده . . وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتائم ، ويسحب ضحكته ، وبدأ يسير مبتعداً عنهم ، وهو يسمع أحدهم يقول :

– حانروح فى داهية . .

ويقول الآخر :

– أنت اللى ابتديت :

ويقول الثالث :

– دى فيها رفت . .

ويقول الرابع :

– استعدوا يا اولاد . . كلنا حاندخل السجن . .

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أباه قد استرد مكانته بين الطلبة ، ولكن العقدة التى يعانيها عادت تتغلب عليه . . لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذى يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات . . وما ذنبه هو حتى يوضع

فى ركن اجتماعى لا يختاره بنفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه . . وقد حاول أن يخرج بعيداً عن هذا الركن فسعى إلى أن يصادق طالباً كان يعلم أنه ينتمى إلى أدنى الطبقات الشعبية ، ويقيم فى حى الباطنية وراء جامع الأزهر ، وأبوه صاحب دكان سجائر صغير ، ووصل بإلحاحه فى صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب ليزوره فى بيته داخل حارة الطناش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التى جاء بها فى ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعيم شعبى ، فكل أهل الحارة جاءوا يتفرجون عليه ويصافحونه ، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على دكاكين الحى وهو يقدمه متفاخراً :

– ابننا أشرف بيه . . ابن سيادة إسماعيل عبد الصبور . . صاحب ابنى فى المدرسة . . أمال ابن أكابر . .

وبدأ يحس أن أباه يلاحقه حتى فى أصغر حارة فى القاهرة ، بل أحس أنه يزداد تعقيداً وهو بين أبناء الطبقة الشعبية . . يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها . . مسئولية تمثيل والده . . علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غالياً كلما زاره ، فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم . . إلى أن مال عليه والد صديقه يوماً وقال كأنه يهمس فى أذنه :

– عايزك فى خدمة ياسى أشرف . . أصل مأمور الحتة تاعبنا وما حدش عارف يلمه . . يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقفه عند حده . .

ومضى والد الصديق يروى قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور برغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيراً مما يسمعه . . كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلا بوالده حتى وهو بعيد فى حارة طناش بحى الباطنية . .

وقال لوالد صديقه :

– حاضر . .

ولم يبلغ والده بشىء لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق . .

وظل يحاول إثبات شخصيته بعيداً عن أبيه . . حتى أنه وهو فى هذه السن . . سن الثالثة عشرة . . أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه « ولد شقى » ولا يقل عنهم تطاولاً على المدرسين ، فاتفق معهم على أن يربط حبلاً رفيعاً فى مقعد مدرس اللغة العربية . حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض . .

وقام المدرس صارخاً يكيل الشتائم للتلاميذ ويصيح :

– من هو ابن الـ . . . . الذى دبره هذه الجريمة ؟ ! !

وقام أشرف وهو ممسك بطرف الخيط فى يده :

– أنا يا أستاذ . .

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف فى حيرة وتردد :

– معقول يا أشرف . . لا بد أنهم سلطوك وضحكوا عليك . .

وحاول أشرف أن يثبت أنه المسئول ، وأن ينال عقاباً ، ولكن لا أحد يريد أن يستسلم لاعترافه . . وأمر الناظر بإجراء تحقيق ، ونام التحقيق .

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام فى حمايته ، وحاولوا أن يحرضوه على مؤامرات طلابية أخرى ، ولكنه كان يرفض ، لأنه اكتشف أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيده خضوعاً لها ، وتزيد شخصيته الخاصة ضياعا . . لو أنه كان قد عوقب كأى تلميذ عادى فربما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . فلا أمل . .

ويكبر والعقدة تتضخم فى صدره ، وتلف أعصابه ، وتسيطر على عقله ، ويحس دائماً بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذى أخذ منه كل شىء يمكن أن يكون ملكاً خاصاً له . . حتى عندما أحب . . وكان قد التقى بعفاف وهو فى الخامسة عشرة من عمره . . التقى بها صدفة بعيداً عن عائلته وعائلتها . . وهى تعرف أنه ابن إسماعيل عبد الصبور ، وهو يعلم أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير بدرجة مدير عام . . ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر . . إنه يستطيع أن يحادثها بالتليفون كلما أراد ، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد ، بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة ، واحتج بأنه تعب ويفكر فى الانتحار ، وقالت له عفاف فى التليفون :

– انتظر حتى أسأل ماما . .

ووافقت ماما على أن تخرج عفاف للقائه فى الليل . وهو دهش . . كيف توافق أى أم على أن تترك ابنتها التى لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائى ليلا . . هل هى عائلة من هذا النوع ؟ . وقد حرص على أن لا يدعوها لبيته أو يقدمها لأمه . . إنه يريد أن يبتعد بها عن مظهر عائلته . . عن أبيه . . يريد أن يكون بالنسبة لها شخصية قائمة بذاتها . . ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها ، وتدعوه إلى زيارتها فى البيت ، وتغريه قائلة :

– إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء . .

وكان عندما يطلبها بالتليفون ترد عليه الأم أحياناً فى ترحاب شديد :

– من . . ؟ أشرف ؟ أهلاً يابنى . . دقيقة واحدة لأدعو لك عفاف . .

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير . . هل يطمعون فى زواجه من عفاف . . ولكنه لا يزال فى الخامسة عشرة ، ولم يصل إلى التوجيهية بعد . . لم يحن الوقت

لمجرد التفكير فى الزواج . . وبرغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم لإلحاح عفاف وذهب إلى لقاء عائلتها كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه وبينها يجب أن يبقيه بعيداً عن عائلتها . . فكيف يواجه أباها أو أخاها ؟ ! !

وذهب . .

واستقبلوه بترحاب كبير وفى شبه وليمة رسمية ، وأخذوا يدعون الجيران ليتفرجوا عليه ويتعرفوا به . . نفس ما حدث له مع صديقه فى حارة الطناش بحى الباطنية . . واحتمل . . ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد وأكثر . . إلى أن كان هناك يوم استدعاه فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة حنانه وحبه له :

– إنى لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم . . ربما لم تأت المناسبة بعد . . ولكنى أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه . . لذلك أعددت مذكرة . . أقصد خطاباً . . أعتقد أنه يجب أن يصل إليه . . والواقع أنى أستحق درجة وكيل وزارة منذ سنتين ولكن ما يجرى فى الوزارة مما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب فى أنهم تخطونى . .

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروى تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن أشرف وهو فى الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعى شيئاً مما يسمعه . . وقال أشرف :

– حاضر .

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه ، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم الخروج كان يمزق فيها . . إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل

عبد الصبور . . وهذه العائلة تحتفى به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . الذى يستطيع أن يمنح الترقية إلى درجة وكيل وزارة . . وربما كانت عفاف لا تحب فيه إلا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . ومضت فترة كان أشرف يكذب فيها ويدعى أنه سلم المذكرة إلى أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى الكذب . . فبدأ يبتعد ويهرب من عفاف ، إلى أن شطبها من حياته ، وأقنع نفسه أنه لم يجن عليها فهى لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصبور . .

والعقده التى يعانيها تشتد به وتزيده ضياعاً . . إنه لا يستطيع أن يساهم فى أى نشاط سياسى ، فشبح أبيه يسيطر على كل تحرك له . . لو اشترك فى حركة تؤيد سياسة أبيه فهو منافق لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال رأياً معارضاً لرأى أبيه فإن المعارضة ترحب به لا لأنه رأى له قيمته ولكن لأنه رأى لابن إسماعيل عبد الصبور ويمكن استغلال الابن عند أبيه . . بل إنه كتب يوماً مقالاً سياسياً وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود إلى البيت ويلتقى بأبيه حتى قال له فى لهجته الهادئة العاقلة :

– دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف . . إن ما تكتبه سينسبه الناس إلىّ . . فإذا صممت فلنتفق أولاً على ما ينشر وما لا ينشر . .

إن أباه على حق . . هذه هى الحقيقة . . كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه . . ولكن الحقيقة التى لا يريد أن يعترف بها أبوه هى أنه ضحية . . شهيد . . ما ذنبه حتى لا يكون من حقه رأى خاص به . .

وقد حاول بعد ذلك كثيراً أن يتفوق فى شىء ينسب إليه وحده . .

حاول أن يتفوق فى الرياضة . . لعب التنس . . والشيش . . وأيضاً المصارعة والملاكمة . . لكنه لم يستطع أن يتفوق فى شىء . . وكانوا ينظرون إليه

وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلى . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وحاول أن يتفوق فى دراسته . . وقد تفوق فعلاً ولكن تفوقه ضاع فى زحمة الإشاعات التى تثور حوله بعد كل امتحان . . إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان . . ويقولون إنه يضع إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى . . وعندما التحق أخيراً بكلية الهندسة قيل إنه استثنى من شرط المجموع . .

وهو دائماً . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .

أشرف وحده لا يساوى شيئاً . .

إلى أن أدت به عقدته إلى التفكير فى ارتكاب جريمة . . سرقة سيارة . . ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه . .

• • •

وقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت ، وفتح السائق الباب ، وضغطت أمه على يده وقالت فى توسل :

– أشرف . . من أجل خاطرى . . تحمل أباك . .

وهز رأسه يطمئنها فى صمت ، ودخل البيت وراءها ، ولم يتجه إلى غرفته هرباً من لقاء أبيه ، ولكنه اتجه إلى الغرفة التى يعتقد أن أباه ينتظره فيها . . ووقف أمامه صامتاً وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادماً على ما فعل ولا خجلا . . وأبوه ينظر إليه فى حسرة . . ليست نظرة ثورة على هذا الإبن ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطفى كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض . . وقال إسماعيل عبد الصبور فى لهجة اليائس :

– ما هذا الذى فعلته يا ابنى ؟

قال أشرف فى جمود :

– سرقت . .

قال الأب فى تأفف :

– وهل كنت فى حاجة إلى السرقة ؟

قال أشرف ولهجته لا تخلو من السخرية ؟ :

– طبعاً لا . . ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شىء حتى يسرق . . إشارة واحدة من أصبعى تجعل سيارات الدولة تحت أمرى . . ولكنى سرقت لإجراء تجربة اجتماعية . . كنت أريد أن أكتشف هل أنا بنى آدم أم أنى مخلوق من نوع آخر . . نوع من الملائكة أو من الشياطين . .

وزم عبد الصبور شفتيه امتعاضاً ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين بالصبر وقال :

– وماذا اكتشفت ؟

قال أشرف وابتسامته الساخرة تتسع :

– طبعاً لا يمكن أن أكون مجرد بنى آدم . . أنا ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن البنى آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن . . أما النوع الآخر من المخلوقات الذى أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس يصطفون قرة قول شرف تحية له ، والنيابة تنحنى إحتراماً ، والحكام تعتبر نفسها فى عطلة رسمية كأنها فى يوم عيد وطنى . .

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحاً :

– اسمع يا ابنى و . . .

وصرخ أشرف مقاطعاً :

– إسمع أنت يا بابا . . إذا لم تحقق معى النيابة فى الجريمة التى ارتكبتها فلن أسكت . . ولن يهمنى شىء . . سأخرج فى الشوارع وأصرخ حتى يعرف الناس أن ابن عبد الصبور لص أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنوناً . .

وارتفع صوت عبد الصبور محتداً :

– اسكت يا ولد . . إن أقل حق لأبيك عليك هو أن تستمع إليه . . وإذا كنت تعتقد أنى أحميك حماية لسمعتى ولصالحى فأنت جاهل . . أحمق . . ومما يعذبنى أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزداد جهلاً . . إن مصالحى كانت تفرض على العكس . . تفرض على أن أقدمك للنيابة وأن أوصى بتشديد العقوبة عليك حتى أخلص ذمتى أمام الناس الذين يثقون بى ، وحتى أثبت لهؤلاء الناس أنى فى سبيل العدالة أضحى حتى بابنى . .

واهتزت جفون أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئاً جديداً كان غائباً عنه ، واستطرد الوالد قائلا :

– إن القبض عليك كان يشرفنى كرجل مسئول . ولو كنت متأكداً من أنك فعلاً قد وصلت إلى حد الإجرام ، لما ترددت . . ولكنى واثق أنك لست مجرماً ولن تكون ، ولكنك تعانى حالة نفسية أعرفها و . .

وقاطعه أشرف كأنه يقاوم اقتناعه بمنطق أبيه :

– طبعاً أنت تعرف كل شىء . . أنت خبير فى الاقتصاد . وفى السياسة وفى القانون ، وفى الدين . . وأنت الآن خبير فى علم النفس أيضاً . .

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعذر ابنه فى كل ما يقول :

– فعلاً أنا خبير فى علم النفس وإلا لما نجحت . . وأنت تعانى عقدة . . عقدتك هى أنا . . وهى ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعى للأبناء

إلى أبعد مما وصل إليه الآباء . . وقد كنت معقداً من أبى لأنه كان فقيراً لم يستطع أن يتقدم بنفسه وهى عقدة دفعتنى إلى أن أعمل أضعاف ما كان مقدراً لى أن أعمل وأن أكتشف بنفسى طريقاً لم يكتشفه أبى . . ومنذ وصلت إلى العشرين والناس تتحدث عنى دون أن تنسبنى إلى أبى ، بل إن أبى كان ولا يزال ينسب إلى . . لم أكن أوصف بأنى ابن فلان بل كان أبى يوصف بأنه أبو فلان . . وأنت . . إن عقدتك عكسية . . لقد ولدت لتجد أباك قد حقق شيئاً كبيراً ، وكان يمكن أن تكتفى بما حققه أبوك وتعيش راضياً فخوراً به ، ولكنك ورثت عنى الطموح الشخصى فحاولت منذ صغرك أن تخلق شيئاً مميزاً ينسب إليك وحدك . . وكان هذا يسعدنى . . أنا أيضاً أريدك أن تنجح فى شىء ليس لى فضل فيه . . إن المزارع الناجح يتمنى أن يكون ابنه طبيبا ناجحاً حتى لا يكون له فضل فى نجاحه فيحس أنه أنجب شخصية كاملة تستطيع أن تخلق نفسها بنفسها . . وكذلك أنا . . إنى أتمنى أن تكتشف لنفسك طريقاً غير طريقى . . أحياناً أتخيل أنك عالم فى الذرة . . ولكن عقدتك كانت أقوى منك فلم تستطع أن تتحمل الوقت الطويل الذى يتطلبه بناء شخصية قوية فى مواجهة شخصية أبيك . . إنى أثبت وجودى أمام أبى وأنا فى العشرين ، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر وتحتمل إلى سن الأربعين . .

وسقط أشرف جالساً على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم منطق أبيه ، وقال وصوته يتهدج كأنه على وشك البكاء :

– إن الناس لا تترك لى مجالاً للإحساس بنفسى . . لإثبات وجودى . . للثقة فى أنى أستطيع أن أكون مستقبلاً . . إنى دائماً صورة للماضى . . دائماً ابن إسماعيل عبد الصبور . . حتى وأنا ألعب وكأنى أنفذ قراراً رسمياً أصدره إسماعيل

عبد الصبور باللعب . .

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت بها على كتفه :

– تسافر إلى الخارج . . وتتم تعليمك هناك بعيداً عن الناس هنا . .

وابتسم أشرف فى مرارة قائلاً :

– حتى فى الخارج . . عندما كنت أسافر فى الصيف كنت أبقى حبيساً داخل شخصيتك ، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكاباريهات لأرقص كانت السفارة كلها تلحقنى وترقص معى . .

وقال الأب فى رجاء :

– إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية إبنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء نفسه و . .

وقاطعه أشرف وهو يهب واقفاً :

– أرجوك يا بابا . . دعنى أفكر لنفسى . . أنى سأحاول أن أعيش بعيداً عنك ولكن لا تسألنى أين ولا كيف . . وثق انى لن أكرر خطئى . . لن أرتكب جريمة تمسك . . لن أفكر فى مستقبلى على حساب الماضى . .

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه :

– أنا لست الماضى يا أشرف . .

فقال أشرف :

– أريد أن أحس بك كماض حتى أحدد مستقبلى . .

وهز الأب رأسه فى أسف قائلاً :

– لقد تركتك حراً دائماً . . المهم لا تضطرنى أن أثبت للناس حرصى على الحق حتى لو ضحيت بابنى .

قال أشرف :

– لن يحدث . . فقط دعنى وحدى . .

قال الأب :

– لا تحرمنى من طبيعة الأب . . أريد أن أطمئن دائما عليك . .

وقال أشرف :

– سأطمئن ماما دائماً . . أرجوك . . اكتف بماما للاطمئنان علىّ ولا تعتمد على أى وسيلة أخرى . .

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلاً ، وقال وهو يتنهد كأنه فى موقف وداع :

– إنها تجربة سأتركك لها . .

٢

كان القرار الذى اتخذه هو أن يبتعد عن أبيه . .

ولكنه لا يدرى أين يبتعد . .

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن شخصية أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدرى كيف تكون هذه الشخصية الجديدة . .

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا . . لا . . أمريكا مزدحمة بالعرب ووالده على صلات قوية بمراكز القوى هناك ، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة . . فليهاجر إلى أستراليا . . ولكنه كى يهاجر يجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة . . أى يكشف نفسه . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . وأى سفارة يقدم لها أوراقه ستتصل بوالده فوراً . . ثم ماذا يعتمد عليه فى هجرته . . إنه لم يتم تعليمه . . لا يزال فى السنة الأولى بكلية الهندسة ، ولا يجيد أى عمل ، ولم يتعلم بعد الاحتراف ولا حتى احتراف أن يكون سائق تاكسى . . إنه فى أى مكان فى العالم مضطر أن يبقى معتمداً على شخصية أبيه . . على نفوذ أبيه أو على أموال أبيه . . إنه حتى قبل أن يخرج من البيت أخذ من أمه مائة جنيه . . لم يخرج إلا وشخصية أبيه فى جيبه . . الشخصية التى تستطيع أن تعطى . . وربما كان الأفضل أن يستسلم لرأى أبيه ويقرر أن يسافر ليتم تعليمه فى الخارج على حساب الدولة أو على حساب أبيه . . ولكن لا . . إن ما يعذبه ليس وجوده فى مصر إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء فى مصر أو خارج مصر . . ثم إنه لا يريد

أن يتم تعليمه . . إنه يستطيع أن ينجح فى كلية الهندسة ويحصل على البكالوريوس بسهولة ، ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية . . الشهادة قد تكون شرطاً للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطاً للنجاح فى الحياة . . معظم الناجحين فى الدول المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية . . وهو يحس أنه يملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترمس . .

وربما كان مجنوناً . .

وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة حزينة . . إن عليه أن يكتشف أيضاً هل هو مجنون أم عبقرى . .

وقرر أن يسافر إلى شاطئ العجمى . . ونحن فى الشتاء والشاطئ خال يستطيع أن يختبئ فيه من شخصية والده ويترك نفسه هناك لفكره إلى أن يقرر مصيره . .

وقد اختار شاطئ العجمى لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه فى ليالى الصيف بعيداً عن مجتمع أبيه الذى كان يحتل شاطئ المنتزه حيث أعلن — هذا المجتمع — أنه الوريث الشرعى لأرستقراطية العائلة المالكة . .

وفى العجمى أستأجر بيتاً صغيراً على شاطئ « بيانكى » لا يعرف صاحبه ، فقد استأجره من الخفير ، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه تساهل جداً فى تقديرها . . عشرون جنيهاً فى الشهر . . بيت مؤسس مفروش وضاحك . . إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات التى فرضت على بيوت الناس . .

ومنذ اليوم الأول قرر أن يطلق شعر رأسه وذقنه ليتخفى . . لا يمكن أن يتصور أحد أن هذا الشاب الذى أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهذبها على الطراز المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن ابن إسماعيل

عبد الصبور لا يمكن أن يكون كبقية الشبان . . إنه نوع آخر . . صنف آخر . . وابتسم فى فرح وأنطلاق . . إنه منذ سنوات وهو يتمنى فعلا أن يطلق شعر رأسه . . كان مقتنعاً أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد . . وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه . . وقد قرأ أن الجيل السابق . . جيل والده . . عاش أيضاً فى تقليعة يرفضها الجيل الذى سبقه . . تقليعة البنطلونات الواسعة التى كانت تسمى شارلستون ، وتقليعة إلصاق شعر الرأس بدهن « البريانتين » و « الفازلين » ، وكان الجيل الأسبق يتهمهم بالخنوثة والميوعة وأنهم ليسوا رجالاً . . من يدرى ربما كان أبوه قد لبس البنطلونات الشارلستون ودهن شعر رأسه بالبريانتين ، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة . . ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبداً من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان مقيداً بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن ينطلق مع تقاليع الشباب . .

وربما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هى مسئوليته عن نفسه وعن حياته العادية . . إنها المرة الأولى التى يعيش فيها وحيداً . . وهو المسئول عن إعداد إفطاره وغدائه وعشائه ، . وتنظيف البيت وإعداد فراشه وغسل ثيابه . . وقد احتار أمام مطالب صغيرة لم يكن يحس من قبل بأهميتها ، وكان يضحك ويسعى إلى مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد . . وعندما تشتد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير ، ولم يحاول أبداً أن يكون له خادم . . إنه يريد أن يكون نفسه . . ولكنه يفتح عينيه مفكراً فى مصيره . . ويسعى إلى مطالب حياته اليومية مفكراً . . ويخرج إلى الشاطئ يجرى ويسبح وهو يفكر . . وكان يترك العجمى أحياناً فى الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول فى حى المكس أو يصل إلى حى محرم بك فى الإسكندرية . . ودائماً على قدميه أو فى أتوبيس

وأحياناً فى تاكسى ، فقد كان من بين القرارات التى اتخذها ألا يأخذ سيارة من بيت أبيه . . ويتناول العشاء فى مطعم شعبى وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يعرفه ولن يكتشفه ، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفاً خارج مجتمع أبيه ومجتمع زملائه فى المدرسة أو الجامعة ، فلم تكن صوره تنشر فى الصحف ، ولم يكن قد قام بعمل يلفت نظر الناس إليه . . وهو دائماً يفكر . . وعندما يريد أن يستريح من التفكير يقرأ . . وكان يختار كتباً متعددة الموضوعات . . لا يستقر على موضوع واحد . . وكان يجيد اللغة الإنجليزية ، ويخطر على باله مرة أنه يمكن أن يكون عالماً فلكيًّا فيشترى كتاباً فى الفلك ولا يتم قراءته . . وأحياناً يخيل إليه أن فى داخله نزعة إلى الأدب فيقرأ فى القصص . . أو فى التاريخ . . أو فى الهندسة الميكانيكية . . ولكنه لا يتم كتاباً أبداً . . والجديد الذى طرأ عليه أنه بدأ يقرأ إعلانات الوظائف الخالية التى تنشر فى الصحف . . كان من بين ما يخطر على باله أن يبدأ مصيره بوظيفة صغيرة على أن يبقى مجهولاً لا يعرف أحد سر أبيه . .

وكان يحرص على أن يتصل بوالدته بالتليفون مرة كل أسبوع ليطمئنها ، ووالدته تستمع إليه فى فرحة ، وأيضاً فى استسلام . . فهى لا تسأله عن أكثر مما يريد أن يقوله لها . . تخاف إن سألت أن يهرب منها هى أيضاً كما هرب من أبيه . . وكانت تعلم أنه يقيم فى الإسكندرية ولكنه لم يقل لها فى أى مكان من الإسكندرية ، ولم تسأله . . يكفى أنه يطمئنها على نفسه ، وكانت كل مرة تعبر عن لهفتها إليه أن تسأله فى نهاية كل مكالمة :

– ألا تريد شيئاً يا أشرف . .

ويرد فى صوت مرح متفائل :

– أبداً يا ماما . .

وقد مضى حوالى شهر على غيبته ، والمائة جنيه التى خرج بها على وشك أن تنتهى . . وهى معجزة فى تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيه فقط . . وتصورت أنه وجد عملاً يتكسب منه أو ربما يعيش فى رعاية بعض أصدقائه . . ودائماً قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيه فقط . . ودائماً تخاف أن تسأله . . إن ابنها ليس طبيعياً وقد يثيره السؤال . .

ولم يكن أشرف يتعمد التوفير . . ولم يتعمد أيضاً النزول عن مستوى الحياة التى كان يعيشها والتى لا يمكن أن تكفيها مائة جنيه خلال شهر . . ولكن هذه هى الحياة التى يعيشها دون تعمد ولا يحتاج فيها لأكثر مما ينفقه . . ولكن المائة جنيه انتهت . . والخفير فى انتظار العشرين جنيها قيمة الإيجار . . ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى أمه . . ولكن كيف يلتقى بها ليأخذ منها ما يريد . . ووضع الخطة . . سيطلب منها أن تأتى إلى الإسكندرية وتقيم فى بيتهم هناك . . ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكرى الواقف على الباب . . يقابلها فى المساء وفى سيارة تاكسى حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عبد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه . . لا . . لن يقابلها فى الطريق . . داخل حدائق المنتزه . . واستقر على الخطة وقال لأمه فى التليفون وهى تسأله :

– ألا تريد شيئاً يا أشرف ؟

وقال ضاحكاً :

– أفلست يا ماما . . أفلست قبل أن أصل إلى رأى . .

وقالت فى ذعر :

– أطلب يا أشرف . . اطلب . . كم تحتاج يا حبيبى . .

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيه أخرى ، وحدد لها خطة اللقاء ، واستسلمت للخطة بلا مناقشة . . إنها على الأقل سترى إبنها الوحيد . .

وهناك . . بين أشجار مدينة المنتزه وقفت أمامه تنظر إلى شعره الطويل وذقنه المهذبة نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذى تعرفه . ثم ألقت نفسها فوق صدره تبكى ، وقالت من خلال دموعها كأنها تخاف أن تغضبه بدموعها :

– إنى أبكى فرحاً يا أشرف . . أوحشتنى يا ابنى . .

وهو يقبلها فى كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها . . وهى تنظر إلى شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقبلها ، ثم تمسح بأصابعها فى ذقنه قائلة :

– هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزاً . .

ويتضاحكان . . ويسيران تحت الأشجار كأنهما عاشقان . . ويروى لها كل حياته . . أين يعيش وكيف . . وتضحك حتى تخفى حسرتها وجزعها عليه . . وتسأله فى تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم :

– هل أنت سعيد بهذه الحياة . .

وقال ضاحكاً :

– على الأقل أصبحت لا أستطيع أن أنسب شيئاً مما يضايقنى إلى أبى . . أنا المسئول وحدى عن نفسى . . وكل ما ينقصنى هو أنت . .

واستمر لقاؤهما طويلاً ، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى فى النهاية أن يعود معها إلى البيت . . لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن تعود أمه وحيدة . . ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها التى جاءت بها وهى تقودها بنفسها تنفيذاً للخطة التى وضعها :

– هل أراك غداً . .

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جاداً :

– لا . .

قالت فى استجداء :

– إنى سأبقى بضعة أيام فى الإسكندرية . .

قال وهو أشد حزماً :

– أرجوك يا ماما . . عودى غداً إلى أبى . .

قالت ودموعها تكاد تطفر :

– ولكنى لم أشبع منك . .

قال :

– لنتعود . . إنها حياة جديدة . . لا تضطرينى أن أختفى فى بلد آخر . واحتضنها بسرعة وقبلها ، ثم تركها مبتعداً وجرى وراء أتوبيس وتعلق به . . ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عجلة القيادة وبكت . .

وعادت إلى القاهرة فى اليوم التالى إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد لا تعرفه ، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهى تحاول أن تتغلب بفرحتها على حسرتها :

– عرفت أين يقيم أشرف . . إنه فى العجمى . .

وقال إسماعيل عبد الصبور فى برود :

– أعرف . .

وقالت فى دهشة :

كيف عرفت ؟

قال كأنه يتهمها بالغباء :

– طبعاً أستطيع أن أعرف كل شىء . .

قالت :

– ولماذا لم تقل لى . .

قال :

– فضلت أن تعرفى منه هو . . إنها إحدى وسائل العلاج النفسانى . . أن يتأكد من أنه أصبح أقوى منى إلى حد أنى لا أعرف مكانه . . وقد خشيت أن يعرف منك أنى أعرف . . أعرف كل شىء . .

وتنهدت فى ألم وقالت فى يأس :

– لعلك تكتشف لى علاجاً أنا الأخرى . .

* * *

وفى العجمى . . فى يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خالياً من الناس تعرف أشرف إلى دينوس وعائلته . . إنها عائلة يونانية تقيم فى الإسكندرية وتملك بيتاً فى العجمى قريباً من البيت الذى استأجره أشرف ، تقضى فيه عادة إجازة نهاية الأسبوع . . يومى السبت والأحد . . وكان أشرف جالساً أمام بيته ينظر إليهم من بعيد . . ويبتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم . . إن عددهم كبير . . شيوخ وشبان وأطفال . . وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة على نفسه . . إنه لم يعش أبداً مثل هذه الحياة العائلية المرحة . . ولم يجرب إجازة نهاية الأسبوع . . الخميس والجمعة . . إن عائلته فى يوم الجمعة تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر . . وأبوه يصبح يومها ودمه أثقل من أى يوم آخر ، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذى مضى ولكنه

يجمعها فوق رأسه . .

وخرج دينوس من بين الشلة واقترب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربى فى لهجة تتراقص فيها الموسيقى اليونانية :

– من فضلك . . هل تعرف أحداً نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز . . اكتشفنا أن الأنبوبة عندنا فارغة . .

وقال أشرف :

– إن الخفير يعرف كل شىء هنا . .

وقال دينوس :

– إذن لأبدأ البحث عن الخفير . . شكراً . .

وقبل أن يبتعد استوقفه أشرف قائلاً :

– تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذى عندى . . إنى لست فى حاجة إليه اليوم . . والخفير قد لا تجده الآن . .

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملا أنبوبة البوتاجاز ، كل منهما من ناحية ، وعادا بها إلى البيت الآخر . . واستقبلتها العائلة بالتهليل المرح ، وعزف واحد منهم على « البازوكا » لحن السلام الملكى القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز . . ووقف أشرف بينهم ضاحكاً حائراً . . إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير . . لعله الأب . . يقدم له كأساً من نبيذ الريتسينا صائحاً :

– فى صحة البوتاجاز . . وفى صحتك . .

وشرب الكأس ضاحكاً ، وفى لحظات أحس كأنه واحد منهم . . واللغة اليونانية تملأ أذنيه . . كلهم يتكلمون فى وقت واحد ، وكل منهم لا يكف عن

الكلام أبداً . . وينتبهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضع كلمات بالعربية ثم يعودون بسرعة إلى إطلاق قذائف يونانية . . إن اللهجة الجريكية أشبه بقذائف المدليوز . . ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم . . دينوس . . بانايوتى . . بابادوبلو . . ناكى . . مارينوس . . وأسماء البنات . . صوفياس . . جوانا . . مارياً . . أنى . . كاتيا . . إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيداً عن مصر . . بعيداً عن أبيه . . إنه الآن فى أثينا . . وعيناه تطوفان بشوارع أثينا ثم تتوقفان طويلاً عند كاتيا . . شىء فى داخله يشده إليها . . خيل إليه أنها أجمل بنات العائلة . . وأهدأهن . . على الأقل إنها أقل البنات ثرثرة . . والجميع فى حاجة دائمة إليها . . كاتيا . . كاتيا . . كاتيا . . وهو لا يدرى ماذا يطلبون منها ولكنها تتحرك دائماً . . والتفت إليها مرة فوجدها هى الأخرى تنظر إليه من بعيد . . وتعلقت عيناها بعينيه وبينهما ابتسامة . .

وخرجوا جميعاً إلى الشاطئ يلعبون الكرة ، ويتسابقون ، ويقفز أحدهم فوق الآخر ، ويتحدون أحدهم الآخر من منهم يقبل أن ينزل البحر فى عز البرد . . رهان . . وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم رعشته . . وكانت قيمة الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأساً من الريتسينا . . وصاحت كاتيا ، بينهم بكلمات كثيرة جريكية لم يفهم منها شيئاً ، ثم تقدمت إليه تحمل كأساً وقالت فى لغة عربية لغة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطرت أن تقلبها إلى اللغة الإنجليزية :

– أخاف عليك أن تسكر . . لا شك أنك لست متعوداً على شرب الريتسينا . . كأس واحدة تكفى . . كأسى . .

وشرب الكأس وقال ضاحكاً :

– أحس كأنى عندما ولدت أرضعونى ريتسينا . .

وضحكت وقالت كأنها أمه التى أرضعته :

– قم نلعب الراكت حتى تدفأ . .

وقام يلعب معها الراكت والجميع يهللون من حولهم . . برافو أشرف . . أشرف نرجوك لا تهزم كاتيا . . وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل ، ولم يتم بقية الاسم كأنه يدارى عورته . . وترك كاتيا تغلبه . . أوهكذا أقنعته ، ولكن الواقع أنها غلبته . .

والتف معهم حول أطباق طعام الغذاء . . وعرف أن الكباب الجريكى اسمه سوفلاكى . . وأحس أن أطعم سلاطة ذاقها هى السلاطة الجريكى التى يضاف إليها الجبن . .

وفى العصر . . والجميع فى راحة وقد سكتت طلقات المترليوز الجريكية . . كان نينوس ممدداً بجانب أشرف على الشاطئ يروى له قصة عائلته . . أنهم كلهم ولدوا فى مصر . . منذ أيام أجدادهم وهم فى مصر . . وكان أبوه وعمه يعملان فى البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد ، ويمثلان شركات للنقل البحرى . . ثم فى عام ١٩٦٠ شملهم التأميم . . صودر كل ما يملكون . . واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم ، ، فقد أصر على أن ينهى حياته فى مصر واستسلم لضياع أمواله واكتفى بأن أصبح شريكاً لصديق يونانى يملك مقهى ومطعماً فى الإسكندرية قريباً من محطة الرمل . . والذين عادوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم . . لقد نجحوا فى أعمال كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك الوافدين من مصر غرباء ، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم ، وبما أن

جريك مصر هم أمهر وأرقى من جريك اليونان أنفسهم ، على الأقل يتميزون بإجادة اللغات الأجنبية التى أصبح العمل فى اليونان يحتاج إليها احتياجاً أساسياً ، فى حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفى . .

واستطرد تينوس يروى القصة . . إنهم برغم نجاحهم فى بلادهم قرروا العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالاطمئنان . . وعاد معظمهم لا ليطالبوا بممتلكاتهم التى ضاعت منهم ولكن ليبدأوا العمل فيها من جديد . .

وضحك تينوس قائلاً :

– هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد . . إنشاء مطعم ومقهى جديد . . . مطعم كبير فخم من المطاعم السياحية العالمية . . إن عمى بعد أن اشترك فى إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهى والمطاعم أكثر ربحا من الشركات العالمية . . .

وقال أشرف فى تردد :

– وكاتيا هل ولدت فى مصر . . إن لغتها العربية ضعيفة . .

وقال تينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه :

– كاتيا لم تكن قد تجاوزت عاماً واحداً من عمرها عندما أخذناها إلى أثينا . . وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنها تعيش فى مصر . . إن مصر فى دمنا . .

والأفكار تتضارب فى رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذى يحدد من خلاله مصيره . . كأنه هو الآخر مثل باقى أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها وغاب عنها طويلاً . . ولم يخلص من أفكاره إلا عندما بدأ الغروب وبدأت العائلة تعود إلى نشاطها ومرحها . . وسهر معهم على نغمات البوزك . . يسمع أغانى البوزوكا ، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكى والكاسبيو . .

ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يتعلم كل شيء .. أن يصبح جريكيًا .. وكاتيا ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك ، ودائماً تعامله كأنها مسئولة عنه .. كأنها أكبر منه .. إنه حائر فيها .. ولا حتى ابتسامة تعطيها له لتشجعه عليها .. إنما ابتساماتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم الحياة ..

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن أى قصة .. لم يحاول حتى أن يسأله من هو .. ربما لأنه حتى الآن لم يكن يهمه أن يعرف ..

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية فى مساء الأحد ..

ولم يحتمل وحدته أكثر من يومين .. لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه بمسئوليته عن نفسه يمكن أن تشغله .. واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء فى مطعم المكس .. هو وماريا وكاتيا .. ثم انتظرهم فى شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع فى العجمى .. ثم أصبح يزور تينوس فى بيته فى الإسكندرية .. لم يعد حريصاً كل هذا الحرص على الاختفاء فى العجمى .. يكفى شعره الطويل وذقنه لإخفاء شخصيته .. وكاتيا تعبر عن مسئوليتها عنه أكثر وأكثر .. إنها أيضاً تشرف على إدارة البيت الذى يستأجره وتتعمد أن تترك له كل مساء أحد كثيراً من قطع الجبن التى يحبها وعدداً من زجاجات النبيذ التى تكفيه بقية الأسبوع .. لم يعد يستطيع أن يستغنى عن النبيذ مع طعامه كأى واحد من أفراد الشعب اليونانى ..

ولم تعد المائة جنيه تكفيه .. ثم أحس بحاجته إلى سيارة .. ولم يقاوم حاجته، طويلاً .. اتصل بأمه وجاءته فى لهفة والتقت به فى حدائق المنتزه طبقاً لنفس

الخطة السابقة وروى لها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية ، وأخذ منها مائتى جنيه لا مائة .. وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن تعرض عليه أن يأتى معها خوفاً من أن يرفض ، فاجأها بقوله :

– دعينى أقود السيارة حتى أوصلك إلى البيت وسآخذ السيارة لأنى فى حاجة إليها ..

وفرحت أمه .. فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركوب الأوتوبيسات والتاكسيات .. وربما كانت تتمنى أكثر منه أن يأخذ السيارة ، فهى سيارة تترك دائماً فى بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون فى فترات الصيف .. إن أشرف بدأ يفيق من جنونه .. لا شك أنه بدأ يفيق ما دام يطلب سيارة من بيت أبيه ..

وأشرف يحادث نفسه وهو يقود السيارة عائداً إلى العجمى .. يجب أن يعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يستغنى عن أبيه .. لا يستطيع أن يعيش إلا بفضل أبيه .. ولابد أن أباه يعلم بما تعطيه له أمه من نقود ، ولابد أنه سيعلم بأنه أخذ هذه السيارة .. إنه ليس مغفلاً حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تخفى شيئاً عن أبيه .. لا يهم .. إنه على الأقل أصبح حراً .. هو الذى يطلب أو لا يطلب .. لم يعد عبداً للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه .. ولم يعد يتلقى أوامر من أحد .. وتحسس شعر رأسه الطويل وذقنه المهذبة وابتسم ساخراً .. ربما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية .. أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان ابن إسماعيل عبد الصبور .. وسحب ابتسامته الساخرة وامتلأت عيناه بنظرات جادة وهو يقول لنفسه .. لا تيأس .. إنك لم تبدأ بعد .. لم تمض سوى ثلاثة شهور على حريتك .. والأمل كبير فى أن تتحرر من أبيك تحرراً كاملاً ..

أن تعمل وتكسب . . لا تفقد الأمل . .

وكان على موعد مع كاتيا فى اليوم التالى . . كان يوم سبت واتفقت معه على أن تأتى إليه فى الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة ، حتى تعد معه بيته وبيتهم . . ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأركبها بجانبه السيارة ثم انطلق بها كالمجنون . . وقالت تسأله فى هدوء كأنه لم يفاجئها بشىء :

– إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها :

– لا بد أن نصل إلى شىء . .

وقاد السيارة بجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين ، ثم توقف ونزل من السيارة ونزلت معه واتجه بها إلى مقبرة قتلى الحرب ثم توقف بين أعمدة الصلبان التى ترتفع فوق القبور ، وواجهها قائلاً :

– كل هؤلاء شهداء . . وأنا لا أريد أن أكون شهيداً . .

قالت وهى تبتسم ابتسامة هادئة :

– ماذا تقصد ؟

قال :

– إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التى قتلته . . وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا فى جهل . . لا أدرى أين أنا منك ، ولا أين أنت منى . . كل هذا وأنا لا أدرى هل تحبيننى كما أحبك . .

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيما يمكن أن تقوله ، وكلماتها تتعثر ، بين العربية والإنجليزية :

– إنى أعيش فى جهل أوسع من جهلك . . إنى إلى الآن لا أعرفك . .

مجرد لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة . . وبرغم ذلك عرفت أنى أحببتك ولكنى فضلت أن أدارى حبى حتى أعرفك أكثر . . إنى لا أعرف عائلتك . . ولا أعرف بماذا تعيش . . ولا أريد أن أسألك ! . لا أنا ولا أبى ولا أمى يريد واحد منا أن يسألك . . إنها حريتك . . وصداقتك ممتعة واكتفى الجميع بهذه الصداقة . أنا وحدى التى لا أكتفى بها ولكنى أحمى نفسى بها . .

وقال فى حدة :

– لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمى واسم عائلتى والشهادة التى حصلت عليها وقيمة دخلى وأملاكى . . أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك . .لقد قدمت لك شخصيتى كاملة ، فإما أن تحبى هذه الشخصية أو ترفضيها أو تكتفى بصداقتها . . وتصورى أنى فى حالة نفسية تدفعنى أن أهرب من نفسى حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك . . تصورى أنى مريض . . ومرضى يجعلنى غير قادر على أن أقول من أنا . . بل قد أكون قد أخفيت عنك إسمى . . ولكن الحب يتسع حتى للمرضى . .

ونظرت إليها طويلاً وعيناها تضمانه إليها فى حب وقالت كأنها تهمس :

– إنك لست مريضاً . . ولكنك فى معركة لا أدرى سرها . . هذا ما أحس به . . وقد قررت أن أقف معك حتى تنتهى المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن ترفع عنك ثياب وأقنعة الحرب . . وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيداً ولا أنا فتعالى نخرج من هنا . . من حديقة الشهداء . .

واستدارت وهو معها وسارا بعيداً عن قبور قتلى الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار التين البرشومى الممتدة حتى الشاطئ ، وقال وصوته لا يزال ثائراً :

– إن الحب لا ينتظر حتى تنتهى المعركة أوحتى يشفى المريض . .

ومدت يدها ووضعتها فى يده وهى تهمس :

– ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر . .

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلاً وهمس هو الآخر :

– هل أستطيع ؟

وشفتاها تتطلعان إلى شفتيه . . لم يعد فيهما سوى شفاه . . وكانت القبلة الأولى بعد كل هذه الأيام التى جمعتهما . . وسقطا مع قبلتهما تحت شجرة التين . .

وتحركت بين ذراعيه قبل أن تصل القبلة إلى باقى جسديهما . . وهذا ما عودته عليه دائماً أن يكتفيا بالشفاه . . وقامت تجرى ضاحكة وهو يجرى خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة :

وقال وهما فى طريق العودة :

– لقد وجدتك . . بقى أن أجد نفسى . .

قالت كأنها تثير حماسه :

– وجدت الصعب وبقى السهل . .

• • •

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتيا أصبحت لأشرف . . اعترافاً صامتاً لا يثير أى نكات حلوة يطلقونها أحياناً على تصرفات كل منهما نحو الآخر . . وهو دائماً معهم . وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالماً واسعاً لرجال

الأعمال . . إنهم لا يقصرون نشاطهم فى مشروع المطعم والمقهى الكبير ، ولكنهم وكلاء عن شركة فرنسية تتطلع إلى بناء مدينة سياحية كاملة على ساحل البحر الأحمر . . إنه مشروع تصل تكاليفه إلى أكثر من ثلاثين مليوناً من الدولارات ، ولو استطاعوا تحقيقه فإن العمولة التى يحصلون عليها لا تقل عن نصف مليون وهو يستمع إلى كل هذا وليس له أن ينتقل بكل فكره إلى هذا العالم الجديد عليه . . بل إن كل أحاديثه مع كاتيا حتى فى خلوتهما كانت تدور حول هذا العالم كأنه يحاول أن يتعلم منها مالا يستطيع أن يتعلمه من أخيها أو من أبيها . . وينام وهو يفكر . . ويصحو وهو يفكر . . إن كل هذه المشروعات التى يتحدثون عنها يمكن أن يحققها أبوه ببساطة . . ولكنه لا يريد أن يلجأ إلى أبيه . . إن مشروع المطعم يعتبر صغيراً بالنسبة لمشروع المدينة السياحية . . ، مشروع ليس فى حاجة إلى تدخل أبيه ، فلماذا لا يشترك فيه . .

وجلس مع صديقه دينوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكاً فى المطعم السياحى . . وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه ، وقال كأنه يغرى دينوس :

– إنى لا أريد ربحاً ، ولكنى فقط أريد أن أتعلم . .

ووعد دينوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة : ثم غاب أياماً . . أياماً طويلة . . وعاد يعلن أشرف بأن العائلة قررت أن تقبله شريكاً فى مشروع المطعم . .

واتصل بأمه فى التليفون ، وكان صريحاً برغم أنه يعلم أن التليفون يضم فى داخله شريط تسجيل . . وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو فى حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم فى مشروع . . وروى لها كل تفاصيل المشروع ، واتفق معها على لقاء ، وفى هذه المرة لم يتمسك بلقاء حدائق المنتزه ،

إنه سيلقاها فى بيت الإسكندرية . .

وقالت الأم لزوجها . . ورد إسماعيل عبد الصبور فوراً :

– أعرف . . إنه مشروع مطعم . . اعطه ما يريد ولكن النصيحة أن يبقى مشروع الشركة سراً بينه وبين شركائه الجريك . .

وسافرت الأم إلى الإسكندرية ، وذهب أشرف للقائها فى البيت ، ولم يهتم كثيراً عندما أدى له العسكرى الواقف على الباب تحية تعظيم سلام . .

واقتنع بما نصحته به أمه واتفق مع دينوس ووالده بابا دوبلو على أن تبقى الشركة فى اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسمياً . .

وتركوه حراً فى أن يختار العمل الذى يريد أن يساهم به ، وقد اكتفى بأن يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم ، وبدأ يراجع أوراق المصروف والإيراد . وعمليات استيراد ما يحتاج إليه المطعم ، وتكاليف العمالة . . بدأ يدرس العملية كلها . . ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه ، حتى أنه اكتشف أنه كان مخطئاً بالنسبة لنفسه عندما اختار يوماً ما أن يكون مهندساً والتحق بكلية الهندسة ، ربما لو كان قد التحق بكلية التجارة لجذبته أكثر ولما فر منها . .

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدى إعجابها به دون نفاق ، وتستجيب بسرعة لأغلب اقتراحاته . . ولكن . . هناك فكرة للتوسع فى المشروع لم يستطع أحد منهم أن يحققها . . ففوق المطعم الذى يقع على الشارع دور كامل من العمارة يشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد أستولت عليه وأجرته للمحافظة التى تستعملها كمكاتب لأرشيف السجلات . . لو استطاعوا أن يأخذوا هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلى الواقع إلى الشارع ، لأقاموا

أكبر مطعم فى الإسكندرية بل واحداً من أكبر وأفخم مطاعم العالم . . وقد حاولوا كثيراً ودفعوا كثيراً من مقدم العمولات أى من الرشاوى ، حتى يقنعوا مكتب الحراسة بإلغاء إيجار المحافظة لهذه الشقق ليستأجروها . . ولا أمل . .

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع .. توسيع المطعم السياحى يعتبر فعلاً خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشيف . . لا يهم أن يتم هذا العمل الوطنى على يد شركة جريكية أو فرنسية أو إنجليزية . . ولا يهم أرباحه هو شخصياً . . إن أرباحه بمجرد أن ساهم فى الشركة تصل إلى مائة جنيه فى الشهر . . وقد فوجئ بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابادوبلو نصيبه . . خيل إليه أنهم يشترونه ، أوعلى الأصح يرشونه ، ولكنه عند مراجعة حسابات المطعم اكتشف أنه يستحق فعلاً هذا المبلغ . . وهو ليس فى حاجة إلى أكثر منه . وتفكيره فى التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو إندفاع وطنى لتحقيق مصلحة وطنية . .

وارتدى فى الصباح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه . . هل تخلى عن شخصيته التى حاول أن يخلقها . . وأجاب نفسه بلا . . إنه فقط وجد الطريق الذى يسير فيه . .

وسار إلى مكتب المحافظ ، ونظر إليه السكرتير فى امتعاض :

– أفندم . .

وقال أشرف فى هدوء :

– أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . .

وقفز السكرتير واقفاً وهو يقول فى تلجلج :

– تشرفنا يا أفندم . . اتفضل . .

وقاطعه أشرف :

– هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ . .

وقال السكرتير فى رعشة :

– طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . دقيقة واحدة . .

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ . ثم عاد مهرولا :

– اتفضل يا يا أفندم . .

وكان السيد المحافظ مجتمعاً ببعض موظفيه وقام من على مائدة الإجتماع يستقبل أشرف مرحباً ثم التفت إلى الموظفين قائلاً :

– الاجتماع يعتبر مستمراً إلى أن أدعوكم . .

وخرج أعضاء الاجتماع وتفرغ المحافظ لأشرف . . وروى له أشرف كيف اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدى اللوائح البالية . . وعليه فيجب إخلاء الشقق الثلاث من موظفى الأرشيف ليقام مكانها مطعم عالمى سياحى يفتح للبلد صنبوراً من العملة الصعبة . .

واقتنع السيد المحافظ بسرعة ، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى يراجع المسئولين فى الوزارة . .

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد سيعلم بهذا المشروع بل وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ . . وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف بأنه فى حاجة دائماً إلى أبيه ، فاتصل بأمه وروى لها تفاصيل المشروع وهو واثق أنها ستبلغ به والده . .

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته :

– عارف . . وأنا موافق . . الولد ابتدى يشتغل جد . . .

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين . .

ولم تصدق عائلة بابا دوبلو الخبر وكادت تجن من الفرح عندما صدقته ، وأقاموا حفلاً عائلياً حول برميل كامل من النبيذ تحية لأشرف ، وقال بابا دوبلو كأنه يلقى خطاباً رسمياً إنهم كانوا قد خصصوا ميزانية تبلغ قيمتها ثلاثين ألفاً من الجنيهات للحصول على هذه الشقق وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف . .

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ ، وقال إنه عضو مساهم فى الشركة وما يعود على الشركة يعود عليه ، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين ألفاً إلى نصيب أشرف من الشركة . . وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء :

– هذا أفضل لك . . لقد أصبحت ابن سوق . . إن نصيبك الآن فى الشركة يساوى ضعف نصيب ابنى دينوس . .

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحاً بأنه استطاع أن يثبت شخصيته بعيداً عن أبيه . . لقد قال أبوه إنه وهو فى العشرين من عمره استطاع أن يكون شخصية منفصلة عن أبيه . . إنه هو الآخر استطاع أن ينفصل وهو فى الثانية والعشرين . . لعله لم ينفصل تماماً . . إن مشروع الشقق لم يمكن أن يتم إلا إذا كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليبدو أنه ابن أبيه . . ولكن ليس أبوه هو الذى فكر فى المشروع . . وليس أبوه هو الذى قدمه إلى عائلة بابا دوبلو . . إنه الآن شخصية تفكر لنفسها . .

وكاتيا تنظر إليه من بعيد وهى تبتسم فى صمت . . ابتسامة لا تعبر عن شىء . . لا عن فرح ولا عن قلق . . وأخذها أشرف إلى خارج الحفل وقال وهو يرفع يدها ويضع أصبعها بين شفتيه :

– كاتيا . . لنعلن خطبتنا الليلة . . ونتزوج الأسبوع القادم . . لقد فكرت فى كل شىء . . سأجد شقة لنا غداً . . من السهل أن آخذ شقة خالية . . وإلى أن يتم تأثيثها نسافر إلى الخارج . . إلى الريفيرا فى فرنسا . . بعيداً عن هنا . .

ولم تنطلق كاتيا بالفرحة كما كان يتصور ، وقالت كأنها تهم بالبكاء :

– إنى خائفة . .

وقال أشرف فى دهشة :

– خائفة من ماذا . .

قالت وهى لا تنظر إليه :

– لا أدرى . . ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك ابتعدت عنى . .

وقال مبتسماً :

– إنك دائماً تعيشين فى شك من كل من حولك . . اسمعى . . . سأقول لك كل شىء . . إن اسمى الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل عبد الصبور . . طبعاً معروف . . وكنت قد هربت من البيت حتى أثبت شخصيتى بعيداً عن شخصية أبى . . وأعتقد أنى نجحت . . .

وقاطعته كاتيا فى صوت خفيض :

– إنى أعرف . .

وقال فى دهشة :

– تعرفين ماذا ؟

قالت :

– أعرف كل شىء عنك . .

قال والدهشة تستبد به كأنه تلقى صدمة :

– منذ متى ؟

قالت :

– منذ دخلت الشركة مع عمى بابا دوبلو . . كان مستحيلاً أن يقبلوك دون أن يعرفوك . .

قال :

– ولماذا لم يصارحونى بأنهم عرفوا . .

قالت :

– كانوا فى انتظار أن تصارحهم أنت . . هذا حقك . .

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه . . لعلهم لم يقبلوه شريكاً إلا بعد أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . لا يهم . . يجب أن يتخلص من هذه العقدة . . المهم أنه حقق أرباحاً ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه . . وقال لكاتى كأنه يواسى نفسه :

– مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن . .

وعادت تقول :

– إنى خائفة . .

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية . . تكلمت كثيراً كأنها لسان إبرة جرامفون وقفت على أسطوانة مشروخة . . وأشرف يصرخ فيها . . ماذا تقولين . . ماذا جرى لك . . وهى مستمرة فى الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه وصفعها صفعة قوية ، وقالت ودموعها تفيض على خديها :

– إنى أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمرى ، فكيف نتزوج . .

وقال يحيطها بذراعه فى حب :

– ولكنى أستطيع أن أتعلمها . . بل تعلمت الكثير منها وأحببت كل شىء جريكى . . . أحببت الريتسا والسوفلاكى والتارامو ، والموزاكا . . وأحببت البوزك والسيرتاكى والكاسابيو والكلامابتانوس . . أصبحت نصف جريكى ويمكن فى أيام أن تجعلينى كلى جريكيًا . . تعالى . .

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس فى أذن دينوس ، وهمس دينوس فى أذن بابادوبلو ، وهمس بابا دوبلو فى أذن مارينوس ، وساد الجميع صمت قلق ، ثم صاح بابا دوبلو :

– سيداتى وسادتى أعلن لكم خطبة كاتيا إلى أشرف . .

وهلل الجميع وهم يرقصون حول برميل النبيذ . .

• • •

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبلغه لأبيه وذهب إليها فى بيت الإسكندرية ، وما كادت تراه بعد أن حلق شعره وذقنه حتى احتضنته فى فرحة وقالت وهى تمسح بيدها على خده :

– الآن أحس أنك عدت إلينا . .

وأخذ يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التى حققها ، ثم قال :

– وقد نويت الزواج . .

وقالت أمه فى فرحة :

– عين العقل . . سأختار لك أحسن وأجمل بنت فى البلد . .

وقال ضاحكاً :

– اخترت . .

قالت فى دهشة !

– من ؟

قال :

– كاتيا . . أخت صديقى دينوس . .

قالت :

– جريكية . . مستحيل . . يا بنى هوه من قلة بنات البلد . . وتعمل فينا كده ليه . . تناسب جريك . . آدى اللى كان ناقص .

اسمع يا أشرف و . .

وقاطعها مبتسماً :

– اعملى معروف يا ماما . . وافقى حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية . .

وسكتت وبدا عليها أنها تبذل جهداً كبيراً حتى لا تفقد أعصابها ، ثم قالت وهى تتنهد كأنها تستغيث بالله :

– لك الحق يا ابنى . . هذه حياتك وأنت حر فيها . . موافقة . .

وقال فى فرح :

– سأصحبها معى فى المرة القادمة حتى تتعرف بها وتباركينا . .

وقالت فى أسى :

– أهلاً وسهلاً بها . .

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فوراً إلى القاهرة تبحث عن زوجها إسماعيل عبد الصبور . . وعندما لاقته صرخت فى وجهه . كأنها تستدعى بوليس النجدة :

– الحقنى يا إسماعيل . . أشرف سيتزوج جريكية . .

وصمت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخراً :

– وصلت إلى حد الزواج . .

ثم رفع صوته فى حدة قائلاً لزوجته :

– اسمعى . . . اتركى هذا الموضوع لى . . لا تناقشى فيه أشرف . . خذيه بعقله . .

* * *

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دوبلو فى تحديد موعد الزواج . قال له إن الموضوع فى حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة فى أثينا ، ثم إن اختلاف الدين يجعله مضطراً إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكنيسة ثورة عليه . . أنت لا تعرف الجريك يا أشرف . . إنهم متعبون فى كل شىء . . وكاتيا معك . . خطيبتك . . وهى معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج . .

ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان لم يسمع صوتاً يعارضه . . ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع المطعم ولا يشركونه فيه . . إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر . . لقد تقدمت شركة إيطالية تنافسهم فيه . . لا يهم . . إنه لا يريد هذا المشروع ولن يتدخل فيه . . ولكن لماذا لا يهمه . . إنه مشروع يدر الملايين . . إنه يستطيع به أن يصل إلى درجة مليونير . . ولكن ليبدأ أولاً بالانتهاء من مشروع زواجه . .

ويخيل إليه أن كاتيا تتغير . . إنها تخفى عنه شيئاً . . وهى دائماً قلقة . . ودموعها كثيرة إنها تبكى كلما قبلته وكأنها قبلة الوداع . . وصرخ فى وجهها :

– ماذا تخفين . . ماذا يقلقك . .

ونظرت إليه طويلاً كأنها قررت أن تكشف له سراً وقالت :

– اسمعنى يا أشرف . . لقد عرفتنى طويلاً وأنت تخفى عنى سرك ، وأنا أيضاً لى سر أخفيه عليك . . إنى قبل أن أنتقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريباً لأحد أقاربنا فى أثينا . . وقد أرسلنا إليهم أخيراً لإلغاء هذه الخطبة . . قلنا لهم كل شىء . . ولكنهم لم يوافقوا . . إن إلغاء الخطبة قد يؤدى إلى نكبة على العائلة . . وهم يريدوننى أن أعود إليهم . . ولم أقل لك شيئاً . . لأنى أقاوم . . ولا أدرى إلى متى أستطيع أن أقاوم . .

وثار أشرف :

– لقد تغيرت . . إنك تكذبين . . لا أصدق شيئاً مما تقولين . . هناك سبب آخر لكل هذا . . كونى أكثر صراحة . . ثم ماذا يهمنا من عائلتك أو عائلتى تعالى الآن لنتزوج وحدنا ونهرب بعيداً وحدنا . .

وقالت كاتيا . . وهى تبكى :

– إنى أحبك . . ولكنى لا أستطيع . .

واشتدت ثورة أشرف ، وصرخت كاتيا :

– أشرف . . لم أعد أحتمل . . قبلنى . . قبلنى . .

وألقت نفسها بين ذراعيه ، واحتضنت شفتيه بشفتيها ولم تتركهما كعادتها قبل أن يسرى إحساسهما إلى باقى جسديهما . . تركت هذه القبلة تصل بها إلى كل شىء . . أعطته كل ما يريد وأكثر . .

وفى اليوم التالى ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو . . لقد أصبحت كلها له . . وعندما دخل البيت استقبله بابا دوبلوس ودينوس فى وجوم . .

أين كاتيا ؟

سافرت صباح اليوم إلى أثينا . .

وهم أشرف أن يتوعد سيلحق بها . . سيحطم كل ما يعترضه . .
وقال له بابا دوبلوس فى هدوء :
- إنها مشكلة أكبر منا ومنك . . تأكد أننا حاولنا كثيراً . .
ونظر إليهما أشرف ساخراً ، ثم جلس مدعياً الهدوء قائلاً :
- لنعتبر الموضوع منتهياً . . لم تعد هناك مشكلة . . إلى ماذا وصلتم فى مشروع مدينة البحر الأحمر . .
والتف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلا إليه ، ولم يستمع إليهما طويلاً وتركهما وركب سيارته واتجه بها إلى طريق القاهرة . . منذ عامين وهو لم يفكر أبداً فى العودة إلى القاهرة . . ولكن ليعد . . ليعترف بالواقع . . إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله . . والواقع هو أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر على قدره سواء كان بجانبه أو بعيداً عنه . . إنه استطاع أن يطرد كاتيا من مصر كلها . . ربما هدد عائلتها . . أو ربما أغراها بمساعدتهما فى مشروع البحر الأحمر . . ولكنه متأكد أن أباه هو الذى طرد كاتيا . .
ووقف أمام أبيه هادئاً ، وأبوه يستقبله بابتسامة الرجل القوى المنتصر حتى على أولاده . . وقال أشرف ساخراً :
- أقدم لك نفسى . . أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .
ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال :
- أوحشتنى يا أشرف . . ورغم بعدك عنى كنت فخوراً بك . . لم أكن أعتقد أن عنادك يمكن أن يقودك إلى كل هذا النجاح . .

وقال أشرف وكأنه ينافق :
- الفضل لك دائماً . . فأنا لست إلا ابن إسماعيل عبد الصبور . .
وقال الأب كأنه يرضيه :
- وأنا أبو أشرف . .
وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه :
- وقد جئت أطالب أبى بحتى فى التعويض . .
وقال الأب فى دهشة :
- التعويض عن ماذا ؟
قال أشرف :
- لقد فقدت فتاة خطبتها . . وإنى مستسلم لما حدث وأعرف أنك السبب . . ولا يمكن أن يلهينى عن استسلامى إلا أن أدخل فى مشروع جديد . .
وقاطعه الوالد :
- إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه . . ومن حقك أن تأخذه وحدك لو أردت . .
وقال أشرف :
- إن أصحاب المشروع لم يحرمونى من خطيبتى . ولن آخذ منهم المشروع انتقاماً وعقاباً ولكن فقط سأساهم معهم ، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت الموافقة عليه . . وأردت أيضاً أن أعلن لك أنى قد عدت إليك . . إلى البيت وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا . . إلى بيتك وبيتى . . للعشاء غداً . . هل تكون معنا . .
وقال الأب :

– حتى نكون أكثر واقعية أفضل ألا أكون معكم وأفضل أن تدعوهم فى الخارج . . هذا نوع من التغطية . .

وقال أشرف :

– لك حق . . إنى مازلت تلميذاً لك . . عن إذنك . .

وهم أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلاً :

– أشرف . . ما دمت مازلت تلميذاً فإنى أنصحك بأن تحصل على شهادتك الجامعية . . إنك تستطيع أن تكون مليونيراً بلا شهادة ، ولكنك لا تستطيع أن تكون وزيراً وسياسياً إلا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يوماً ما وزيراً . . رئيس وزراء . . هذا يسعدنى ويجعلنى أزهو بك . .

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه فى عجب :

– الشهادة سهلة . . أستطيع أن أسافر وأعود بشهادة من لندن . . دكتوراه . . وسأختار دكتوراه فى الاقتصاد . . لم أعد أريد الهندسة . .

وقال الأب :

– اترك لى هذا الموضوع . .

(تمت)

أسرار المهنة

شدت قوامها الطويل الممشوق وسلطت عليه عينين غاضبتين وقالت فى صوت تنطلق فيه رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كرنة آلة السيكسفون بين نغمات الكمان :

– اسمع . . إنى خبيرة فى مهنتى . . وصاحب رأس المال يعتبر غبياً إذا تدخل فى أعمال الخبراء . .

ونظر إليها فى قرف واحتقار وقال :

– ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبراء كشفت أسرار المهنة . .

– قالت وهى تنظر إليه فى تعال :

– لم أكن أتوقع أن ألتقى بكل هذا الغباء . . إنك لن تكشف أبداً سر مهنتى . . الزبون لا يمكنه أبداً أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر ، وكنت أعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة إلى أن ألقى عليك درساً ، فنحن الاثنان أبناء سوق واحدة . . أنت تاجر وأنا تاجرة . . أنت رجل أعمال وأنا سيدة أعمال . . وإذا اعتبرت نفسك خبيراً اقتصادياً فأنا أيضاً خبيرة فى الاقتصاد . . والفرق بيننا هو فى نوع البضاعة التى نتحمل مسئولية تسويقها . . وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر فى تخصصه . .

قال فى حدة :

– إنى أقبل وقاحتك لأنه لم يعد هناك وقت لاستبدالك بغيرك . . و . .

وقاطعته ساخرة :

– إنها ليست وقاحة ، إنها مصارحة ، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا . . لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلتنى أو قتلت نفسك ولكننا الآن وحدنا . . أنت ترفض أن تتعرى أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك . . وأنا شريكتك هذه الليلة . . ومن حقى أن أعريك ما دمنا فى اجتماع مجلس إدارة . .

وقال فى ثورة :

– إنك لا تعريننى ولكنك تسرقيننى . . مائتا جنيه ثمن الثوب الذى ترتدينه فى السهرة . . هل هذا معقول . . مائتا جنيه . . ولمجرد أنى طلبت منك أن تظهرى فى مظهر لائق . .

وقالت فى هدوء :

– ليس لأنك طلبت المظهر اللائق . . ولكن لأنى درست كل شىء ، ولعلك تذكر أنى كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن نتفق على هذه العملية . . وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ وواسعة الثراء . . يملك ما لا حصر له من دولارات البترول . . وعرفت منك أنك تحاول أن تصل معه إلى صفقة سيارات نقل تصل قيمتها إلى حوالى خمسين مليونا . . الزبون مليونير والصفقة بالملايين . . ومهمتى هى أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب . . كيف أضعف مثل هذا الرجل ؟ .

وقاطعها ساخراً وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجدية التى تتحدث بها :

– وطبعاً الوسيلة الوحيدة لإضعافه هى أن تشترى ثوباً بمائتى جنيه . .

وقالت وهى تنظر إليه فى تأفف :

– لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاجراً صغيراً وأعتقد أنك لا تزال تعيش بعقلية التاجر الصغير ، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية . . إن هذا الثوب هو الفترينة التى تعرض فيها البضاعة . . وكلما أراد التاجر أن يقنع الزبائن بأن البضاعة غالية وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغرية لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم . . إن فترينة الملابس الشعبية غير فترينة الملابس الراقية . . وفترينة لعب الأطفال غير فترينة المجوهرات . . وهذا الثوب هو الفترينة التى أعرض فيها بضاعتى . . وقد اخترته حسب تقديرى لشخصية الزبون ، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوباً عارياً . . لا يكشف عن شىء من جسدى . . لماذا . . حتى أبدو أمامه كامرأة غالية ، فهذا النوع من الرجال يقضى كل ليلة وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات فى حين انه من السهل أن تقنعه المرأة بأنها غالية بمجرد أن تغطى جسدها حتى لو كان جسداً تعود على العرى . . إن الرجل يثيره ما لا يراه أكثر مما يراه . . يثيره خياله أكثر مما تثيره عيناه . . وهذا كله مع ثقتى بأن بضاعتى مثيرة للخيال حتى لو عرضتها داخل بطانية . .

وقال ساخطاً :

– ولماذا لم تشتر بطانية بدلاً من أن تغتصبى منى مائتى جنيه . .

وقالت فى تأفف :

– إنك لا تزال مبتدئاً . . وعقلك لا يزال ضيقاً . . إنك تؤمن بأن المظهر أهم من الواقع ولكنه إيمان تطبقه على نفسك فقط . . إنك تركب سيارة بويك ٧٦ وتشترى

ثيابك من لندن والكرفتات من كريستيان ديور وأحذيتك من إيطاليا . . والدعوة تقيمها الليلة فى الهيلتون ،وبرغم هذا فعندما دخلت بيتك أشفقت عليك . . إنها شقة فى الزمالك لأنك فى حاجة أن تقول إنك تسكن الزمالك تغطية للمظهر ، ولكنها فى داخلها تجمع قطعا من الأثاث المهلهل وفراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين عاما – والثلاجة التى رأيتها يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التى سبقت اختراع الثلاجات ، وحتى التلفزيون ، نصر . . وأنا أعرف أنك لا تدعو أحداً إلى البيت ، كل حياتك خارج البيت ، . . الخارج هو المظهر والداخل هو الواقع . . وقد أخذتنى إلى الواقع لأنك اعتقدت أنى أنا أيضاً أعيش فى نفس الواقع المهلهل المسكين . . لا . . آسفة . . إن بيتى أرقى مائة مرة من بيتك . . ورغم ذلك فإنى لم أدهش عندما رأيت واقعك . . إنه واقع كثير من رجال الأعمال خصوصا وهم يجتازون مرحلة ماقبل المليون الأول . . ولكنك تخطىء خطأً كبيراً إذا حاولت أن تبخل على بمطالب المظهر . . فأنا وأنت نقوم بعملية واحدة ويجب أن نكون فى مظهر واحد . .

وخبط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ :

– لا تقارنى نفسك بى . . أنت تعرفين من أنت . .

وقالت فى برود :

– أنا أعرف من أنا فعلا ، ولهذا فإنى أعتبر نفسى متساهلة وفى منتهى التواضع عندما أقارن نفسى بك . . أنا تاجرة وأنت تاجر ، ولكن مسئوليتى عن الزبون أشرف من مسئوليتك . . أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع . . والمجهول يبقى مجهولا مهما جمعت من تفاصيله ، أما الواقع فكله واقع . . إن تاجر الفاكهة يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها فى دكانه

عرضاً مغرياً ، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها وبرغم ذلك فعندما يأكلها الزبون قد لا يجد لها طعماً ، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولا . . انتهى دوره . . إنه مجرد سمسار بين البطيخة والزبون . . وكذلك أنت قد تحقق صفقة السيارات ومهما ضمنتها من شروط فهى مجرد عقد ينتهى دورك فيه بمجرد توقيعه . . مجرد سمسار بين الشركة والزبون . . وقد يكتشف الزبون وهو داخل السيارة أنها عاطلة أو ناقصة وأنت لست مسئولا . . أما أنا فشىء آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون حتى ينتهى من استهلاك البضاعة ، فإذا اكتشف فيها عيبا فقد لا يدفع الثمن المتفق عليه أو قد يؤذينى ، بل إنى أحياناً أعطى أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمئن إلى أمانتى فى البيع . . تجارتى ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو الخداع . . أما أنت . . أنت سمسار تقدمنى وتتفق مع الزبون ، أما أنا . . أنا البطيخة التى يأكلها الزبون ويجب أن تكون طبقاً للمواصفات وإلا ألقى بها من النافذة وماتت أقصد ضاعت . . هل فهمتنى . . إنى لهذا أعتبر نفسى متواضعة عندما أقارن نفسى بك . . .

وزفر أنفاسه قائلاً :

– لا أدرى لماذا أحتملك . .

وقالت ساخرة :

– لأنك فى حاجة إلىّ . .

قال :

– احذرى فإنى أستطيع أن أطردك فى أى لحظة . .

قالت مبتسمة :

– إنى واثقة أنك لن تطردنى الآن . . إن حاجتك إلىّ تجعلنى أنا الأقوى . .

هذا هو حكم الحاجة دائماً . . قانون العرض والطلب . . ربما بعد أن تنتهى العملية تطردنى لأنك تنتهى من حاجتك إلىّ . . ولن أفاجأ . . إنى أحسب حساب كل شىء . .

ونظر إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد :

– لم أكن أتصور أنك بهذه المادية . . ليس فيك ذرة من العاطفة . . خبرينى . . هل عرفت الحب يوماً ؟ .

وابتسمت كأنها تحتقره وقالت :

– إن الحب هو امتياز للأغنياء ، وليس مهنة للعاطلين . . هكذا قال أوسكار وايلد . . وأنا لست غنية حتى أعيش فى ملهاة الحب ، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش منها . . إن ما نمارسه شىء آخر غير الحب . .

قال :

– إنك تعرفين أيضاً أوسكار وايلد . .

قالت :

– قلت لك إنى تخرجت فى كلية الآداب . .

قال :

– ولماذا لم تحاولى أن تكونى شيئاً آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة ؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت :

– إن شهادتى تؤهلنى للفكر . . أن أفكر وأبيع أفكارى . . ولكنى اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو فى أى بلد آخر . . الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا . .

وقال فى استخفاف :

– لا أظن . . كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل . .

قالت :

– بالعكس . . اخترت الطريق الصعب . . إن اعتمادك على الفكر هو الأسهل . . ولكن أين تبيع هذا الفكر . . إن الشعب العربى كله لا يزال يعيش فى عصر الترجمة . . إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار . . حتى عندما يحاول أن يتقدم فى مأكولاته يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة . . انظر إلى آخر تطورات محال الأطعمة . . الهوت دوجز ، والويمبى ، وكانتاكى . . كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة . . لم يظهر فكر عربى يحاول أن يطور طعام العدس ، والفتة ، والفطير المشلتت بحيث يتماشى مع متطلبات الحياة الحديثة . . وحتى فى السياسة . . إن أبرز رجال السياسة فى البلاد العربية كلها لا يتميزون بشىء إلا أنهم مترجمون . . حتى النظم السياسية كلها نظم مترجمة . . تحالف قوى الشعب العامل نظام مترجم عن اليوغوسلافية . . والأحزاب والبرلمانات والرأسمالية والشيوعية كلها ترجمات . . حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكراً يكتشف لها نظاماً سياسياً خاصاً بها فترجمت النظام الغربى . . والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلى ولكنها لم تجد فكرة تعينها على تطويره ، وبدأ الإلحاح عليها بأن تقتبس هى الأخرى النظام السياسى الأمريكى . . وانظر إلى لبنان ، لقد كان يقال إن الشعب اللبنانى أكثر الشعوب العربية تقدماً . . وقد استطاعوا أن يكونوا فعلاً مركز السوق العربية . . ولكنها سوق لا تتعامل مع عمليات الخلق الفكرى ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أى مع البضاعة الأجنبية . . كل ما فى السوق مترجم سواء فى مجال السياسة أو فى مجال الاقتصاد

أو فى مجال الفن أو حتى فى المظاهر الاجتماعية . . إلى أن وقع لبنان فى مشكلة لم يجد لها حلاً مترجماً . . ولم يستطع الفكر اللبنانى أو الفكر العربى كله أن يجد حلاً لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندنا ، فاستسلم لبنان للانهيار . . وأنت . . أنت رجل الأعمال المحترم . . هل تعتبر نفسك مفكراً . ؟ للأسف . . أنت أيضاً مجرد مترجم . . إنى أعرف عشرات من رجال الأعمال يتبعون نفس أسلوبك ونفس خطواتك . . أنت مترجم حتى وأنت تدخل فى منافسات مع الآخرين . . إنك تنافس الآخرين كأنك فى حلقة ملاكمة . . ولا شك أن الملاكمة فى حاجة إلى ذكاء وحضور ذهن حتى تنتصر على خصمك ، ولكن اللعبة نفسها مترجمة . . لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية . . لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تبتكر لعبة جديدة فأنت لست مفكرا . . أنت مترجم . .

وصرخ فى وجهها :

– إنى لم أدعك لتلقى على محاضرة فارغة . . وسواء كنت مفكراً أو مترجماً فأنا على الأقل متمسك بالشرف . . شرفى . . أما أنت . .

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

– الشرف . . أرجوك . . لا تضحكنى . . إنك تدعونى لتبيع ليلة لأحد عملائك . . أنا البضاعة وأنت التاجر . . فمن منا الذى يبيع الشرف . . ما ذنب البطيخة إذا حقنها تاجر الفاكهة لتبدو فى داخلها حمراء . . من الغشاش البطيخة أم التاجر . . ثم ما هو الشرف . . لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المعنى الجديد للشرف . . لم يعد الشرف يتركز فى مكان واحد من الجسد . . الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه . . الشرف هو عدم الاعتداء ، وهو عدم الإيذاء ، وهو الترفع عن الغش . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية

الاجتماعية التى فى الدول المتحضرة لا تعنى الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعنى وضع الشرف فى معناه الصحيح . . وصدقنى . . هذا المعنى المترجم أصبح سائداً فى كل الشعوب العربية حتى وإن بقى فى بعض المجتمعات سراً لا يعلن عنه . .

وقال فى تأفف :

– أن تكونى كل ليلة فى فراش رجل . فأنت لا تزالين شريفة . .

وقالت دون أن تغضب :

– هذا صحيح ، مادمت لا أعتدى ولا أغش . . وأنت تخلط بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك . . الشرف هو إرادة فردية ، كل فرد يفسر الشرف كما يريد ، أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين . . قد أتفق مع رجل على أن يمتلكنى ليلة واحدة وقد أتفق معه على أن يمتلكنى العمر كله . . كل شىء له ثمن . . ثمن مالى وثمن اجتماعى . . والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أى الزواج ، هو الفرق فى الثمن . . لا تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية . . إنه مجردعملية تجارية . . وجميع الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية . . عملية يحكمها الثمن وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن . . هل تدرى . . لقد قرأت أخيراً أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتى لهن دخل خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتى لا يعملن وليس لهن دخل خاص . . أتدرى لماذا . . لأن المرأة التى لها دخل خاص أقل احتياجاً للارتباط بعقد الزواج . . أقصد الاحتياج المالى والاجتماعى . . ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك . . أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقيم لنفسها علاقة خاصة مع رجل آخر بجانب زوجها . . إنهم يقولون إن النساء الفقيرات أشرف من النساء العاملات

أو الثريات . . لا . . لسن أشرف . . كل ما هناك أنهن لفقرهن أكثر استسلاما لملكية الرجل . . وهناك رجال كثيرون لا يمكن أن ينالوا امرأة إلا فى حدود الشرع والقانون . . شرف . . إن بينهم واحداً تزوج خمساً وأربعين إمرأة . . شرف . . ياصديقى صدقنى ليس للشرف دخل فى كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وضعته الأديان والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك . . مجرد تنظيم تجارى . .

وقال ساخراً :

– معنى هذا بالنسبة لك أن ثمن الامتلاك ليلة واحدة يدر عليك دخلاً أكبر من ثمن الامتلاك طول العمر . . أى ثمن الزواج . .

قالت فى بساطة :

– لا . . إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة . . وأنا إلى الآن أفضل الأعمال الحرة . . لم ألتق بالرجل الذى يغرينى بالوظيفة . . وظيفة العمر . .

وقام من أمامها فى زهق وأخذ يخطو داخل الغرفة :

– تأخذين منى مائتى جنيه ثمناً لثوب واحد ثم تلقين على درساً فلسفياً . .

وقالت وهى تقوم كأنها تجرى وراءه :

– عدنا إلى المائتى جنيه . . يا صديقى الجاهل صدقنى أن هذا فى صالح العملية . . لقد اشتريت ثوباً بمائتى جنيه ولكنى مثلاً لم أشتر حذاء . . انظر . . إنى أضع فى قدمى حذاء قديماً لا يساوى أكثر من خمسة جنيهات . . لماذا . . لأن الحذاء لا يعتبر الليلة مؤثراً فى المظهر ، فالثوب الذى اشتريته طويل سيغطيه ثم إن ضيفك من هذا النوع من الرجال الذى لا يهمه أن ينظر إلى حذاء المرأة لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حذائها . . ثم إنى أعفيتك من شراء الحلى التى أعتمد عليها فى تزيين هذا الثوب . . كنت

أستطيع أن أصر على شراء عقد أو سوار أو خاتم حتى لو كان فالصو . . فإن صديقك من الرجال الذين لا يفهمون فى البترول ولا فى المجوهرات برغم أنهم يملكون بترول العالم ومجوهراته ، ولن يستطيع أن يميز بين الفالصو والحر . . وقد اكتفيت بالحلى التى أملكها فعلاً ودفع ثمنها رجل غيرك . . كل هذا لأوفر عليك ، لأنى أعلم أنك لا تزال فى بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول . . المهم كيف ستقدمنى إلى ضيفك ؟

وقال فى سذاجة :

– ماذا تقصدين ؟

قالت كأنها ضاقت بغبائه :

– أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه ؟

قال فى زهق :

– كأنك تتصورين أننا فى طريقنا إلى حفل دبلوماسى . . إنى لست فى حاجة إلى تقديمك . . إنه سيفهم كل شىء بمجرد أن يراك معى . .

وقالت كأنها تبصق فى وجهه :

– أنت عبيط . . لم أكن أتصور أنك جاهل بكل شىء وإلى هذا الحد . . إنى مضطرة أن ألقى عليك درساً آخر . . أرجوك استمع لى بانتباه فهو درس مهم . . إن هناك أكثر من صورة نستطيع أن نبدو بها أنا وأنت . . فإذا كانت العملية صغيرة تافهة أو كانت مجرد لقاء للدردشة فتستطيع أن تقدمنى كصديقة . . مجرد صديقة عابرة . . وهذا يعطى لضيفك الحق فى أن يغازلنى من اللحظة الأولى ويستأذنك فى أن يأخذنى منك . . وإن كانت العملية أكبر قليلا . . أى صفقة صغيرة . . فإنك تقدمنى فى هذه الحالة على أنى صديقتك الخاصة أى عشيقتك . .

وتتظاهر بأنك فى حالة حب معى . . هذا من شأنه أن يرفع ثمنى ويجعل صديقك يدفع أكثر لأنى سأبدو أمامه امرأة أصعب فى الوصول إليها . . أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلاً فإنك تقدمنى إلى ضيفك على أنى أختك أو ابنة خالتك ، لأنى أنقلب فى هذه الحالة فى خيال الضيف إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلا فى حماية عائلية أو كما يقولون فى حماية محرم . . وبذلك يصبح الثمن أكبر ويصبح التأثير على ضيفك حتى يتم العملية أسهل علىّ . . أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعملية التى تقوم بها اليوم فإن الطريق الصحيح هو أن تقدمنى إليه على أنى زوجتك . .

وقاطعها صارخاً :

– هل جننت . . هل تتصورين أن يصل بى الأمر إلى هذا الحد . . أن تكونى زوجتى . . والله ولا مائة مليون دولار . .

وقالت فى هدوء :

– أرجوك . . استمع فى هدوء ، إنى لا أطلب منك شيئاً ولكنى ألقى عليك درساً فى مهنة رجال الأعمال . . إنى عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرنى جزءاً من الصفقة . . أى إذا كانت العملية تساوى مليوناً ونصف مليون دولار فهو مستعد أن يوقعها بمليون فقط والباقى لزوجتك . . أى أنا . . إن الزوجة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة . . ولكننا فى هذه الحالة فى حاجة إلى عدة إجراءات مكملة . . فيجب مثلاً أن ندعو معنا إحدى صديقاتى حتى نبدو كأننا أبرياء وأنك لم تأخذنى إليه وإنما معنا امرأة أخرى لتجالسه وتهتم به . . ولا تخش شيئاً فإنى مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبنا وسيضطر أن يبذل مجهوداً أكبر حتى يصل إلىّ ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر . . وفى هذه الحالة

فإنى يجب أن أضع على كتفى معطف فيزون حتى أبدو كأنى فعلاً زوجتك . . لا تخش شيئاً . . لن تدفع ثمن الفيزون . . ولكننا . . سنستأجره . . إن لى صديقة تؤجر معطفها الفيزون كما تؤجر شقتها المفروشة . .

وقال ساخراً :

– وطبعاً . . بما أننى قدمتك كزوجتى فإنى مضطر بعد ذلك أن أتزوجك فعلاً حتى لا ينكشف أمرى أمام الرجل الذى يمكن أن يستمر تعاملى معه سنوات . . هذا ما تسعين إليه . . هذا أبعد من كل أحلامك . .

وقالت فى تأفف :

– إنك رخيص . . إنك أغبى من أن تفهم . . لماذا أتزوجك فعلا . . ما مصلحتى . . لقد اشتركت فى عملية منذ سنتين وكان صاحبها يقدمنى فى مجتمع الأعمال على أنى زوجته . . وكان فعلاً رجلاً ممتازاً رائعاً . . واستطاع وهو معى أن يحقق ثلاث صفقات ضخمة ، وكان دائماً يعترف بفضلى ويعطينى حقى ، وبعد الصفقة الثالثة طلب منى أن يتزوجنى فعلاً . . قال لى إن المجتمع العالمى أصبح يظن أننا أزواج فلنحقق ظن العالم . . ولكنى رفضت . . لماذا . . لأنى أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فإنى سأصبح أقرب إلى موظفة عنده . . ثم إننا تعودنا على أن نكون معاً بلا زواج وربما بعد أن نتزوج يزهق ويضيق أحدنا بالآخر . . بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة إلىّ لذلك تركته . . أصبحنا مجرد أصدقاء . . وعندما يسأله أحد عنى يجيب بما يفهم منه أننا انفصلنا بالطلاق . . ولكنه كان نوعاً آخر من رجال الأعمال غيرك . . كانت كل أعماله فى الخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باريس أو نيويورك . . ومجتمع الخارج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعى أننا

زوج وزوجة . . أما أنت . . إنك لا تزال رجل أعمال محلياً والأعمال المحلية تبقى دائماً فى مستوى تافه ضئيل . .

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال فى تردد :

– وكيف تريديننى أن أقدمك إليه . .

وقالت فى زهق :

– لقد شرحت لك كل أساليب العمل . . وعليك أن تختار الأسلوب الذى تقتنع به . .

وصمت طويلا وهو يفكر ثم قال :

– اسمعى . . لن أقدمك إليه بأى صفة . . لا زوجتى ولا عشيقتى . . ونتركه يفهم ما يريد . . ولكننا سنصحب صديقتك معنا ونتركه يفهم أنها له وأنك لى . .

وابتسمت قائلة :

– بدأت تثبت أنك لست غبياً كما تصورتك . .

* * *

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهى بجانبه فى السيارة عائداً بها إلى بيتها :

– طلب منى أن أحادثه فى التليفون . .

وقال فى دهشة :

– متى طلب منك . . لم أسمع شيئاً . .

قالت ضاحكة :

– إنك عندما تأكل لا تسمع . . بطنك أقوى من رأسك . . وتصور . . إنه لم يطلب من صديقتى أى موعد . . اسمع . . إن حديثى معه فى التليفون

قد يستمر ثلاثة أو أربعة أيام . . وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأنى لا أستطيع أن أقابله فى جناحه بالفندق . . ولن أقابله وأعطيه شيئاً إلا قبل أسبوعين وفى خلال الأسبوعين يجب أن تكون قد انتهيت من الصفقة . . هناك خوف على الصفقة لو أعطيته نفسى قبل أن تتم يجب أن يدفع مقدماً . . ويجب أن تدعوه معنا كل ليلة أو نتركه يدعونا وستكون صديقتى معنا دائماً . .

وقال :

– كيف ندعو صديقتك وأنت تقولين إنها لم تعجبه ؟

وقالت :

– لا تكن غبياً . . اترك هذا الموضوع لى . . سأقول له إنى أتعمد دعوة صديقتى لأنى أعرف أنها لا تعجبه فلا أغار منها عليه . . هذا يجعله أكثر سعادة وأشد انجذاباً . .

* * *

وبعد أيام اتصل بها فى التليفون وهو يصيح مهللا فى فرح :

– تمت الصفقة . . وقعنا العقد . .

وقامت فى برود كأنها انتهت من عملية عادية :

– مبروك . . وسألقاه غداً فى الشقة التى استأجرها . .

قال كأنه يزغرد :

– سألقاك الليلة وحدنا وسنقيم احتفالاً خاصاً بالنجاح . .

وقالت :

– لا . . الليلة سأسهر مع صديقتى ميمى . . إنها ثائرة على وأنت تعرف ميمى . . إذا ثارت فربنا يستر . . اذهب أنت إليه وحدك . . لا يصح أن

تهمله بعد توقيع العقد . . وقل له إنى فى زيارة أمى لأنها مريضة وسأكون قد حدثته بالتليفون . .

° ° °

وكان جالساً فى الصباح يملأ عينيه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية ، تحمل إعلاناً عن العقد الذى وقعه باستيراد سيارات النقل . . وصورته وهو يوقع العقد وبجانبه الضيف الكبير ومعه المسئولون من كبار الموظفين . . وكلهم يبتسمون . .

لقد وصل . .

حقق المليون الأول . .

عقبال المليون الثانى . .

وأخذ يقلب فى صفحات الجريدة وكل نبضاته تخفق بالسعادة . . وفجأة اتسعت عيناه فى دهشة . . إنها هى . . صورتها . . وهذه صورة صديقتها . . ثم هذه صورة السيدة ميمى . . إن بوليس الآداب هـاجم منزل ميمى وقبض على من فيه من النساء . . . .

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يدارى فضيحة . . وهمس كأنه يواسى نفسه :

— البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء . .

تائه بين السماء والأرض

كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينمائى ، وقد سبق أن طالبت بأن نعترف بأدب السينما كما اعترفنا بأدب المسرح ، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب . .

وقد حدث أن اتصل بى الأستاذ عبد الحليم حافظ باحثاً عن قصة ينتجها سينمائياً ويمثلها . . وقلت له :

– لماذا لا نستلهم قصة حياتك ؟

وبدأت أكتب من وحى قصة حياة عبد الحليم حافظ دون أن أكون مؤرخاً له ، إنما أطلقت لخيالى حرية تصور الحياة التى اختارها عبد الحليم ، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أنى جعلت البطل يغنى باللغة الإنجليزية والفرنسية معبراً بذلك عن العقدة التى يعانى منها كل الفنانين والتى يمكن أن تسمى عقدة « عمر الشريف » فكل منهم يريد أن يكون عالمياً ويمثل أو يغنى باللغة الأجنبية كعمر الشريف . .

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينمائى يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة ، وهو فى الأصل عمل جماعى يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل ، والممثلة . . و . . و . . وكل هذا بعكس الأدب المجرد أو الأدب المقروء الذى يتم فى مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده . .

لذلك فهذه القصة السينمائية التى يقرأها القارئ لن تكون أبداً هى نفس الفيلم الذى يشاهده المتفرج ، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردى عن العمل الجماعى . .

١

كنت جالساً على مقعدى بين أعضاء الفرقة الموسيقية والناى بين أصابعى وقد أسندته فوق ركبتى وكل عينىّ مركزتان على صلاح وهو يغنى . . لم أكن أتطلع إلى الجمهور الكبير الذى يستمع ، رغم أنه جمهور يضم كل الشخصيات الكبيرة فى البلد . . ونحن الموسيقيين . . نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء الحفلات الغنائية . . الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب . . ونحن أيضاً ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية . . إلا إذا قام واحد منا ليعزف « سولو » بمفرده . . فنركز نحن والجمهـــور اهتمامنا عليـــه . . ولم أكن أيضاً أركز اهتمامى على الناى الذى أحمله بين أصابعى . . إن هذا الناى . . عود البوص الهزيل المتواضع . . هو كل حياتى . . ورغم ذلك ففى هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامى كثيراً . . فالفترات التى سأشترك فيها بالناى خلال اللحن . . متباعدة . . وحفظها غيباً إلى حد أن أذنى أصبحتا تستطيعان أن ترفعا يدى بالناى إلى شفتى بمجرد أن يأتى دوره . . دون أن أحتاج إلى تركيز ذهنى عليه . . وحتى الفقرات التى وضعت لأعزفها « سولو » كانت متمكنة منى إلى حد أنى أقف من تلقاء نفسى وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترقب والانتظار . .

كل ما فى كان مركزاً على صلاح . . وكان صلاح يغنى كعادته وكأنه يغنى لكل واحد من هذه المئات المتجمعة من أمامه . . فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته . . ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس فى آخر صف من الصالة العريضة . . إنه ينسى وهو يغنى . . ينسى كل شىء . . إلا مسئوليته عن فنه . . ينسى مسئوليته عن نفسه . .

واستدار صلاح مواجهاً الفرقة الموسيقية وظهره للجمهور . . إن صلاح يستدير أحياناً ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية . . ولكنه غالباً ما يستدير ليلتقط أنفاسه وظهره للجمهور . . إنه إنسان عادى من حقه أن يريح أنفاسه ويعيد التقاطها ويريح ابتسامته ، ويريح نظرات عينيه من الأضواء المسلطة عليها ومن افتعال القوة والجمال والأمل الذى يبدو دائماً فى الصور الفوتوغرافية التى تلتقط له أو هو واقف أمام الجمهور الذى يغنى له . .

وأنا جالس فى الصف الأول من الفرقة الموسيقية ، وعندما يستدير صلاح يواجهنى مباشرة . . وجلستى فى منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعى الذى يتطلبه التوزيع الموسيقى لآلة الناى ، ولكن أيضاً لأننى أصر على أن أكون دائماً بجانب صلاح . . وتطلعت بكل عينى فى وجه صلاح .

لا أحد يستطيع أن يرى فى وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا . .

وهمست إليه همسة أقرب إلى الأمر :

– اشرب قليلا من الماء . .

ومددت يدى تحت مقعدى حيث أتعمد دائماً أن أحتفظ بكوب من الماء . . ولكن صلاح ابتعد عنى بسرعة واتجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار

والأورج وأخذ يقودهما بتأشيرات ذراعيه . . لعله لم يسمع همستى . . أو الأرجح أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفتيه الابتسامة الواسعة وفى عينيه بريق القوة والجمال والأمل .

وأنهى صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية ، أى يواجهنى . . وجهه يملأ عينى . . وذعرت . . استولى علىّ نوع من الخوف أقرب إلى الفزع ، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة . . وقلت وأنا لا أتعمد الهمس ولكنى أكتم الصراخ . .

– لا تكرر الكوبليه . . ادخل فى الكوبليه الثانى وبسرعة . . اختم بسرعة . .

وكان مفروضاً فى هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناى سولو . . وكنت قد تعودت أن أطيل عزف هذه الفقرة . . وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير . . ولكنى فى هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأنى تلميذ بليد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها . . وأنهيتها بسرعة وجلست ، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلح على طويلا كعادته فى إعادة الفقرة ، والتصفيق لى تصفيق بارد . .

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكوبليه التالى . . ولكن الجمهور اشتد صراخه وتصفيقه مطالباً بالعودة إلى الكوبليه السابق من الأغنية . . وإذا بصلاح يستسلم للجمهور . . للناس . . الناس الذين لا يستطيعون أن يروا فى خطوط وجهه ما أراه أنا . . ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ فى إعادة غناء الكوبليه السابق . .

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكوبليه وواجهنى . . مد يده إلىّ وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته رغم أنها أصبحت ابتسامة ضعيفة لأن ظهره للجمهور . . وفهمت أنه يريد كوب الماء . . ولكنى ما كدت أمد يدى إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عنى . . لقد غير رأيه . . لن يشرب جرعة الماء . . وابتعد عنى إلى الناحية الأخرى من الفرقة . . وانتهت الأغنية . .

إن الفقرة الأخيرة أيضاً كررها صلاح ثلاث مرات . .

. . والتصفيق . . .

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور . .

ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة . . وبين شفتيه ابتسامة ضعيفة . . يقاوم كثيراً ليحتفظ بها كأنه يهديها لنا . . وجفناه يتأرجحان فوق عينيه . . وهو يميل فى وقفته كأنه يبحث عن شىء يستند عليه ، ثم مرة واحدة سقط . .

. . سقط على الأرض . .

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفتيه .

وركعت بجانبه . . لم أبك . . ولم أكن أنتظر دموعى . . فإنى كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث . . وكنا كلنا نعرف تعليمات صلاح فى مثل هذه الحالة . . الصمت . . لا أحد يتكلم . . لا يجب أن يعرف غريب وخصوصاً من الصحفيين ما حدث . . وتلكأ أعضاء الفرقة الموسيقية . . إلى أن دخل بس سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذى يصاحب صلاح دائماً . . وأعطاه حقنة فى فخذه أوقفت النزيف بسرعة . . ثم استطاع أن يقوم واقفاً واستند علىّ حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح ، وتركناه للطبيب . . وأفراد كثيرون من

الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح . . وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ونترك للنكات الضاحكة أن تنطلق :

ومرت ساعة . .

وخرج صلاح من الغرفة ومعه الطبيب الذى لا يعلم أحد أنه طبيب . . وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار . . ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد ليواجه جمهوره كله بابتسامة تملأ وجهه . . وخطواته مرحة . . ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل . .

وركب سيارته . . وصمم أن يسوقها بنفسه . . وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواقة :

– دعنى أسوق أنا يا صلاح . . طول عمرى وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة . . إنها سيارة متعبة مثلك وأنا متخصص فى المتعبين . .

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة بنفسه . . ويشير للجمهور الواقف محييا بذراعه . . ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت . .

وما كاد يرى فراشه حتى انهار . .

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه . .

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدره . . ودمعتان ضعيفتان تنزلقان من عينيه كأنهما تواسيانه فى آلامه . .

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت . .

إن فاطمة مثلى . . إنها تستطيع أن بمـا سيحدث لصلاح قبل أن يحدث . . إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه . . إنها تعتمد على هاتف إحساسها ، هاتف الحب . . إنها تحبه إلى حد إنها ترى داخله حتى وهى

بعيدة عنه . . وهى دائماً بعيدة . . إن صلاح لا يريدها أبداً أن توجد بين الناس فى حفلاته . . يريد أن يحتفظ بها فوق الناس . . يريدها له وحده . . أنانية الفنان . .

والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه . . وأنواع متعددة من الدواء . . الإبر . . والحبوب . . وما يذوب . . وما لا يذوب . . ثم انتهى بعد وقت طويل . . وهو يقول له فى حدة . . كأنه يهم أن يصفعه :

– قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة . . ولكنك لم تسمع الكلام . . اسمع . . أمامك ثلاثة أسابيع ترقدها فى الفراش . . سامع . . ثلاثة أسابيع . . بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولا عنك بعد اليوم . .

وأمرنا الطبيب أن نخرج كلنا من الغرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء منوماً لينام رغم أنفه . .

وعدت إلى بيتى وكل ما فى رأسى هو هذه الأسابيع الثلاثة التى فرض على صلاح أن يقضيها راقداً فى فراشه . . إنى أعلم أن صلاح مرتبط بأكثر من حفلة خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، أقربها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين . . ولكن لا شك أنه سيعتذر . . إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له . . لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بأزمته وهو فوق خشبة المسرح . . لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام . . أما أن يصاب بها وهو على المسرح . . فهذه هى المرة الأولى . . ولعلها تكون درساً له . . فإنى أعلم أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضاً . . ولن يعرض نفسه لمرضه مرة أخرى وهو أمام الناس . .

واعتذر صلاح فعلاً عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء . .

إلى أن صدمت . .

كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطبيب . . وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالا ، وكان مطيعاً فعلاً لكل التعليمات . . لا يتحرك من فراشه ويسأل بنفسه عن الدواء . . مرتاحاً هادئاً . .

كان أحياناً عندما أكون معه يكلفنى بمهام تافهة . . حتى كان يخيل إلى أنه يتعمد أن يبعدنى عنه . . وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة . . ومع أصدقائه . .

إلى أن كان صباح يوم الخميس . .

وذهبت إليه فى الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتى . . إنه ليس فى البيت . . وفاطمة جالسة تبكى . . إنها لا تعرف أين هو ؟

ولا أحد فى البيت يعرف . لقد خرج كأنه هرب . . لم يره أحد وهو يخرج . .

وكنت أنا أعرف . . واكتشفت أنه خلال رقاده فى فراشه كان يتخلص منى أنا وفاطمة ليتحدث فى التليفون . . وليس هناك إلا جهة واحدة يهمه أن يتحدث معها فى التليفون ، الجهة التى يحتاج إليها . .

وذهبت إلى نادى الفرقة الموسيقية . .

ورأيته أمامى واقفاً بين أفراد الفرقة الموسيقية يجرى بروفات على أغانى الحفلة التى كان مقرراً أن يقيمها الليلة لصالح مشروع بيت الطلبة . .

وابتسمت فى يأس . . لا أمل . .

وفتحت حقيبتى . . وأخرجت أعواد الناى . . وأخذت مكانى بين أفراد الفرقة . . ولم يقل لى صلاح شيئاً كأنه لم يفعل شيئاً . .

إنها قصة طويلة . .

قصة بدأت منذ كنا أطفالا . .

* * *

٢

. . لقد ولدت مع صلاح فى قرية واحدة . . كفر ممونة . . وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه منذ كنا فى عمر الصبا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية . . ربما لم يكن يحاول . . ولكن حيويته التى لا تهدأ ، وشقاوته الجريئة التى كانت تثير الغيظ أحياناً والضحك أحياناً . . كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله ، أحياناً لمشاركته اللعب وأحياناً للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايخة . . وأنا شخصياً كنت أحس بارتباطى بصلاح دائماً . . كنت أحب شقاوته . . وأحب جنونه وجرأته . . وأحب ذكاءه . . ودائماً معه نلعب الكرة الشراب أو نتسلل إلى حقول الذرة لنسرق ونأكل أو نتسلل إلى الجاموس والبقر المنتشر بين الحقول بعيداً عن أصحابه لنمتص اللبن بشفاهنا من أثدائها . .

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلاً هو العوم . . العوم فى الترعة . . والعوم فى القناة . . وأحياناً لا يعوم ولكنه يلقى بنفسه فى قناة صغيرة بعد أن يخلع ثيابه وينام فى الماء وكنا نعلم أن هناك شيئاً اسمه بلهارسيا . . كل أهل القرية يعرفون البلهارسيا . . ويعرفون أن سمومها ترقد فى مياه الترع والقنوات . . ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون فى مياه الترع والقنوات . . وأنا مع صلاح دائماً فى الترع وفى القنوات . . مع البلهارسيا . .

ولم يكن كل ذلك هو أقوى ما جمعنى بصلاح . .

كان هناك ما هو أقوى . .

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعى معروفاً فى القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة . . ولم يكن يغنى . . كان شخصية محترمة فى القرية يمتلك عشرة أفدنة . . وأحياناً يستأجر عشرين فداناً عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشا . . وربما لهذا واحتفاظاً باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغنى . . إنما كانت كلما مرت بالقرية فرقة من الفرق الفنية الجوالة تضم مطرباً يدعوها الحاج عبد الله إلى دواره ويقيم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب . . وكان أهل القرية – كلهم – يجتمعون وهم فى انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب . . فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها فى أدب واتجه إلى داخل الدوار وترك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوى آذان الحاج عبد الله . . أما إذا ابقى الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فمعنى هذا أن المطرب يستحق . .

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله فى أنه يتولى بنفسه أداء أذان الفجر . . فى كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة . . وكان صوته أعجوبة . . إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب دينى ، فهو ليس مؤذناً ولا إماماً للمسجد . . ولكنه فنان . . إنه مطرب . . إنه صوت غال نادر . . ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليد مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح مطرباً مشهوراً فى مصر كلها . . ولكنه كان مصمماً على أن يحتفظ بشخصيته فى القرية وبكل التقاليد القديمة المفروضة على هذه الشخصية . وربما كان يغنى أغانى عادية بينه وبين نفسه . . ولكن لا أحد يسمعه ولا أحد سمعه إلا وهو يؤذن أذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطى فنه إلا لله حتى لو حرم منه الناس . . وفى مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله

أن يلقى أذاناً آخر . . وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة . . كنجاح محصول القطن ، أو انفراج أزمة . . يقبل أن يلقى أذان العشاء بجانب أذان الفجر . . ومرة واحدة فى عمره كله ألقى أذان الصلوات الخمس . . ألقاها كما لم يسمعها مسلم من قبل . . ألقاها ودموعه بين عينيه . . وكان هذا يوم توفيت أم صلاح . .

وكان صلاح عندما نكون معاً وحدنا يقف ويقلد والده فى الأذان . . وكنت أيامها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صراصير الليل بجانب صوت أبيه . . ولكن صلاح كان يبدو متمتعاً منفعلا فعلا وهو يقلد أباه . . وكان يقلده دائماً فى الخفاء خوفاً من أن يصل الخبر إلى أبيه فيفسره بأن ابنه يستهزئ به . . ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتفى فى خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ويردد مواويل وأغانى الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه فى جلساتنا مع أولاد القرية أثناء الليل . . وبدأنا نحبه وهو يغنى . . لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدره كفنان . . ولكننا كنا نتركه يغنى أن نطلب منه أن يغنى . . لنغنى معه . . وغالبا ما يرتفع صوتنا على صوته . .

ولم يجرؤ صلاح أبداً على أن يغنى أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغنى . . رغم أنه قطعاً ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه ، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحاذين ، وهى التقاليد التى حرمت على والد صلاح نفسه أن يغنى وأجبرته على الاكتفاء بأداء أذان الفجر ، وهى نفسها التقاليد التى كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أى شىء إلا أن يكون مطرباً . . وربما كان كبقية آباء الريف يصل غاية ما يتمناه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهمية وقوة ضباط البوليس بين قرى الريف . .

وأنا . . أنا ليس فى عائلتى أى تراث ولا أى ظاهرة موسيقية . . ولكنى وجدت

نفسى منذ صباى أمد يدى إلى أعواد البوص وأحاول أن أنفخ فيها أنفاسى لتصبح نغما . ثم بدأت أقلد الذين يصحبون الفرق الريفية من عازفى الأرغول والناى . . أبحلق فى أصابعهم وهى تتحرك فوق ثقوب عود البوص بل إن أول ناى حاولت أن أعزف عليه صنعته بيدى تقليدا لما كنت أراه فى أيدى العازفين . . ورغم ذلك فلولا ارتباطى بصلاح منذ صبانا لما أصبحت الآن عازفاً محترماً للناى . . إلى أن دخلنا المدرسة الابتدائية . .

وانتقلنا . . صلاح وأنا . . لنقيم فى المركز ، ورغم أنى أكبر منه سناً فقد كنا معا فى سنة دراسية واحدة . . ربما لأنى أصلا لم أكن من هواة دخول المدارس . . كان حلم صباى أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف الناى وصلاح يغنى لى . .

وفى المركز انطلقت هوايتنا . . وانطلق بنا الفن إلى آخره . .

كان صلاح يغنى ليل نهار ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، وأنا أعزف الناى كلما استطاعت أصابعى أن تصل إلى ثقوبه . . بل إننا ، صلاح وأنا ، بدأنا نحاول أن نعزف ونغنى أى شىء نصل إليه . . صلاح حاول أن يغنى باليونانى تقليداً لبقال جريكى كنا نتردد عليه ، وحاول أن يعزف الأكورديون والبيانو ، والكمان ، والأرغول . . و . . و . .

كل ذلك دون أن يخطر على بال أحدنا أنه يرسم لنفسه مستقبلا فنياً . .

وأذكر أننا كنا فى زحام مولد سيدى البرانى ، وانفصلنا مع بقية الطلبة إلى مكان بعيد وبدأ صلاح يغنى والطلبة تصفق وأنا أعزف الناى . . وكلنا نضحك . . ونقطع الأغانى لنتبادل الشتائم التى كنا نعتبرها نكات . . وتجمع بعض الناس حولنا يستمعون . . إلى صلاح ويغنون معنا . . ويضحكون معنا . . وكان من

بين من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للبنات ، كن متباعدات فى خجل يتضاحكن الضحكات الخجولة المثيرة . . وغنى صلاح إحدى الأغانى الريفية المعروفة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يغنى معه . . صوت خجول . . يغنى كلمتين ويسكت . . ثم يعود يغنى . . ولكن الطالبات ابتدأن فى الإلحاح على الفتاة أن تغنى مع صلاح . . كأن البنات قررن أن يتحدين فى الفن الأولاد . .

ونحن أيضاً بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمعه . .

وغنت الفتاة . .

بل اشتركت مع صلاح فى أغنية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة كل منهما يرد على الآخر بمقطع منها . .

وكانت هذه الفتاة هى فاطمة . .

ولم نعرفها يومها . .

وسأل صلاح بعدها عنها كثيراً . . ربما كانت ابنة موظف من موظفى المركز أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور . .

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة البنات بحثاً عن هذه الفتاة التى لم نكن نعرف أن اسمها فاطمة . .

ولكن صلاح لم يعثر عليها أبداً . .

وفى هذا العام . . ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية . . توفى الحاج عبد الله والد صلاح وفى صباح يوم الوفاة . . ودون أن يبلغ صلاح أحداً ، أو يستأذن خاله الذى أصبح مسئولا عن العائلة . . أو أخاه الأكبر . . وحتى دون أن يقول

لى . . صعد فى الفجر إلى مئذنة جامع الكفر . . وأذن للصلاة . . كما كانت عادة أبيه . . كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أباه لم يمت ، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه ، أو كأنه كان يريد أن يرسل تحية لأبيه فى قبره . . وذهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤدى الأذان . . واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتاً أقوى وأحلى وأداء لم تسمعه القرية من قبل . . وبدأوا يلتفون حوله فى ليالى المآتم . . ويطالبونه بأن يقرأ القرآن . . أو أن يعود ويؤذن لبقية الصلوات . . ولكن صلاح كان يرفض . .

إلى أن عدنا إلى المركز . . إلى المدرسة . .

وبدأ صلاح يبدو فى شخصية جديدة . . لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التى تقيده . . ويحسب حسابها . . ويخفى عنها حقيقة ميوله ومطمع أحلامه . . وقد تحرر بعد وفاة والده . . وأصبح يجاهر بفنه المتمكن منه ، ويركز كل ذكائه وكل جرأته وأحيانا كل جنونه على ممارسة هوايته . .

ولكنه لم يكد يبدأ فى انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى . .

البلهارسيا . .

والبلهارسيا كانت قد أصبحت فى الريف مرضاً عادياً كالزكام أو الصداع . . ولكن صلاح لم يكن ينتظرها . . لم يعتبر نفسه مسئولا عنها رغم السنوات الطويلة التى قضاها فى مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبلهارسيا . . لقد كان غروره بنفسه يرفض أن يدعه يعترف بأنه السبب فى أى مصيبة تحدث له . . لذلك مرت شهور وصلاح منزو ، منهار ، ساخط على كل شىء ، يعالج نفسه من البلهارسيا . .

وشفى . .

لا . . إننى بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعا بأنه لم يشف . . وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته يتسرع ويهمل فى علاج نفسه ، وبمجرد أن انقطع الدم الذى كانت تنزفه البلهارسيا اعتبر نفسه وكأنه شفى تماماً ولم يعد فى حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج . .

وكان الانطلاق الذى اندفع فيه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتفى بالاشتراك فى الفرقة الموسيقية التى تجمع بين الهواة من طلبة المدرسة ، والتى أصبح بها مطرب المدرسة ، ولا يكتفى بالغناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التى يستطيع أن يغنى فيها . . ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شىء إلا إشباع هوايته . . لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يغنى ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية . . مجرد لعب . .

ودائماً كان يسأل عن فاطمة . .

ولم يعلم عنها شيئاً أبداً . . حتى من صديقاتها اللائى كن معها يوم رآها . . ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز ، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد . إلى أن انتهينا – هو وأنا – من المدرسة الابتدائية . .

وفى فترة الصيف قضينا أيامنا فى القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا . . وكان المفروض أن المستقبل كله ينحصر فى التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية .

ولكن لا صلاح ولا أنا ، نريد أن نضع أنفسنا بين حوائط المدارس . . نريد ان ننطلق . . أن نجرى . . أن نجرب . . وتركزت كل أحلامنا فى الالتحاق بالمعهد الموسيقى الذى كنا نسمع عنه . . أى أن نهاجر إلى القاهرة . . ولولا أننا كنا مجبرين على أن ندخل المدارس . . أى مدرسة . . لما فكرنا حتى فى الالتحاق

بالمعهد الموسيقى ، ولانطلقنا نغنى ونعزف فى كل البلاد كأى فرقة من الفرق الريفية . . إلى هذا الحد كان صلاح يريد أن يمارس فنه ، ويمتع به نفسه قبل أن يمتع به الناس . . وإلى هذا الحد كنت متأثراً ومقتنعاً بكل ما يخطر على بال صلاح . .

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة ، فقد دخلنا المعهد الموسيقى ، ولم يعارض خال صلاح . . فقد كان كل ما يشغل باله هو نفقات التعليم . . وربما كان مقتنعاً بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله الفنية ، فتركه لجنونه . . وأنا أيضا لم يكن يهم عائلتى إلا كم تدفع . .

وذهبنا لنعيش فى القاهرة . .

٣

ولم يلتحق صلاح بقسم الأصوات . . ولكنه التحق بقسم الآلات . . معى . . ربما لأن الدراسة فى قسم الآلات أوسع ، وربما لأنه هو نفسه لم يكن يدرى حتى هذه الأيام هل يستطيع أن ينجح كمطرب أم يستطيع أن ينجح كعازف . . أنا شخصياً كنت أتمنى له ما أتمناه لنفسى رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته وصوتى . . كنت أريده أن يكون عازفاً . . لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطوع من امتلاك صوتك . . إن الآلة لا تستطيع أن تخالف أمرك . . ليست معرضة للمرض . . ولا للضعف ولا للهزال ولا لسرعة التطور . . الآلة إذا أصيبت بخدش تستطيع أن تلقيها بعيداً وتستبدلها بأخرى جديدة . . ولكن صوتك إذا خدش لا تستطيع أن تبدله . . والآلة تعيش التاريخ كله . .

البيانو الذى كان يعزف عليه شيللى هو نفسه البيانو الذى نعزف عليه اليوم . . مهما تطورت الألحان . . ولكن صوت صالح عبد الحى لا يمكن أن يطرب الآن ، لأن الصوت مرتبط بالقدرة على التجديد ، والتجديد يعتمد على الطبقات الصوتية . . والطبقات الصوتية هى قدرات فردية لا يستطيع أى فرد أن يصل إلى ما يشاء من الطبقات . .

وأريد أن أروى كيف كنا نعيش فى القاهرة . . ليست أعجوبة أن نبدأ فى القاهرة وأن نعيش بقرشين صاغ فى اليوم . . وتستطيع أيضاً أن تصل إلى مائة جنيه فى اليوم . .

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش – صلاح وأنا – فى حجرة واحدة مؤجرة

داخل بيت فى إحدى حوارى الجيزة من البيوت التى تؤجر للطلبة . .

وكنت أصحو كل يوم وأنا فى انتظار معجزة من معجزات صلاح ، قد تكون معجزة ترتفع بنا ، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا . . ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذى اختار أن يتخصص فيه عندما التحقنا بالمعهد ، ولا معجزة تقدمه بصوته الذى يغنى به تقدما كان يدهشنى أنا شخصيًّا رغم أنى عشت العمر كله مع هذا الصوت . . ولكن معجزته الكبرى هى قدرته على الاتصال بالناس . . واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة . . لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوى شيئاً إلا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس . . إلى الجمهور . . ولكى تصل إلى الجمهور يجب أن تصل أولا إلى مراكز القوى التى تسيطر على حركة المرور إلى الجمهور . . مراكز القوى الفنية . . إنها مراكز تضم أفراداً أقرب إلى عساكر المرور . . تشير ، فتمر إلى الجمهور . . تشير فتقف مكانك دون أن تتقدم إلى الجمهور . . وأحياناً كثيرة تسحب منك رخصة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتهيت كفنان . .

وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء خارق فى اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية . . إنه يعرف مقدماً ماذا يريد كل منهم . . ومنهم من لا تستطيع أن تكسبه إلا إذا بدوت أمامه ضعيفا غلبان ، محتاجاً ، تثير شفقته ، وتثير فيه عقدة السيادة وتشبع فيه شهوة العظمة . . ومنهم من يحتاج لإقناعه لنوع من القوة أقرب إلى التهديد . . ومنهم من ينتظر رشوة . . والرشوة ليست دائماً مبلغاً من المال . . إن هناك أنواعاً كثيرة من الرشاوى وصلاح يستطيع دائماً بذكائه وجديته وحيويته أن يكتشف الإنسان الذى يحتاج إليه ، ويكتشف وسيلة الوصول إليه . .

وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل

ونكسب حتى نرتفع من مستوى سندويتش الفول إلى مستوى طبق الكباب . . ومن مستوى البنطلون الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة بنطلونات . . ولم يكن هناك طريق أمامنا لنعمل ونكسب ونحن لا نستطيع شيئاً إلا الفن . . ولا نقبل أن ننحرف عن إصرارنا بأن نعطى كل حياتنا لهذا الفن ، ولا أحد يعرفنا كفنانين فى هذا البلد الكبير ولا نزال طلبة فى المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمنا بعد . . ولكن صلاح استطاع فى عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية ، وأن يكسبهم بذكائه وخفة دمه ، ولا أقول القدرة الفنية ، بل كان صلاح يتعمد إخفاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الجدد الغيرة والخوف على أنفسهم من فنه ، كما يحدث دائماً بين أفراد المهنة أو الفن الواحد . .

ولم يكد العام الأول يمر ونحن فى فقر نعيش على ثلاثة جنيهات فى الشهر يتلقاها صلاح من بلده وجنيه واحد أتلقاه أنا ، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه فى إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان ، ويضعنى معه كعازف ناى . . وكسبنا . . ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبنطلونات وتفصيل البدل . . وارتفعنا أيضاً إلى مستوى السكن فى شقة إيجار . . شقة وحدنا . . صلاح وأنا . . وكل ذلك كان ارتفاعاً إلى مستوى متواضع ، أى إلى مستوى عشرة فى المائة من المستوى الذى نعيشه الآن . . ولكننا – أيامها – كنا نحس أننا ارتفعنا مليوناً فى المائة من المستوى الذى نحلم أن نعيش فيه . .

وكان أصدقاؤنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يغنى . . وكان يغنى لهم ، والكثيرون منهم يهللون له ويلحون عليه أن يبدأ فى محاولة الظهور كمطرب . . وكثيرون أيضاً استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب . . كفاية عليك الكمنجة . ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمطرب إلا فى الجلسات الخاصة الضيقة . . إنه عندما يغنى يردد أغانى محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحيانا محمد عبد المطلب أو يردد الأغانى الريفية والشعبية . . وهو لا يريد لنفسه كل هذا . إنه مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون له شخصية منفصلة . . شخصية قائمة بذاتها . . شخصية تخلق الجديد ولا تكتفى بترديد القديم . . إنه لا يريد أن يقدم نفسه للجمهور إلا كشخصية فنية جديدة ، شخصية الصوت . . وشخصية اللحن . . وشخصية الأداء . . يجب أن يبدأ بشخصية جديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل . .

ولكن الجديد ، يتطلب ملحناً جديداً . . وشاعراً جديداً . . إنه لا يستطيع أن يذهب إلى أى ملحن ويطلب منه أن يلحن له . . فهو غير معروف ، ولا يستطيع أن يدفع ثمن اللحن ، وصوته قد لا يكفى ليدفع أى ملحن إلى أن يقدم له لحناً مجانياً . . وعبد الوهاب إنه حلم صلاح . . إن عبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التى لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفاً فى القاع . . إنه يخشى وهو فى القاع ألا يصل صوته إلى القمة . . يرتعش ويخاف أن يرفضه عبد الوهاب . .

وبدأ ذكاء صلاح يعمل . . إنه جديد . . جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الإذاعة وشركات الأسطوانات وزعماء التليفزيون . . فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الفنى الجديد . . إنه يقدم نفسه وهو مجهول . . ويجب أن يكون الملحن أيضاً مجهولا . . وكاتب الأغنية . . وموزع الموسيقى . . والموسيقيون . يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الجديد . . وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشبان المجهولين . .

بعضهم من طلبة المعهد . . وبعضهم من الهواة . . وبدأنا كلنا نعمل لنضع أغنية جديدة . . فناً جديداً . . كل ما فيه جديد ، قد ننجح كلنا أو نفشل كلنا . . قد ينجح الجيل الجديد أو يفشل الجيل الجديد . . كنا نعيش أيامها كأننا نخطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفنى . .

وانتهينا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الفنى الجديد . . كلنا كنا فيها نشترك فى التلحين وفى الأداء وفى الغناء . . كنا نعيش كأننا فى مظاهرة فنية . .

ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس . . لا طريق إلا الإذاعة . .

ولكن . . .

مستحيل أن تقبلنا الإذاعة . .

وبدأنا كلنا نعيش اعتماداً على ذكاء صلاح . . وقد استغرق ذكاء صلاح عاماً كاملا استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدى الذى يعتبر إحدى الشخصيات القوية فى مركز قيادة الإذاعة . . وأعجب عباس بصلاح كفنان . . أعجب به فعلا . . وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن الثورة على الروتين المتجمد للإذاعة الذى يحرم دخول الجيل الجديد . .

وأذيعت الأغنية . . لأول مرة . .

وسمعها الجمهور فى عشر دقائق . . وكنا قد قضينا فى إعدادها عامين ، آخرهما أسبوعان لم ننم خلالهما أبداً . . قضيناهما كلهما نعيد ونراجع . . ونعيد ونراجع إلى أن تم التسجيل فى الإذاعة . .

فرحتنا الكبرى . . نجحت الأغنية . .

وكل الأسماء التى أذيعت معها ، كانت أسماء جديدة . . صلاح . . والملحن

رأفت التونى . . والشاعر أحمد حلمى . . أما اسمى فهو لا يذاع . .

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه . . إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها . . ولا يمكن أن تخلق جمهوراً ثابتاً . . خصوصاً إذا كانت الأغنية قد أذيعت فجأة وبلا دعاية تجذب الناس لها . .

ترى كم واحدا سمعها . .

وأذكر أنى عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت ، وقال لى وهو منطلق فى خياله كأنه يبحث به عن المستقبل :

– لسه بدرى يا عمر . .

وليلتها دخل صلاح الحمام ، وكنت فى غرفتى واعتقدت أنه دخل يغسل وجهه . . ثم ذهبت إليه داخل الحمام . . وفوجئت به وقد أمسك الفوطة وهو يمسح بها حوض الحمام والفوطة ملطخة بالدم . . وخطوط من الدم لا تزال معلقة داخل الحوض . . وذعرت :

– ما هذا الدم يا صلاح . .

وأجابنى صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه :

– لا شىء . . بسيطة . . إن دمى ثقيل وأحاول أن أخففه . .

وصرخت :

– هل هى المرة الأولى التى تنزف فيها دمك من فمك . .

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم :

– المرة الأولى . . وبإذن الله الأخيرة . .

وأخذته إلى فراشه ، وأنا ساخط أصرخ فى وجهه وأصمم على استدعاء طبيب . . ولكنه يرفض . . إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته . .

وهو مؤمن بأن لا شىء قد حدث له . . إنه لم ينم طوال أسبوعين ، وقد أسرف فى وضع الشطة داخل الساندويتش . . وهذا هو كل السبب . .

ونـام . .

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التى ترتسم على وجهه عندما تنتابه الأزمة . .

خطوط تظل عالقة تحت عينيه حتى وهو نائم . .

٤

وفى صباح اليوم التالى دق جرس الباب . . وفتحت . .

إنها فاطمة . .

وفرحت بها كأنى وجدت الدواء الوحيد الذى يمكن أن ينقذ صلاح .

وأجلستها فى الصالة ، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقداً متعباً من أثر الأزمة . . وما كاد يعرف أنها فاطمة . . الفتاة التى يبحث عنها منذ خمس سنوات . . حتى قفز من الفراش وألقى على وجهه قطرات من الماء . . وأدخل نفسه فى قميصه وبنطلونه . . وجرى إليها . . إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يهنئ نفسه :

— الأغنية نجحت . . مادامت قد جاءت لى بفاطمة فقد نجحت . .

وكان هذا صحيحاً ، لقد سمعت فاطمة الأغنية فى الإذاعة . . وقالت له إنها عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلا مرة واحدة فى سوق سيدى برانى ومنذ خمس سنوات . . واتصلت بالإذاعة وعرفت عنوانه وجاءت . . وقد حاولت من قبل أن تتصل به فلم تستطع . . مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة أخرى إلى دمنهور ، وسألت عنه هناك ، ولم تجده . .

ورأيت صلاح يومها كما لم أره منذ زمان طويل . . إن ضحكته منطلقة صادقة ليس فيها هذا التعمد الذى يضعه دائماً كأنه واقف دائماً أمام آلة تصوير . . والخطوط التى تركتها الأزمة تحت عينيه اختفت بسرعة . . وهما يتذكران الأغنية التى غنياها معاً فى المولد . . ثم يغنى لها أغنيته الجديدة وتغنيها معه . . إن صوتها فيه شىء . . إنها يمكن أن تصبح شيئاً جديداً . . كبيراً . .

وأصبحت فاطمة فى حياة صلاح . . لا . . أقصد إن صلاح أصبح فى حياة فاطمة . . أما حياته فإنى لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة أو أى إنسان آخر . . لقد أعطته فاطمة قوة جديدة . . قوة الزهو بالنفس . . قوة الغرور . . ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلا لفنه . . أنانية الفنان . . وقد بدأ صلاح فى إعداد الأغنية التالية . . . ويقضى كل أيامه مع فنه ، وفاطمة لا تجد طريقاً إليه إلا أن تجرى وراءه . . وهى لا تغضب . . إنه يعطى نفسه لشىء تحبه . . لفنه . . وهى راضية ، فرحة به . . وتتحمله كأنها هى التى تغنى . . وكانت تغنى فعلا . . كانت فى الأوقات التى يبقى فيها صلاح فى البيت وتأتى إليه ، تغنى معه . . وتعيد كل ألحان البروفات التى كان يؤديها وهى جالسة تسمعه . . وفى يوم قلت لصلاح :

— إن فاطمة صوت جديد . . إنها تستحق أن تكون مطربة . . لنحاول أن نقدمها لأصدقائنا . . ونظر إلى صلاح فى دهشة كأنى قد نسيته . . وقال :

— أنتظر إلى أن أنتهى من بناء نفسى أولا . .

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء . . أنانية الفنان . . ربما لم يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفنى الذى كان قائماً بين عبد الوهاب وأم كلثوم . كان يخاف أن يعانى هذا الصراع ويخلق أم كلثوم أخرى . . من يدرى ربما كانت فاطمة تستطيع أن تكون شيئاً جديداً بالنسبة لأم كلثوم ، كما أصبح صلاح شيئاً جديداً بالنسبة لعبد الوهاب . . ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن تكون أم كلثوم . . لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة . . يكفيها صلاح . . إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها . .

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن النجاح لا يتم إلا بجذب الناس

إلى العمل الفنى . . إن كل شىء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة . . وقوة الجذب الكبرى هى الصحافة . . إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة كقوة لجذب الناس . . لا يكفى أن الزعيم يلقى خطاباً ويجذب الجمهور دون أن تقوم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه . . والشيكولاتة لا يأكلها الناس إلا إذا جذبتهم إعلانات الصحف إلى شرائها وأكلها . . وكذلك الفنان الذى يواجه الجمهور . . وبدأ صلاح يركز ذكاءه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا الناس إلى أغانيه الجديدة . . صغار الصحفيين وكبار الصحفيين . . وأذكر أن صلاح أقنع أحد صغار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين . . وصحب الصحفى الصغير صلاح إلى الصحفى الكبير وطلب منه أن يستمع إليه ولم يكن قد سمعه فى أغنيته الأولى ، وقال الصحفى الكبير :

– اعمل معروف . . لا تجربه فىّ . . دعه يجرب نفسه فى غيرى . .

ولم تنقض شهور حتى أصبح هذا الصحفى الكبير من أقرب أصدقاء صلاح . . إن صلاح لا ييأس أبداً من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم . .

وبدأ اسم صلاح يلمع فى الصحف . . ولم يكن يكفى حتى يلمع اسمه أن يكون صديقاً للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجح فى اجتذاب الجمهور ، حتى تضطر الصحف إلى ترديد اسمه . . أى يصبح نجاحه أقوى من أن تتجاهله الصحف . . ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة . . وبدأ صلاح يخفى قصة حبه . . لقد طلب من فاطمة ألا تكون معه أثناء البروفات وطلب منها ألا تظهر معه فى مكان عام . . وكان عندما يدعى إلى حفل خاص ويجدها هناك يتعمد أن يبدو أقل اهتماماً بها . . بل يتعمد تجاهلها . . وقلت له يوماً :

– إنك تقسو عليها بهذا التجاهل . .

وقال وهو يتنهد بحسرة :

– إنى أقسو على نفسى . . إن مسئوليتى عن فنى تأخذ منى أكثر مما أطيق . . إن المغنى الذى يغنى للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة . . كالقارئ الذى يقرأ قصة حب ، إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها ، وقد تكون القارئة فتاة يأخذها خيالها إلى أن تتصور نفسها بطلة وأنها هى التى يحبها كاتب القصة . . وكذلك المطرب . . إنى عندما أغنى الحب أرفع المستمع إلى الحب . . إلى الخيال . . ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أنى أغنى لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمعات . . يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى واقع قصتى مع فاطمة . . أنا محكوم علىّ حتى أحتفظ بخيال المستمع والمستمعات بأن أشعر كل فتاة بأنى أغنى لها حتى ولو كنت فى الواقع أغنى لفاطمة . . محكوم علىّ أن أخفى حبى داخل قلبى وتحت ثيابى حتى لا يراه الناس . .

وربما لم أقتنع بهذا الكلام . . ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعة به . . كانت مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكاً لنفسه . . فإذا ابتسم يجب أن يبتسم لكل الناس . . وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس . . ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس . . إنها تفكر كما يفكر صلاح . . وتحس كما يحس صلاح . . بل خيل إلى أنها أصبحت تتكلم بنفس أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضاً تقلده فى حركاته دون أن تتعمد التقليد . . ربما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها . . وربما لأن النجاح السريع الذى حققه صلاح يجعل كل من يطمع فى النجاح يتأثر به . .

وفاطمة لا شك تطمع فى النجاح . . وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن تنجح فيه . .

ولكن الحدث الأكبر فى حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت بمرضه . . كان قد مضى أكثر من عام وهو يخفى عنها الأزمات التى تنتابه وتقفز بدمه من بين شفتيه ، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم ، كان يعتبرها هى أيضاً واحدة من الجمهور الذى يخفى عنه مرضه . . حتى لا تنهار صورته الفنية . . صورة الشاب المرح القوى الملئ بالحياة الذى يغنى للحب . . كانت شخصيته الفنية تغلب شخصيته الآدمية ، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن تحبه كبنى آدم . . إنها تحبه فقط كفنان . . والفنان لا يمكن أن يكون مريضاً . . وكانت فاطمة أحياناً تلمح الهزال والضعف الذى يبدو على وجه صلاح . . ولكن – لأنها لم تكن تعرف أنه مريض – كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو نتيجة إنهاك نفسه فى عمله الفنى . . وأحياناً كانت تعتقد أن هذه هى طبيعة تكوينه الجسمانى . . ولد هكذا . . ترتسم فوق وجهه خطوط الضعف والهزال . . وينحصر قوامه فى جسد رفيع قصير . . وكانت تقول له ضاحكة : –

– صلاح . . طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عاماً . . إنك تستطيع أن تمثل فى السينما أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج . . يابختك . . احمد ربنا . .

إلى أن كانت يوماً معنا فى البيت . . وكان صلاح قد استيقظ من النوم منهكاً عصبياً وجلس معها وهو لا يستطيع أن يستمر فى حديث . . ولا يستطيع أن يغنى لها أو يدعها تغنى له . . وفجأة تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه كأنه يختنق ، ويضع يده على صدره كأنه يحس فى داخله بطلقات مدفع

مترليوز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرخ . . وصرخت فاطمة :

– صلاح . . ماذا حدث لك . . أجبنى . . تكلم . .

ولم يتكلم صلاح . . إنه لا يستطيع . . وقام يجرى مترنحا ناحية الحمام ، وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض وانفجر شلال الدم من بين شفتيه . .

إنها الأزمة . .

ولأول مرة تراه فاطمة فى أزمته . .

وساعدتنى فاطمة فى حمله إلى فراشه ، وهى ترتعش وتصرخ :

– الدكتور . . اطلب الدكتور . . أين الدكتور ؟ . .

ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى ذلك اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب حتى لا يعرف الناس خبر مرضه :

وكان شلال الدم قد توقف قبل أن نصل بصلاح إلى فراشه . . إنه شلال لا يستغرق سوى ثوان كطلقات مدفع المترليوز ، ونظر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة ، وقال فى ضعف :

– لست فى حاجة إلى دكتور يا فاطمة . . أنا بخير . . الدم توقف . .

ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول :

– أمس وضعت على عشائى نصف كيلو شطة على الأقل . . وهذا هو السبب . . إنها ليست القوطة هى المجنونة كما يقول الناس . . إنها الشطة . . الشطة مجنونة وأنا مجنون بالشطة . .

وفاطمة تنظر إليه فى تعجب ، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ثائرة كأنها أم أخرجها أبنها عن هدوئها ، وصرخت فى وجهه :

– اسمع .. أنا أفهمك جيداً .. ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب بعد أن يتقيأ دمه .. إننا نستدعى الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام .. وأنت أفرغت دمك ، ربما كان فيك شيء تمزق ، ولكنك لا تريد الطبيب لأنك لا تريد أن تعترف بالمرض .. لا تريد أن يعرف الناس أنك مريض .. حتى أنا أخفيت عنى كل هذه الأيام أنك مريض .. اعتبرتنى واحدة من جمهورك .. إنك لا تحبنى .. وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك الرفيع ..

ورأيت صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شبابه مدافعاً عن نفسه ، ولأول مرة أسمعه يعترف :

– فاطمة .. أنا أحبك .. عمرى ما اعتبرتك واحدة من الجمهور .. ولكنى أخفيت عنك لأنى كنت أخاف على حبك من مرضى .. إنى أريد حبك كاملا ولا أريده إشفاقا علىّ من مرضى ..

وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها :

– أثبت لى حبك ..

قال :

– كيف .. ما هو أكثر من أتركك ترينني فى ضعفى .. فى مرضى ..

قالت فى هدوء :

– الأكثر أن تتركنا نستدعى الطبيب ..

والتفتت إلىّ فاطمة تطلب منى أن أستدعى الطبيب فى التليفون ، واحترنا ، هى وأنا ، فى تحديد اسم الطبيب الذى نستدعيه ، ولكن صلاح هو الذى حدد اسم الطبيب .. من يدرى ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل سراً ودون أن يبلغنى أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص

فى مثل حالته استعداداً لمثل هذا اليوم .. إن ذكاءه يتسع لكل شيء ..

وجاء الطبيب ..

وقبل أن يصل كانت فاطمة قد أخذتنى خارج الغرفة وجلست معى بحجة أن نترك صلاح ليستريح وجعلتنى أعترف لها بكل حالات مرض صلاح ..

وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما نتصور ، ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه لعلاج المطرب المشهور صلاح ، وربما لأنه أحس بإرضاء غروره بنفسه واكتساب شهرة طيبة عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور ، وربما لأن هذه هى طبيعته فى تلبية حاجة المرضى .. الله أعلم .. ولكنه جاء بسرعة .. والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه ، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه .. وبدأ يسأله .. وصلاح يجيب إجابات مائعة ، وهو لا يزال مصراً على الاحتفاظ بابتسامته ، كأن الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور ..

وتدخلت فاطمة قائلة فى حزم :

– قل كل شيء بصراحة يا صلاح .. وإذا لم تقل فسأقول أنا .. إننى الآن أعرف كل شيء .

ونظر إليها صلاح غاضباً ، كأنه ليس من حقها أن تحادثه بهذه الجرأة أمام غريب .. أمام واحد من الجمهور .. ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة فى حديثه مع الطبيب ..

.. واستغرق الطبيب وقتاً طويلا فى الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن ، ثم قال وهو يجمع أدواته :

– بسيطة .. ولكن أرجوك .. لا تتحرك من الفراش إلا بعد أن أقول لك .. إن الكشف لم يتم بعد .. يجب أن نأخذ أشعة على كل جسمك .. خصوصاً الكبد ..

ثم قال لنا الطبيب ونحن نسير به إلى باب الخروج :

– المسألة ليست سهلة . . أعتقد أنه نوع من تليف فى الكبد نتيجة البلهارسيا . . نتج عنه فقاعات فى المرئ يتجمع فيها الدم ، وتتضخم إلى أن يتقيأ دمه . . كل ذلك مجرد استنتاج ، فى انتظار الأشعة . .

وما كاد الطبيب يخرج ونعود إلى صلاح . . حتى قال :

– العود . . هاتوا العود . .

وقالت فاطمة :

– عود إيه يا صلاح . . الدكتور كتب لك حقنة منومة . . ويجب أن تنام . . تستريح . .

وصرخ صلاح :

– العود . . مش ممكن أنام وأنا عايز العود . . وخلاص . . اعتبرى الزيارة انتهت . . فين العود . .

ودون أن أسمع رأى فاطمة . . حملت العود ووضعته بين يدى صلاح . . إنى أطمئن على صلاح والعود فى أحضانه أكثر مما أطمئن عليه وهو بين يدى الطبيب . .

وانصرفت فاطمة خارجة وهى غاضبة .

ونغم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة . . وصرخت من بعيد :

– مش كده يا صلاح . . غلط . . راجع الفقرة دى تانى . .

* * *

٥

. . وهكذا عشت مع صلاح . . عشت معه والأزمات التى تستنزف دمه لا تنتهى ولا تتوقف وتكاد فى كل مرة تقضى عليه ، ولا ينقذه منها إلا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعيده إلى الحياة . . حتى أصبحت أومن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم . . أقوى من علم الطب والأطباء . إن العلم يأمره بأن يبقى فى فراشه ويهدده بالموت . . والفن يأمره أن يعيش فنه ، أن يعيش بين الناس . . أن يغنى ويضحك ويعمل . . وينتصر الفن على العلم . . ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو فى حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة ، فهو لا ينام الليل أبداً وينام النهار ، وعندما حاولت فى بداية هذه الحالة أن أجعله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار . . قال لى فى يأس :

– لا أستطيع . . إنى أخاف الليل . . أخافه لأن كل الناس من حولى نيام . . وقد تنتابنى الأزمة فلا أجد من حولى أحداً ليساعدنى عليها . . ولذلك يجب أن أبقى صاحياً حتى أساعد نفسى أو أستطيع أن أوقظ من يساعدنى . . أما فى النهار فكل من حولى فى يقظة فأنام أنا مطمئناً على نفسى . . إنى أخاف الليل رغم أنى أغنى الليل للناس . .

وأنا مع صلاح فى خوف دائم . . أخاف عليه وهو فى أزمته . . وأخاف عليه وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لفنه ويهرب من فراشه ليعمل . . ليغنى . . وهكذا فاطمة . . أصبحت تعيش مثلى مع صلاح . . صلاح المريض المنهار الذى ينزف الدم ، صلاح الفنان الجبار الذكى الأنانى الذى يستطيع أن يحصل دائماً

على كل ما يريده فنه . .

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة . . فإن نجاح صلاح جذب إليه مئات المعجبات بنات ونساء يجذبهن إليه فنه ونجاحه . . وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه ، أو على الأقل تحاول تذوقه . . إن النجاح يجعل من الرجل الناجح شيئاً أشبه بقطعة الفاكهة النادرة التي تطمع كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تذوقها . . وكان صلاح يفرح بأنه قطعة من الفاكهة النادرة ، ويفرح بهؤلاء المعجبات ، ويفرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة . . ويفرح أكثر عندما تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السفح . . وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يحادثهن في التليفون كأنه يمثل دوراً في فيلم سينمائي . . إنه يبدو كأنه كله حب ، وكله فن ، وكله رقة ، وحديثه الذكي يستطيع به دائماً أن يكمل الصورة التي رسمها ، حتى لا يترك واحدة إلا وقد استسلمت لكل ما يريده . . يتركها وهي تعيش الحب . . حبه . . وكان خبر مرض صلاح قد أذيع وانتشر . . وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور تعلق به أكثر بعدأن عرف بمرضه . . وازداد عدد المعجبات الجريئات أن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض .

وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لايمكن أن تكون له شهوة في إحدى النساء . . إنه مريض . . ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة . . واطمأن إليه الرجال . . فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بامرأة . . بزوجة أوابنة أو أخت . . والبنات اطمأنن أكثر إلى الاتصال به . . لأن لا أحد يمكن أن يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أي فتاة وبينه . . اكتسب سمعة البراءة كأنه راهب . . ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر

من إعجاب بالفن . .

وبدأت فاطمة تجتاز مرحلة حائرة . . إنها تحبه . . تحبه . . تحبه قبل أن يكون قطعة من الفاكهة النادرة . . وهي تخاف على حبها من هاتيك المعجبات . . وهي تعلم أن صلاح ليس مجرد فنان . . إنه رجل كبقية الرجال . . ومرضه ليس له علاقة برجولته . . وأحياناً كانت تشتد بها الغيرة وتبدأ في نقاشه والصراخ في وجهه ، فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه :

— لا تكوني مجنونة يا فاطمة . . هذا شغل . . الشغل عايز كده . . أنا مضطر . . وكما أني لست ملك نفسي ، لا أستطيع أن أكون ملكك لوحدك . . أنا ملك الناس . . وإذا كنت بتحبيني صحيح لا تحرمي الناس مني ، ولا تحرميني من الناس . .

وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها :

— أنا خايفة عليك يا صلاح . . وخائفة على نفسي . . خائفة أن تضيع مني . . ماذا يطمئنني .

ويقول وصوته ينبض بحبه :

— يطمئنك أن ليس بينهن واحدة تعرفني . . كلهن يعرفن صوتي بس . . ليس بينهن واحدة تعرف شكلي عندما تنتابني الأزمة . . ولما باتنرفز وباتخانق باقول إيه . . ولما باكل على راحتي باكل إيه وباكل ازاي . . ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلا صلاح الفنان . . وإنتي عارفه إني فنان وانت لوحدك اللي بتشوفيني كإنسان . .

وكانت فاطمة تقتنع ، وتتحمل المعجبات ، بل إنها أحياناً وهي معنا في البيت كانت ترد على التليفون وتتلقى مكالمات المعجبات . . ثم تعطي السماعة

لصلاح وتجلس بجانبه وهى تسمعه يمثل دور راهب الحب . . وعندما كانت تسألها المعجبة التى تتلقى مكالمتها عن من هى كانت ترد . . أنا أخته . . وأحياناً ترد . . أنا الشغالة يا ستى . .

وربما كان أكثر ما يطمئن فاطمة فى حيرتها أنها كانت مقتنعة بأنها وحدها التى لها الحق فى زيارة صلاح فى بيته . . كل البنات يحادثنه فى التليفون ويقابلنه فى الحفلات الخاصة أو العامة . . هى وحدها التى تدخل البيت . .

وكانت فاطمة تحيرنى دائماً . . تحيرنى فى شخصيتها . . وتحيرنى فى كل حياتها فهى – كصلاح أيضاً – لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تتكلم إلا بقوة ذكائها . . كنا لا نعرف شيئاً كثيراً عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية . . كل ماكنا نعرفه أنها تعيش مع أبيها الموظف بوزارة الداخلية ، ومع زوجة أبيها ، بعد أن توفيت أمها . . وطبعاً كنا نعرف عنوان بيتها ونمرة التليفون ولا أكثر . . وكنا نعرف أنها طالبة فى الجامعة . . كلية الاقتصاد والسياسة . . ولكنها كانت أغلب الأيام معنا . . وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة ، فتقول ضاحكة . . زوغت . . أو تقول فى قرف :

– ما ليش نفس للجامعة . . أنا دخلت الجامعة بس علشان أخرج من البيت . .

وكان الشىء الوحيد الذى تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها فى الساعة السادسة حتى تتفادى ثورة زوجه أبيها . . لم نرها أبدًا بالليل . .

إلى أن دخلت نهال فى حياة صلاح . .

٦

. . كانت نهال من أجمل فتيات المجتمع الراقى . . كانت ابنة رجل حفيد عائلة السلامونى ، واستطاع أن يستمر فى الاحتفاظ بمستوى ثرائه ومكانته الاجتماعية . . وربما كان فى حياة نهال ما جعلها دائما هادئة هدوءاً أقرب إلى الحزن ، صامتة دائماً كأنها مكتفية بأن تعيش فى خيالها . . والهدوء والصمت يلفانها بالطبيعة الحلوة . . ويحتفظان لجمالها ببهرة . . ليست مثيرة أقرب إلى صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء . . وربما كان ما فى حياتها هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأغانى صلاح ، هو ما جعلها تتعلق به منذ اليوم الأول الذى التقت به فيه خلال حفلة عائلية خاصة . .

وبهر صلاح بها كما لم يبهر من قبل . . بهر بجمالها . . وبهر باسم عائلتها الكبير . . وبهر بهدوئها ، وبهر بصمتها . .

هل أحبها . . ؟

لا أدرى . .

ولكن كل أيامه أصبحت « نهال » . . إنه يفتح عينيه ليحدثها فى التليفون ويحدد مصير يومه كله بعد أن يحدد مصيره معها فى هذا اليوم . . متى يلقاها . . ومتى تحدثه فى التليفون وبعد ذلك كل شىء ، ، حتى فنه أصبح يأتى بعد تحديد مصيره مع نهال . .

وهى . . نهال . .

قطعاً أحبته . .

إنها تعطيه من اهتمامها ومن اللهفة إليه أكثر ما تعطى فتاة لا يدفعها سوى الإعجاب بفنه . . وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر فى المجتمع ، ثم . . نشرت فى الصحف . . ولم يعترض صلاح على نشر القصة فى الصحف وقد كان يستطيع بصداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل . . ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضى غروره ، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه فى أعين المعجبات لأن نهال بينهن شيء غال ثمين . .

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئاً عن قصة نهال . . وكان صلاح لا يزال مرتبطاً بها . . وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زيارتها له واتصاله بها . . إلى أن قرأت ما نشر فى الصحف . .

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة . . وبلا موعد . . ولم يكن صلاح فى البيت فانتظرته وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة فبقيت فى انتظاره . إلى أن جاء فى الساعة التاسعة يبدل ثيابه استعداداً لحفل كان يقيمه فى تلك الليلة ، وفوجئ بها . .

إنه لم يتعود أبداً أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة . .

وقالت له فى هدوء :

– إيه الحكاية الجديدة دى ياصلاح . .

قال وجفونه ترتعش فوق عينيه :

– حكاية إيه ؟

قالت وهى لا تزال تبتسم :

– حكاية اللى اسمها نهال . .

وقال وهو يلوى شفتيه ساخراً :

– زى بقية الحكايات . .

قالت :

– بس أنت بتقول لى على كل الحكايات ، ودى ما قلتليش عليها . .

قال :

– ما افتكرتش . . وماجتش مناسبة . .

قالت :

– واشمعنى الحكاية دى اللى انتشرت فى الصحف . .

قال :

– أنا عارف . . يمكن علشان من عيلة معروفة . .

قالت :

– بس أنت كنت تقدر تقول لهم ما ينشروهاش . .

قال وقد بدأ يفقد أعصابه :

– أنت فاكرانى عايش فى الجرايد علشان أعرف إيه اللى بتنشر وإيه اللى ما يتنشرش . . ما احنا حكايتنا انتشرت ، قبل ما أطلب أنها ما تتنشرش .

قالت :

– وحكايتها زى حكايتى . .

وصرخ صلاح :

– فاطمة ما تجننيش . . إذا كنت بتقولى بتحبينى يبقى حبينى زى ما أنا . . ما فيش فايدة انك تغيرينى . . وما فيش فايدة انك تحاسبينى . .

قالت وهى تكاد تبكى :

– الحب يعنى أطمئن على حبك . . وأنا مش مطمئنة . .

قال كأنه قرفان :

– أطمنك إزاى ؟

ونظر إليها طويلاً إلى أن هدأت ثورته ، ثم ارتفعت إلى شفتيه ابتسامة هادئة كأنه استرد كل حبه لفاطمة ، وقال وهو يقترب إليها ليأخذها بين ذراعيه :

– عايزه تطمنى . . بوسينى . .

وتركتهما ليكملا بقية قبلتهما . .

وفى اليوم التالى كنت أنا الذى أتصل بفاطمة بالتليفون لأطمئن عليها بعد أن تأخرت فى العودة إلى بيتها إلى ما بعد التاسعة . . ولم ترد على التليفون . . رد صوت عنيف كلماته كقطع الحجارة تلقى فى وجهى . . لعلها زوجة أبيها . . واتصلت مرة ثانية ، ولم ترد فاطمة أيضاً وفى آخر النهار . . هى التى اتصلت لتقول لى إنها تشاجرت مع زوجة أبيها بسبب تأخرها وتركت البيت ، وهى تقيم الآن عند إحدى صديقاتها ، وعندما أحست بانزعاجى عليها ، قالت ضاحكة :

– ما يهمش . . مش دى أول مرة . . كلها كام يوم وأرجع البيت تانى . .

وصلاح مستمر فى علاقته مع نهال . . وأصبح يبدو معها فى المجتمعات ، بل ربما كان يتعمد الظهور معها ، إلى أن بدأت صورتها تظهر بجانب صورته فى الصحف . .

وفاطمة تحتمل . . بل تحتمل أيضاً تهرب صلاح منها ، وتباعدت الأيام التى أصبحت تلقاه فيها . . إلى أن أصابته الأزمة يوما ، وما كاد نزيف الدم يتوقف حتى صرخ :

– فين فاطمة . . دور على فاطمة . .

وفى هذا اليوم ، وهو لا يزال راقداً فى فراشه عقب الأزمة ، اتصلت نهال

بالتليفون وأشار إلى من بعيد لأقول لها إنه خرج ، بينما كانت فاطمة قد جاءت لتجلس بجانب فراشه . . فراشه المريض . .

ومرت الأزمة . .

وعاد صلاح يغنى . . ويثير ضجة حول حكايته مع نهال . . ويخفى حبه لفاطمة . .

ولم أكن أعرف أن نهال مخطوبة إلا بعد أن قرأت خبر فسخ خطبتها فى الصحف . .

وأعقب نشر خبر فسخ الخطبة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب زواج صلاح ، وكنت أنا أول من سأل صلاح :

هل ستتزوجها ؟

وأجاب ضاحكاً :

– مش ممكن . . ما فيش واحدة ترضى بينا احنا الاثنين انا وانت . كل حاجة عملناها من يوم ما اتولدنا عملناها احنا الاتنين . . فاكر . . اللعب اللى لعبناه فى البلد . . والكتاب والمدرسة . . والناى . . والكمنجة . . والمزيكة . . والفن . . والجوع . . والشبع . . والضحك . . والبكاء . . كله احنا الاتنين إلا الجواز أهو ده اللى ما نقدرش عليه احنا الاتنين . .

وضحكت دون أن أفهم شيئا من نيات صلاح ونهال . .

وجاءت فاطمة . .

جاءت ثائرة على غير عادتها . . لا تحاول أن تعتمد على ذكائها . . ولا تحاول أن تفتعل الهدوء ولا النفاق . . وجاءت فى الساعة الثامنة صباحا حتى تتأكد من أن صلاح لن يهرب منها بعد أن يقوم من النوم . . وما إن فتح عينيه حتى ألقت

عليه صراخها وربما قبل أن تقول له صباح الخير :

– أنت حاتتجوز اللى اسمها نهال . .

وانتفض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارثة وقال :

– لا . .

وقالت له فى سرعة . .

– خلاص . . ما دام مش حاتتجوزها . . اتجوزنى . .

وصرخ :

– إيه الكلام اللى بتقوليه ده . . من إمتى بتتكلمى عن الجواز . .

وارتفع صراخها على صراخه :

– من يوم ما شفتك وأنا باتكلم عن الجواز . . وأنت سامعنى كويس وما بتردش . . وكنت ناوية أعيش وأنا باحلم بالجواز . . حلم . . أحلم وبس . . واستحملت كل حاجة علشان أفضل عايشه فى حلمى . . استحملت يوم ما خبتنى عن الناس . . وفضلت تخبينى لغاية دلوقت مش عايز حد يعرف بينى وبينك إيه . . واستحملت أنك منعتنى عن أنى أتعلم الفن ، كنت عارفة إنك بتفكر فى نفسك أكتر ما بتفكر فىّ . . استحملت اللى بتقول عليهم معجبات . . ودلوقت حضرتك رايح جاى مع واحدة تانية وسايب الناس والجرايد تتكلم وأنت ساكت ومبسوط وآخر حاجة إنهم يقولوا أنك حاتتجوز . . حتى لو كانت إشاعة . . ليه الإشاعة ما تكونش على أنا . . تعرف ليه . . لأنك مستعر منى . . مش مالية عينك . . بتحبنى فى السر وبس . . ومين عارف بتحبنى ولا ما بتحبنيش . . . .

وصرخ صلاح :

– أنت اتجننتى . . أنت مش فاطمة . . مش فاطمة اللى بحبها . . فاطمة

قدرت تفهم إنى فنان . . وقدرت تعرف إنى ما اتجوزتش إلا غنوة جديدة وإلا لحنا جديداً و . . .

وقاطعته صارخة :

– كفاية حكاية الفن بأه . . الفنان مش هو الإنسان اللى يودى غيره فى داهية . .

وصرخ صلاح :

– أنا ما وديش غيرى فى داهية . . أنا بودى نفسى . . وأنا ما طلبتش منك حاجة . . . ما كذبتش عليك . . وما وعدتش وما عملتش بوعدى . . أنت اللى راضية بى . . مش أنا اللى غاصب عليك . .

وقالت :

– وأنا دلوقتى مش راضية . . حاتعمل إيه ؟

قال :

– أنت عايزه إيه ؟

قالت :

– عايزه أنك تتجوزنى . . وإذا ما اتجوزتنيش خلى الناس تتكلم عنى . . أنا . .

وقاطعها :

– ما اقدرش . . مش ممكن . . وإذا ماكانش عاجبك سيبينى . . ابعدى عنى . .

وصرخت :

– للدرجة دى . . للدرجة دى ياصلاح . .

ثم رفعت أباجورة الإضاءة من جانب فراشه وألقتها على الأرض ، ثم أخذت تحطم كل ما تصل إليه يداها فى الغرفة وهى تصرخ :

– أنا أحسن منك ومنها ميت مرة . . أنا اللى عملته لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة . . أنا مجنونة . .

وأمسكت بها حتى لا تحطم باقى الغرفة . . وأنا أحاول أن أهدئها ، ولكنها تخلصت من بين يدى ، وانطلقت تجرى خارج البيت . .

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق بها . . ولكنها كانت قد خرجت وصفقت الباب وراءها بعنف كأنها تصفع البيت كله . . وعاد صلاح إلى فراشه صامتاً وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عنيفة . . إنه يحبها . . إنى إلى اليوم مقتنع بأن الحب الوحيد فى حياة صلاح هو فاطمة . . كل البنات اللاتى مررن به كن أشبه بألحان اجتماعية يواجه بها المجتمع . . حتى نهال . . ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة . . حبه الذى يضعه بعيداً عن عمله وعن مظهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الاجتماعية . . وقد بقى فى فراشه صامتاً ثم مد يده إلى التليفون وطلب فاطمة . . ليست هى التى ترد . . وبعد قليل حاولت أنا أن أتصل بها فى التليفون . . ولم ترد . . ثم عاد صلاح وحاول الاتصال بها بالتليفون . . ولم ترد وقال لى وكلماته ترتعش بين شفتيه :

– أنا لازم أطمئن عليها . . لتكون عملت فى نفسها حاجة . . قوم نروح لها فى البيت . .

* * *

٧

كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة فاطمة فى بيتها ان أهلها سيطردوننا قطعا بمجرد أن يروا صلاح وقد يعتدون علينا بالضرب فهم يعتقدون أن صلاح هو الذى جنى على مستقبل فاطمة ذلك فصلاح يصر ، ثم رضى أخيراً أن أذهب أنا وحدى إلى هناك

وقلت له :

– ولكنى لا أعرف أحداً من أهلها .

قال :

– ولو . . إعمل نفسك زميلها فى الجامعة . . ولا أى حاجة . .

وقررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أتأكد من أنها عادت إليه كعادتها إذا كانت قد قضت اليوم فى الخارج . .

وضغطت على جرس الباب . . وفتح لى رجل مكفهر الوجه ، لاشك أنه والدها . . وقلت له إنى زميل فاطمة فى الجامعة وإنى جئت إليها بكراسة المحاضرات كما طلبت منى . . وصرخ الأب فى وجهى :

– ابعدوا عن فاطمة بأه . . كفاية اللى عملتوه فيها . . غور من وشى . .

وصفق الباب فى وجهى . .

وعدت إلى صلاح . . وكان يتحدث فى التليفون . . يتحدث إلى نهال . . ولأول مرة أراه وهو يبذل جهداً كبيراً حتى يحتفظ بهدوئه وهو يتحدث إلى نهال . . وأنهى المكالمة بسرعة ، وهو يسألنى بلهفة :

– لقيتها ؟ .

ورويت له كل ماحدث . . وصلاح يزداد عصبية ، وهو يردد . . دى مجنونة . . أنا عارف أنها مجنونة . . وبدأ يستعد للسهرة التى أقيمت يومها وهو فى عصبية . . بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غير برنامج الحفل ، ووضع أغنية لم تكن فى البرنامج مكان أغنية أخرى مما أخر رفع الستار حوالى نصف ساعة حتى يعيد الموسيقيون تجميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم . . وغنى صلاح . . وأحسست يومها لأول مرة أنه يغنى لفاطمة وحدها . . يناديها من بعيد . . ويرجوها ألا تتركه وحده . .

وانتهى الحفل فى حوالى الثالثة صباحا . . وذهبنا لتناول العشاء فى الكافتيريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل ، ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كعادته . . ثم بعد ذلك فوجئت وأنا بجانبه فى السيارة بأنه يسألنى عن مكان بيت فاطمة ، ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال فى إصرار كأنه لا يقبل المناقشة :

– أنا متأكد أنها بايته فى بيتها . . والصبح حاتنزل تروح الجامعة أو أى حته . . نستناها لغاية ماتنزل . .

وكانت الساعة الخامسة . .

ولم أناقش صلاح ، إنى أعرف جنونه . .

ونمت فى السيارة وهو لا ينام . .

وأصبحت الساعة الثامنة . . والتاسعة . . والعاشرة . . والناس تمر وتنظر إلى صلاح فى دهشة . . وبعضهم يقف ويحييه . . وهو يدعى لكل من يسأله أنه فى انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت . .

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار ، أخاف عليه أن تدهمه الأزمة . . ولكن الأزمة لم تدهمه ، ويبدو أن الحب كالفن أقوى من المرض . . وقضى يومه وهو يحاول أن ينام ، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت فى خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة ، ثم يعود ويحاول أن ينام . .

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون ، وكانت فتاة تريد أن تحادث صلاح وهممت أن أعتذر لأن صلاح لم يكن فى حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة . . فأعطيت التليفون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رأته أمس فى سيارته فى انتظار فاطمة ، وكل سكان الحى رأوه ، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة . . وهى تريد أن تبلغه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى . . مستشفى المقطم . . وأنها تبلغه دون أن تستأذن فاطمة فى إبلاغه وعندما سألها صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة ، أجابت :

– دى تعبانة . . تعبانة قوى يا أستاذ . . كلنا بندعى لها . .

وأصبح صلاح كأنه مجنون . .

وبحثنا عن مستشفى المقطم . .

إنه مستشفى للأمراض العصبية . .

وسألت عنها فى التليفون . . وقال لى عامل التليفون إنها ليست فى خطر ، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المختص وقال لى أيضاً إنها ليست فى خطر ، ولكنها فى حاجة إلى علاج يعيد أعصابها إلى طبيعتها . . ومضى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى ، وأن يتلقى منه كل يوم تقريراً عن صحة فاطمة ، إلى أن اتفق معه على أن يسهل له زيارتها فى وقت لا يكون أهلها معها . . لم يقل للطبيب عن قصة حبه لها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة

تعودت أن تعبر عن إعجابها دائماً وهو لا يعرف أحداً من أهلها ، ولذلك يريد أن يراها وحدها . .

وذهبت معه إلى المستشفى . .

وكان لقاء عجيباً . .

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تماماً . . ولكنها تغيرت . . إنها لا تحادث صلاح بنفس اللهفة ، ولا بنفس اللهجة . . وهى تبدو دائماً كأنها تفكر فى شىء بعيد . . ورغم الكلام الكثير الذى قاله صلاح يؤكد لها حبه . . وارتباطه بها العمر كله ، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبها هو الذى يعينه على فنه وعلى مرضه . . ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تتلقاه بابتسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام . .

وخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثلى فى الشخصية الجديدة التى رأى بها فاطمة . .

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشفى بعد أيام . .

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة . وإشاعة زواجهما تتسع . . وبدأت الصحف تشير إليها دون أن يحاول صلاح أن يتدخل لينفى الإشاعة أو يسكت الصحف . . لقد كان فى حاجة إلى نهال . . إنها أعطته مجتمعاً كان طول عمره يريد أن يصل إليه . . مجتمع القمم . . ومظاهر وتقاليد وفخامة حياة القمم . .

وكانت نهال تبدو أحياناً كأنها تلقنه دروساً فى تقاليد حياة هذا المجتمع ، بل إنها بدأت تعلمه اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وقد تعمد أن يجيد اللغتين حتى أنه لم يكتف بنهال فاتفق مع أساتذة يعطونه دروساً خصوصية فى البيت . .

والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة . . ونهال تعانى

ضغطاً من عائلتها ومن خطيبها السابق لتعود إليه . . وأصبح صلاح مضطراً أن يواجه نفس المشكلة ، مشكلة الزواج . . وهو يعرف عائلتها ويعرف أنها عائلة لا ترحب كثيراً بزواجه من ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها حتى لو اضطر أن يهرب بها . . ولكن هل يتزوج صلاح ؟ لا . . إنه لا يريد . . لا يستطيع . . إنه ليس ملكاً لنفسه إنه ملك فنه . . ملك الناس كلهم . . ولا أدرى هل استطاع أن يقنع نهال بكلامه أو أنها اضطرت للاستسلام لما يريده حتى تحتفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليها . .

وقبلت أن تعود إلى خطيبها الأول تحت ضغط عائلتها ، وقالت لصلاح :

– إننا لا نستطيع أن نتزوج ونحن نعيش الحب . . وأنا مضطرة أن أعيش الزواج بلا حب . .

وقال صلاح بذكائه الذى لا يعجز أبداً عن المنطق الذى يبرر به تصرفاته :

– إن الزواج هو الواقع ، والحب أقوى من الواقع . . وأنت وأنا مضطران أن نستسلم للواقع ، ونحتمله لأننا لا نفقد الحب أبداً . .

وقد عارضته أنا كثيراً . . كنت أريده أن يتزوج نهال مادام لن يتزوج فاطمة . . قلت له إن عبد الوهاب عاش عمره الفنى ولا يزال يعيشه وهو متزوج ، دون أن يفقد الجمهور ولا لهفة المعجبات ، وكان يقول لى :

– عبد الوهاب من جيل لم يكن فيه الزواج يستولى على الرجل كله . . وعبد الوهاب لا يعانى ما أعانيه من أزمات . . وعبد الوهاب أستاذى فى كل شىء حتى فى فن الحياة ولا أستطيع أن أرتفع إلى مستوى أستاذى

وتزوجت نهال .

وصلاح هو الذى أحيا حفل الزواج .. وكنت أحس به وهو يغنى كأنه هو الذى يملك نهال وهو الذى تنازل عنها فى سبيل إسعادها .. كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفضل .. وربما كان هذا هو الإحساس الذى كانت تحسه نهال نفسها .. فحتى بعد الزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدعوه إلى بيتها وتسأل عنه ، وتطمئن عليه وتحبه ..

* * *

وخرجت فاطمة من المستشفى .. ولم نعلم بخروجها إلا عن طريق الطبيب .. ولم تتصل بصلاح بعد خروجها ، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادى الفرقة وكانت تعرف كل أفراده عن طريق صلاح ، وأنها بقيت هناك وقتا طويلا .. وأنها غنت .. لم تغن كمحترفة ولكنها غنت وسط أفراد الفرقة وهى تضحك معهم .. وقال صديقنا .. والله صوتها مش بطال .. وجمد صلاح لهذا التطور الذى حدث فى حياة فاطمة ، إنها لم تعد حريصة على أن ترضيه بانعزالها عن الجو الفنى وخصوصا عن أصدقائه .. بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء .. واستطعت أخيراً أن أحدها ولمتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح .. وقالت فى بساطة :

— هو عايز يشوفنى .. خلاص أشوفه ..

وجاءت إلى البيت .. ولكنها جاءت إنسانة أخرى .. جلست تتكئ كأنها إحدى المعجبات وتهرب من أى حديث يبدأه صلاح عن الحب والفن .. حتى عندما هم بتقبيلها أعطته قبلتها فى برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأنه زبون من زبائن القبل .. وعندما ثار صلاح وبدأ يصرخ فى وجهها ويستعمل لأول مرة ألفاظاً جارحة تخدشها .. ردت عليه بهدوء :

— اسمع يا صلاح .. أنا لسه بحبك ويمكن أفضل أحبك عمرى كله .. أما أنا قررت أنى أحبك زى ما انت بتحبنى تمام .. أنت بتحط فنك ومستقبلك الأول ، وبعدين الحب وأنا كنت بحط الحب الأول حتى لو ضحيت بفنى ومستقبلى ، إنما خلاص حبى زيك ، فنى ومستقبلى الأول .. أنا فنانة يا صلاح .. وانت عارف إنى كلى فن .. وأحب أقولك إنى سبت الجامعة وبقيت فى معهد الباليه .. اخترت الباليه علشان أنا عارفة أنك مش عايزنى أغنى .. مش عايز نبقى أنا وأنت فى فن واحد .. وأنا مش عايزاك تضحى بحاجة إنما عايزاك تعفينى من التضحية .. خلاص .. أنا تعبت من التضحية ..

واستمر النقاش والجدال بينهما كأنه لن ينتهى أبدا ..

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة غريبة .. لم نشهدها أى قصة حب .. إن كلا منهما يبدو كأنه يخاف الآخر ، ويحارب الآخر ، ويجادل الآخر .. ثم فجأة يلتقيان فى ساعات حب عنيفة ، يلتصق فيها كل منهما بالآخر كأنه لن يتركه أبداً ، ثم يعودان إلى الخوف والحرب والمجادلة .. وقد جد على صلاح أنه أصبح يغار على فاطمة .. إنها أصبحت تعيش فى الوسط الفنى كله .. وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك ، ويجن صلاح إلى حد أن يتخذ مواقف قاسية من هذا أو ذاك .. قامت إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف الجيتار ، فما كان من صلاح إلا أن عزل عازف الجيتار من الفرقة واستبدل به آخر .. أما فاطمة فكانت قد تعودت على الغيرة منذ عرفت صلاح .. لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بنهال ولا زيادة عدد المعجبات ..

ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تماما إذ أصيب صلاح بالأزمة التى تقذف بطلقات الدم من فمه .. كانت لا تسمع بالأزمة حتى تترك كل ما هى

فيه وتجرى إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه . . وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه . . تبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالفن والمستقبل اللذين تسعى إليهما . .

وربما كانت فاطمة هى أول من اكتشف أن أقوى علاج لصلاح فى أزمته هو فنه . . كانت بعد أن يتوقف النزيف ويستريح فى فراشه تطلب منه أن يغنى . . وكانت أحيانا تثيره حتى يغنى قائلة :

— صلاح . . سمعنى الغنوة الجديدة . . فيها حته مش عجبانى

أو أحياناً كانت تبدأ هى فى الغناء ، حتى تأخذه إلى الإحساس بالتحدى فيغنى معها أو يسكتها ليغنى وحده . . ولا يكاد صلاح يبدأ فى الغناء حتى يبدو كأنه يسترد حياته . .

ومرت شهور ، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية ، وإذا بفاطمة تبدو فى العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن تكتسب ثقة وحب أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح فى اكتساب من يحتاج إليهم ، فوضع أساتذة المعهد عرضاً فى البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهى ترقص وتغنى أيضاً . .

وأثارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها . . بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء . . وقبل أن تتم دراستها فى المعهد التحقت بفرقة الرقص الشعبى وأصبحت تقدم شيئاً جديداً . . رقصات باليه كلاسيك ، مع أغان شعبية . . تغنى وهى ترقص . .

وأصبحت فاطمة نجمة . .

كل ما كان يضعفها فى نظرى أنها استمرت تقلد صلاح فى كل شىء . . فى حركاته وفى أسلوبه . . وفى تصرفاته وتفكيره . . ربما لم تكن تتعمد تقليده

ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها ، وأصبحت تؤمن ألا طريق للنجاح إلا طريق هذه الشخصية . . حتى لو كانت تقدم فناً يختلف عن فن صلاح . .

وكنت كثيراً ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه فى عمل واحد . . حفلة غنائية . . فيلم سينمائى . . مسرحية . . ولكنه كان يرفض . . وكان يقول فى سخرية مرة :

— عايزنى أنزل لمستواها . . ولا ترفعها لمستواى . . والناس بعد ما يشوفونا حايتكلموا عنها ولا عنى . .

وكنت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة ، ولكن تتحدث عن العمل الفنى وإذا ضمها إليه فى عمل واحد فإنه سيقدم عملا فنياً ضخماً يثير ضجة ويخلق مستوى فنياً جديداً ، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدما قفزة فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى الآخر . . وكان يرد على قائلا :

— عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلثوم إلا بعد ما بطل يغنى للناس . . اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وهى جنبه . . ما ظهرش معاها على مسرح ولا فى فيلم ولا فى أغنية واحدة . . مش ممكن اتنين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا راجل وست . . وما يبقوش بيغنوا يبقوا بيقولوا منولوجات . . وأنا مش عايز أبقى منولوجست ياسين عمر . .

وفاطمة تنطلق فى آفاق النجاح . . أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها . . إنها ترقص رقصات الباليه وهى تغنى وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح ، كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . وانقسم الشعب إلى حزب صلاح ،

وحزب فاطمة ، كما كان منقسماً إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم . .

وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أى علاقة لها بصلاح ، كما كان يحرص هو من زمان على إخفاء علاقته بها . . ترفض أن تظهر معه فى مكان عام ، وترفض أن تلتقط لها صورة معه ، وأحاديثها عنه التى تنشرها الصحف أحاديث باردة . . وأحاديثه عنها أبرد . . وبرغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد . .

إنى فى فترات متباعدة أفاجأ بهما فى البيت يستردان كل حلاوة قصة الحب الأولى ، وأحيانا أيضا كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل فى بيتها بعد أن انفصلت عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها . . والناس لا تعرف شيئاً . .

ودائما إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة . . وعادت الفتاة الصغيرة التى تضحى بكل شىء من أجل حبها وجلست بجانب فراشه . . حتى لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا اتساءل : كيف ستنتهى هذه القصة . . قصة أعجب حب بين رجل وامرأة . . لا . . إنهما ليسا رجلا وامرأة . . إنهما فنان وفنانة .

٨

هذه هى قصة حياة صلاح . . أو قصة ما عشته مع صلاح . . وقد عشت معه العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح . . ثم حدثت مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل بناء بيت الطلبة . . ويومها قرر الأطباء أنه يجب أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك . . وحدد له بسرعة موعد مع الطبيب الإنجليزى . . وسافرت معه إلى هناك . . إلى لندن . .

ووضع الأطباء الإنجليز مرض صلاح فى صورة أخطر مما وضعها أطباء مصر . . وبعد أيام طويلة قضاها صلاح وكل أدوات الكشف الطبى الحديثة مسلطة عليه تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له . .

ولم أفهم تفاصيل العملية ، وربما لم أهتم بفهمها ، يكفى أنها عملية جراحية ، وأول عملية يتعرض لها صلاح . . وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر يوما وهو غائب عن الوعى ، وكلما أفاق ، حقنوه ليعود إلى غيبوبته . .

ودخلت إليه مرة وهو راقد على فراشه فى المستشفى وإذا بى أجده يغنى . . صوت ضعيف منهار ، ولكنه يغنى به . .

وقلت له :

– ما تجهدش نفسك يا صلاح . . مش وقت الغنا . .

وقال وكأنه يبكى :

– أنا حاسس أنى حاموت ، وعايز أموت وأنا باغنى . .

وكتمت دموعى حتى لا أبكى معه ، ولا أغنى معه . . أغنية الموت . .

والحمد لله . . بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التى تعود عليها . . حالته بعد أن تنتهى الأزمة . . يغنى ويعمل وهو فى فراشه . . وفى مرة ذهبت إليه وفاجأنى قائلا :

— طلع الناى . .

وكان يعلم أنى أحتفظ دائماً فى جيبى بصفارة صغيرة أتسلى بالعزف عليها عندما أجد نفسى وحيداً . . وأخرجت الناى من جيبى . . وبدأت أعزف عليه ، وصلاح يغنى . . وإذا بالممرضات يلتففن حولنا معجبات ضاحكات ، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمغادرة الفراش وبينهم كثير من العرب ، جاءوا إلى غرفة صلاح ليستمعوا إليه . .

وبدأ صلاح يغنى مرات كثيرة فى المستشفى خصوصا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويغنى لهم ، وهو مريض بينهم . . وكان يمكن أن يغامر صلاح كعادته ويغادر المستشفى قبل أن يسمح له الأطباء ، ولكنه كان لا يزال فى خوف وحرج أمام الأطباء الإنجليز . .

وفى يوم قال لى صلاح :

— إيه رأيك . . تعال نغنى لهم بالإنجليزى . . علشان يفهمونا . .

وبدأ صلاح يغنى أغنية إنجليزية كانت شائعة . . ولكنه كعادته . . كان طموحا عنيداً ، حالما ، كان يريد أن يغنى أغنية بالإنجليزية له وحده . . أغنية جديدة هو الذى يقدمها . . وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليز سعيا ليتفق معهم على تلحين أغنية له . .

ولكن قبل أن يبدأ فى صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى على أن يعود إليهم بعد ستة شهور ، لاستكمال العملية التى أجريت له . .

وفى الطريق إلى مصر قال لى صلاح :

— اسمع . . أنا وحدى . . وعايز أغنى بالإنجليزى . . طيب ليه كمان ما يكونش ملحن مصرى يلحن للإنجليز . .

ومنذ وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع الملحنين على إخراج أغنية بالإنجليزية . والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأسعد وأتم صحة مما كان قبل العملية . . واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة فى أقل من شهرين ، وأن يقيم عدداً من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع ، كأنه كان يريد أن يطمئن الناس على صحته . .

وفاطمة فرحة به . . وتخفى فرحتها وحبها . . وتلقاه سراً ، هذه اللقاءات المتباعدة التى قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين . .

. إلى أن عدنا إلى لندن . .

ومرت الأيام الأولى بعد العملية . . والأطباء يجتازون به حافة الموت . . إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن . . وبدأ يغنى . . ثم أرسل يستدعى ثلاثة من الموسيقيين . . عازف الجيتار ، وعازف الكمان ، وعازف الطبلة ، وقدم أغنيته الإنجليزية فى المستشفى . .

ولا تتصور فرحة الممرضات والمرضى بالأغنية . .

لقد نجحت داخل المستشفى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته . . بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليز بعرض إقامة حفل عام يغنى فيه صلاح بالعربى للمقيمين العرب فى لندن ، ويغنى بالإنجليزية للشعب الإنجليزى . .

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليز ، فأصبح ينقاد لتهوره ، أو ينقاد

لقنه دون أن يستأذنهم . . فكان يخرج من المستشفى بلا إذن . . ويعود دون أن يقول متى يعود ، وفى مرة شكوته للطبيب ، وقال لى فى اطمئنان :

– هناك شىء فى الإنسان لم يصل إليه العلم بعد . . شىء أقوى من العلم . . إن صلاح يعرف مرضه جيداً ، وهو قطعاً لا يريد أن ينتحر . . فإذا كانت فى داخله دوافع أقوى من المرض فيجب أن نتركه لها . . من يدرى ربما كانت هذه الدوافع هى سر استمراره فى الحياة . . ربما كان تمسكه بفنه أقوى من كل ما تسلطه الحياة . . فلنستسلم للأقوى . .

وأصبحت هذه هى حياتنا . .

نقضى نصف السنة فى مصر . . ونصفها الآخر فى لندن مع الأطباء الإنجليز . . وصلاح لا يريد أبداً أن يستسلم حتى يشفى تماماً . . بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه . . وأقام حفلات عامة فى لندن نجحت نجاحاً ضخماً ، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تذاع فى الإذاعة الإنجليزية كما تذاع أغانيه فى القسم العربى . . وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد فى فراشه وفى المستشفى . . إنه دائماً مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه . . وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحفل رغم تحذير الأطباء . . بل كان أحيانا يخرج من المستشفى ويأخذنى من يدى وأجد نفسى فى طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقيم حفلا هناك . . ثم يعود إلى المستشفى . .

وفى مرة ظهرت فى صحة صلاح عناصر جديدة خطيرة ، وتقرر أن يذهب للعلاج فى فرنسا بدلا من لندن . . وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح فى حالة ميئوس منها . . كل الناس فى انتظار الخبر المفزع . . وأنا منهم . .

وكنا فى مستشفى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا . .

كانت قد تعودت أن لا تجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج فى الخارج ولكن هذه المرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات ، وجاءت لتجلس بجانبه . .

أصبح الحب بجانبه . .

وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت ، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت . . وانتصر الفن . . وعاد يغنى . . وأقام حفلا غنائياً فى مسرح باريس لأول مرة تشترك فاطمة معه . . لقد ظهرت أمام الجمهور فى باريس ورقصت وغنت . . ثم ظهر صلاح وغنى وحده . . غنى بالعربية . . وبالفرنسية أيضا . . ثم ظهر الاثنان معا وألقيا أغنية مشتركة . .

كان هذا هو أكبر تطور فى قصة صلاح وفاطمة . . انتصر الحب حتى جمعهما فى عمل واحد وإن كان لم يجمعهما فى زواج . . ولا أعتقد أنه سيجمعهما فى زواج أبداً . . وحتى فى باريس رأيت نهال تجلس بين جمهور المتفرجين . . وهكذا نعيش . .

نعيش فى فرحة نجاح فنى . . وفى خوف دائم من الموت . . والنجاح والموت يتصارعان داخل جسد يعيش على الألم . .

كيف ننتهى . .

لا أدرى . .

لا أحد يدرى . .

الله وحده . . رب الفن ورب العلم . .

تمت